



سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

حصاني

ندوة الدراسات العُمانية

البحوث والدراسات التي قدمت في الندوة

ذوالحجة ١٤٠٠ هـ - نوفمبر ١٩٨٠ م

المجلد الثالث



سَلْطَنَةُ عُومَان
وَزَارَةُ التَّرَاثِ الْقَوْمِيّ وَالثَّقَافَةِ

حَصَانُ

مَدْوَنَةُ الدِّرَاسَاتِ الْعُومَانِيَّةِ

ذَوُ الْحِجَّةِ ١٤٠٠ هـ - نَوْفَمُبْرَ ١٩٨٠ م

الطبعة الثانية

المجلد الثالث

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الآراء والمعلومات الواردة في البحوث
تعبّر عن رأي الباحثين وعلى مسئوليتهم

تاريخ عُمان ونشاطها الداخلي
من مطلع الإسلام حتى الآن.

الأفلاج العُمانية ونظامها

بدر بن سالم العبري

الأفلاج

إن سلطنة عمان بصفتها بلداً زراعياً مهماً بفضل تربة تربتها الخصبة ، وبحكم موقعها الجغرافي المتناخم لخط الاستواء مما جعلها تتمتع بميزة تقلب الفصول فيها بين بارد شتاء وحار صيفا . ومتوسط المناخ في بعض مناطقها .

ومن هنا نجد أن الزراعة في عمان مستمرة الإنتاج على مر الفصول في السنة القمرية . وعلى اختلاف أنواع المحاصيل . أى أن كل فصل من فصول السنة يكون صالحاً لنوع من أنواع الزراعة .

وحيث أن كل بلد زراعى لابد وأن تتوفر فيه مياه الري بصفة عامة . لأن الماء هو العامل الأساسى لحياة المخلوقات كلها سواء في ذلك الحيوانات والنباتات . قال الله سبحانه وتعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » فلا حياة لهذه الكائنات بدون الماء .

وبما أن كل قطر من الأقطار تختلف فيه مصادر المياه العذبة ، فبعضها تكون حياته الزراعية على المطر ، وبعضها على الأنهار التى تستمد مياهها من الثلوج المترسبة في المرتفعات الجبلية الباردة ، وبعضها على السدود التى بنيت من أجل تخزين مياه الأمطار الموسمية فيها لكى تمد الحقول الزراعية المنتفحة من مائها ، وبعضها على الآبار الجوفية في المناطق المتوفرة بها المياه الجوفية والبعض الآخر على الأفلاج النموذجية — وهذا هو مقصودنا في هذا البحث — فإن سلطنة عمان هي الإقليم الوحيد الذى يوجد فيه الأفلاج ويعتبر هذا النظام قديماً من نوعه في العالم وقد يوجد قليل منه في إيران .

والفلج في العرف العماني هو الماء الجاري عبر قناة مشقوقة في الأرض ، مصدره المياه الجوفية الموجودة في باطن الأرض ، وهي بقايا مياه الأمطار والتي تمكث في خبايا طبقات الأرض ، وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى : « فَأَمَّا الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » فسبحان البديع في صنعه الحكيم في تدبيره ، الواسع فضله •

وهذه المياه المترسبة في جوف الأرض يكون مصدرها الرئيسي هو المرتفعات الجبلية والتي تكون بمثابة خزان ينفق مخزونه بطريقة منتظمة من خلال قنوات تنساب فيها المياه إلى منخفضات السهول والقيعان •

وقد اتجه المفكرون العمانيون القدامى لاستخراج هذه المياه وإيرازها على سطح اليابسة للانتفاع بها ، فقاموا بوضع هندسة كلفتهم الكثير من الوقت والكثير من المادة حتى توصلوا إلى الهدف ، ونجحوا في عملهم هذا نجاحا باهرا ، يوحى لنا أنه كان عن مهارة فائقة وهندسة عجيبة ، فكانت لهم تاريخا مخلدا يبتقى على مدى الزمان ومر العصور •

وهذه الهندسة دقيقة في تكوينها ، عظيمة في إنشائها وضعتها موهبة الإنسان العماني ، وقاستها بمقيار عقلى ، ووزنت مقاييسها بميزان علم تطبيقي مستمد من تجارب تفكيرية عقلية •

وأول البدء في المشروع هو إلقاء الضوء من المفكرين على منطقة ما تتوفر فيها العوامل الجغرافية على النحو التالي :

١ — وجود مناطق جبلية مرتفعة تستقطب أكثر المياه التي تنزل من الأمطار فتتجمع في طرف واحد فتفيض إلى منحدرات ترابية تكون صالحة للزراعة والحيوان فيها

٣ - توفر معلومات عن وجود مخزون من المياه التي تخلفها الأمطار السنوية سواء أكانت أمطاراً موسمية أو غير منتظمة الهطول ، فقد لا تتوفر هذه المياه في بعض المناطق رغم وجود مرتفعات وأودية بحكم أرض الوادي إذا كانت صخرية لا تتسرب منها مياه الأمطار إلى باطن الأرض •

أما الأودية الرملية المختلطة بالتراب فهذه هي التي تختزن في باطنها المياه وتشكل المستنقعات في شيعانها وهي التي تكون صالحة لشق فلج يمتص المياه الماكثة في طبقاتها ويستوعب مجاريها الرئيسية عبر القناة التي تكون غالباً على ضفاف الوادي •

ثم تأتي مرحلة تنفيذ شق الفلج ، وذلك بعد التأكد من صلاحية المنطقة وتوفر العوامل المطلوبة فيها ، ومن ثم يقوم المهندسون برسم قياس بتفكيرهم وليس برسم خريطة تبين الموقع ، وقبل كل شيء يقومون بحفر أول بئر في أقصى الحد المطلوب منه الماء في الأرض المرتفعة لكي يقفوا على مسافة عمق الماء فيها فإذا وجدوه مثلاً في عمق عشرة أمتار ، قاموا بتخطيط المسافة السطحية المؤدية إلى المنخفضات ، فإذا كان مستوى السطح قليل الانحدار فستكون المسافة المحددة لاستخراج الماء فيها طويلة تبلغ تقريباً ألفي متر أو أكثر وإذا كان مستوى السطح كثير الانحدار فستكون المسافة قصيرة لا تتجاوز الألف متر •

فإذا انتهت مرحلة القياس الهندسي ، بدعوا بشق أخدود على السطح ويبدأ هذا الأخدود من الحد النهائي للمسافة المقررة ومن الحد الأدنى للمنطقة المطلوب لها الماء ، ثم يواصلون شق ذلك الأخدود وهو متعمق تدريجياً حسب ارتفاع سطح الأرض بحيث تكون قاعدته الأرضية مستوية قابلة لجريان الماء فيها ، فإذا بلغ عمقه حوالي ثلاثة أمتار مثلاً فإنهم

وهنا تبدأ هندسة أخرى وهى أن ذلك الأخدود حينما يختفى فى عمق خمسة أمتار مثلاً فى باطن الأرض أصبح بحاجة الى تهوية ليكون العاملون فى الأخدود يتمتعون بكمية وافرة من الأكسجين الهوائى . ولذلك اخترعوا هندسة آبار صغيرة ويسمونها ثقاب والبعض يسميها غرض جمع غرضة وتكون هذه الآبار متصلة بالأخدود بحيث تأتيه من إحدى جوانبه ولا تأتيه من سماء سقفه لئلا تشكل عليه خطراً وتكون المسافة بين البئرين مقدار عشرة أمتار وبهذه الآبار أو الثقاب حصلت فائدة الأكسجين من ناحية والوصول الى الأخدود من ناحية أخرى بدلاً من الخوض فيه من منبعه . وتسير العملية هكذا حتى يصلوا بالأخدود إلى البئر النموذجية القياسية .

وفى خلال عملية شق الأخدود قد يجدون عدة ينابيع تنبجس فى ظرف الأخدود حتى إذا وصل الشق إلى البئر المذكورة اجتمعت المياه التى حصلوا عليها فى ظرف الأخدود ، وكونت غلجاً متدفقاً بمياهه العذبة فيكون الفلج فى كبره وصغره حسب كمية المياه الجوفية المخزونة فى تلك المنطقة .

هذه عملية شق الأفلاج الرئيسية ، وهناك عملية أخرى للأفلاج الصغار التى تروى القرى الصغيرة المتواجدة على ضفاف الأودية الكبرى التى تظهر المياه على سطحها بصورة مستمرة فهذه تشق لها ساقية فى باطن الوادى يتراوح عمقها ما بين المتر إلى ثلاثة أمتار وبعضها أعمق ، ويسمى هذا الفلج « قبيل » مأخوذ من قبل الشئ يقبله بالتخفيف أى جعله يقبل الى الجهة التى أراده لها .

وهذه كثيرة الوجود فى عمان لكنها محدودة البقاء وكثيرا ما تتأثر بالجفاف فى فترة انقطاع الأمطار فحينما ينقطع ماء الوادى تجف مياه هذه الأفلاج ولها أحكام تختلف عن أحكام الأفلاج الرئيسية ، فلا يجوز تعميقها أو توسيع جداولها أو تغيير منابعها لان ذلك يضر بالآخرين .

أما الأفلاج التى تنبع من سفوح الأودية فهذه عيون طبيعية وهى غزيرة جداً لأنها لا تحتاج إلى عمل وجهد ، وهذه هى التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بقوله « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار » وتتميز بخصوصيتها فهى لا تتأثر بالجفاف ولا تزيد ولا تنقص . وبعضها معدنى شديد الحرارة مثل حمام الرستاق .

أحكام تقسيم الرى بماء الأفلاج

قد تختلف أحكام تقسيم الأفلاج بين فليج وآخر إلا أن معظمها يتفق مع العرف المعمول به فى القرية ، والأكثرية تكون حسب الأحكام التالية :

١ — يقدر مدار الوقت الذى يجب أن يحصل المواطن فيه على نصيبه من الماء على مقدار ما تستطيع أن تعيشه المزروعات من الأيام . ونجد أن الحد الأقصى هو عشرة أيام بلياليها : والحد الأدنى هو أربعة أيام . والأكثرية على مدار ثمانية أيام ، ويراعى فى ذلك تربة المنطقة فإن بعضها حار والسبب أن التربة تكون خليطة بالرمل والحصى ، فمثل هذه لا تتحمل المزروعات فيها أكثر من أربعة أيام وإلا فإن النباتات والأشجار ستكون ضعيفة الإنتاج ، وبعض التربة باردة وهى التى تكون غير مختلطة بالرمل والحصى وتكون طبقة التربة كثيفة جداً وهذه تستطيع الأشجار أن تعيش فيها بدون أى تأثير إلى مدة عشرة أيام فأكثر ، ومن هنا قدر خبراء الأفلاج تقسيم الماء بين المواطنين بالقرية مراعين فى ذلك واقع التربة .

٢ — ولنذكر مثلاً الفليج الذى يكون دورانه على مدار ثمانية أيام بلياليها فجعلوا الأيام الثمانية ستة عشر بادة أى أن النهار بادة والماء

بادة ، وقسموا البادة إلى أربعة وعشرين أثراً ، أى اثنى عشر ساعة كل نصف ساعة يسمى « أثر » ، كما قسموا الأثر أربعة أقسام ، وكل قسم يسمى « ربة » ، وقسموا كل ربة إلى ست قياسات ، فالأثر معهم أربعة وعشرون قياساً ، وعندهم أيضاً أرباع البادة ويسمونه الربع وهو ٦ أثار .

وهناك تسميات أخرى عند بعض الناس فيسمون اليوم الكامل « ردة » وتجمع على « ردات » ، وقد جمع بعض الشعراء ردات غلج بلاده في بيتين من الشعر فقال :

ردات نهر بلادنا الحمرا أتى
تعدادها في بيت شعر مفصح
مسعود يعرب إذ يهني خلفا
بالناعبي وعلى الصغير الشرمحي

ويعنى أن ردات غلج بلاده ثمان ، وقد سميت باسم الأسر القاطنة في البلاد وهم حسب التتابع :

- أولاد مسعود .
- أولاد يعرب .
- أولاد مهنسا .
- أولاد خلف .
- أسرة النعب (وهى قبيلة عريقة منها العلامة الكبير الإمام بوسعيد الكدمى الناعبى) .

— أولاد على •

— البادة الصغيرة (وهذه مرجعها الفلج نفسه أى أن ماءها يقعد بالزاد العلنى أسبوعيا ويستتبعه الذين لا يكفى مأوهم لرى مزروعاتهم) •

— أسرة الشرامحة •

بقى أن نبين سبب تسمية الرذات المذكورة بهذه الأسر ليتضح للقارىء الكريم معرفة أحكام تقسيم الفلج في بداية وجوده •

ولاشك أن الحمراء حديثة عهد فقد شق فلجها في الستينات من القرن الحادى عشر الهجرى وذلك فى عهد الإمام سلطان بن سيف اليعربى ثانى أئمة اليعاربة وحينما جرى ماء الفلج وبدأت الزراعة ، قسمت الأراضى الزراعية لسبع أسر كانت متواجدة آنذاك فى تلك المنطقة فأعطيت كل أسرة ردة من الرذات السبع التى تكوّن وتركّز عليها تقسيم الفلج •

كما قسمت الردة التى تضم بادتين لأفراد الأسرة حسب التكافؤ فى الأفراد وقد روعى فى توزيع النصيب وتقليله المسئوليات بين أفراد الأسرة •

ولما كان فلج الحمراء من أهم افلاج عمان ، فإننا نقدم فيما يلى بعض صور لهذا الفلج العظيم : —



منبع فلج حمراء العبريين حيث ينقسم الى ساقيتين رئيسيتين

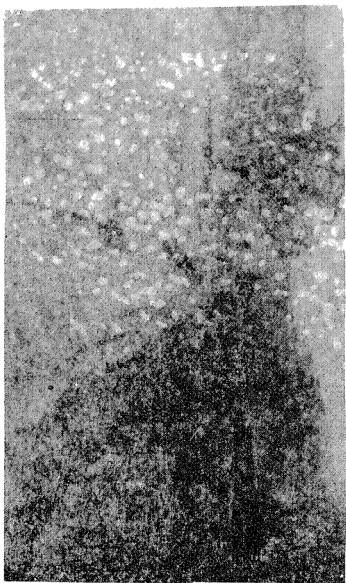
جزء من فلج الحراء يوضع احدى الساقيتين





منظر لشلل من الحجر

جزء آخر من خليج الصراء



أحكام تقسيم ماء الفلج وضبط الوقت لذلك

يتركز تقسيم الماء بين الأفراد على علم دقيق وخبرة ومهارة لا يتقنها إلا القليل من الناس ، وتأتى تلك الخبرة بحكم الممارسة في العمل وتكون على ضابطين أساسيين^(١) :

١ — الضابط الليلي :

وهى النجوم وهذا يحتاج إلى خبرة دقيقة جدا . فقد جعلوا لكل نجم تسمية معروفة عند الجميع . وحصروا عدد النجوم المتعارف عليها وقدروا الوقت والمسافة بين كل نجمين . وقد تتفاوت المسافات بحيث ينون بعضها مسافة ثلاثة أثار أى ساعة ونصف من الوقت . وبعضها مسافة أثنين أى ساعه واحدة . وبعضها أثر واحد أى نصف ساعه وبعضها أقل أى مسافة ربع أثر .

لكن ما هى هذه التقديرات ؟ ويأتى عامس غاسوها : وقياس ذلك بين طلوع نجم والذي يليه ، فالمسافة من وقت طلوع النجمين هى المقدرة عندهم بهذا التقدير .

ولكن من أين عرفوا هذا التقدير والقياس حتى جزموا به وانتفتوا عليه ؟ كل ذلك سوف نشرحه مفصلا فى فقرة أخرى تتضمن جميع التفصيلات وتعطى الضوء الواضح إن شاء الله .

(١) من هنا الى آخر البحث يورد المؤلف تفاصيل دقيقة عن وسائل توزيع مياه الأملاج اعتمادا على الشمس أو النجوم ، وكان يمكن للمؤلف أن يشير الى النظام القديم اشارة سريعة دون ايراد هذه التفاصيل الدقيقة المعقدة التى توقف العمل بها بعد ظهور الساعات كما ذكر المؤلف فى آخر البحث ، لكن المؤلف اراد ان يدون النظام القديم كجانب من التراث (د. شلبى) .

٢ - الضابط النهارى :

وتسمى محاضرة النهار — وقد قسموا وقت النهار إلى أربعة وعشرين أثرا — أى — اثنتى عشر ساعة ، ووضعوا لهذا التقسيم معياراً زمنياً وربطوه بمعيار تطبيقي ، فاختروا للتطبيق بقعة صالحة لخطيط خريطة التقسيم بشرط أن تكون هذه البقعة مستوية السطح لا عوج فيها ، ولا ارتفاع ولا انحدار وأن تكون مقابلة لأشعة الشمس من حين ما تطلع إلى أن تغرب وقدروها فى حدود عشرة أمتار طولاً وعشرة أمتار عرضاً وبعضها أكثر ، وأن تكون غير معرضة لظل بناء أو شجرة •

ثم نصبوا فى وسطها عموداً خشبياً طوله قدر مترين ونصف ثم خططوا تلك البقعة بخطوط قياسية منظمة ، وقدروا المسافة بين الخطين بمقدار ما يستغرق مجرى ظل ذلك العمود أثراً من الوقت ، أى نصف ساعة ولكن بتفاوت فى المسافة على جريان ظل ذلك العمود •

فمثلاً الظل فى منتصف النهار سيكون جريانه بطيئاً بخلاف جريانه وقت الصباح ووقت المساء ، فتكون المسافة حينئذ فى منتصف النهار قريبة ، ثم تتضاعف تلك المسافة إلى أن تصبح فى آخر النهار أضعاف المسافة فى وسط النهار علماً بأن تقدير الوقت فى تلك المسافات سواء ، ثم ربطوا تلك الخطوط بعلامات حجرية تكون ثابتة دائماً ومثبتة لتلك الخطوط ، نظراً إلى أن الخطوط معرضة للتغيير من جراء عوامل الزمن ، ولكن تلك العلامات تبقى لا تتغير ولا تتبدل •

وجعلوا هذه العلامات على ثلاثة جداول :

جدول فى الوسط ، وجدول على جنوب العمود ، وجدول على شمال العمود • وذلك مراعاة لتغيير الفصول وانتقال الشمس فى مجاريها الصيفية والشتائية ، ثم قسموا المسافة بين الخطين إلى أربعة أقسام صغيرة ،

وجعلوا بين الأقسام علامات مميزة ، وقدروا المسافة بين العلامتين بحوالى ربع أثر من الوقت أى ثمن ساعة وسموها ربعة بضم الباء . وأطلقوا عليها اسم المحاضرة من حضور الشيء إذا دنى أو برز ومعناها أن كل إنسان له نصيب من ماء الفلج فليحضر لاستلام نصيبه في الوقت المحدد له بواسطة المحاضرة المذكورة إذا كان دورانه نهارا ، وذلك حينما يصل ظل العمود إلى الخط المقرر لابتداء نصيبه فيذهب حينذاك حاملاً في يده ورقها من الشجر مقطعا قطعاً صغيرة ويرمى بها في نقطة معينة من جدول الفلج .

ثم يتابع ذلك الورق الذى يجرى به الماء في ظرف الجدول وتسمى الساقية إلى أن يصل المقر الذى يريد أن يسقى به مزروعاته فيفتح له الفتحة التى تؤدى إلى بستانه الخاص ، ويسمون تلك الفتحة « صورا » ، ويمنع جريانه من باطن الساقية بلوح سواء كان خشبياً أو حجرياً ، ويسده بالطين سداً منيعاً فيستمر في السقى بماء طيلة الوقت المحدد لنصيبه قل أم كثر حتى يأتى دور نصيب غيره ويعمل مثل ما عمل الأول ، وهكذا تكون عملية تقسيم ماء الفلج بالضابط النهارى وقد تكون هنالك اصطلاحات أخرى وسوف نببحثها إن شاء الله تعالى .

وهناك أفلاج يختلف حكم تقسيمها عما ذكرناه فقد قسموها سهاماً وجعلوا كل سهم مقابل أثرين ونصف أثر وربطوا كل سهم بقطعة من الأرض المزروعة فيصير تابعا لها في ملكيته وسواء تبدلت هذه القطعة من مالك إلى آخر ببيع أو إرث ، فإن السهم مرتبط بها في التبعية ، وليس لأحد أن يتصرف في هذا الماء بأية طريقة كانت فلا يقعد (يؤجر) ولا يبيع ، ولو أراد أن يفعل ذلك فإن النظام العام يمنعه من هذا التصرف .

الضابط الليلي

لقد نجح المفكرون العمانيون في تقسيم الوقت في النهار لتوزيع ماء الملاج بين أربابها بواسطة ظل العمود الخشبي . وذلك بعد اختبارات تمريئية وقياسات عقلية . لكن هنالك سؤال لا بد من جوابه وهو : إذا كانت السماء ممطرة والعيوم تحجب الشمس فكيف يكون هذا التقسيم ؟ •

نفسا إنها مشكلة •• نكن خبراء التقسيم حلوا هذه المشكلة بطريقة خاصة يرضى بها الجميع ، وذلك بعد ما عرفوا أن هذه البادة التي تضم أربعة وعشرين أثرا هي مقدمة لسبعة أشخاص مثلا أو أكثر أو أقل من ذلك ، وأنهم في ذلك يتفاوتون فبعضهم له ثلاثة آثار وبعضهم خمسة وبعضهم

سبعة يتولى التقسيم بينهم خير فيكون الوسط بينهم وهذا الخير لديه المعرفة الكافية بسقى الفلج ستحرقى كم ثان يسقى الأثر الواحد عددا من النخيل أو جزءا من مزرعة البرسيم أو الحنطة فمن هنا يقدر نصيب كل واحد منهم ، فإذا عرف مثلا أن الأثر الواحد يروى في سقيه عشر نخلات وصاحب الماء له ثلاثة آثار أعطى ما يروى ثلاثين نخلة تحت إشراف ذلك الخير ، كذلك في سقى الزرع تقدر كمية ما يسقيه الأثر من مساحة أرض المروغ فدائنا أو أكثر فيعطى صاحب الماء مقدار ما يرويه ماؤه سابقا •

وبهذه الطريقة المتعارف عليها مع الجميع سيكون قد أخذ كل واحد نصيبه غير منقوص •

محاضرة الليل أو الضابط الليلي

وكما قلت أيضا إن اتقان الضابط الليلي أو بلفظ محاضرة الليل حسب عرف المزارعين ، يحتاج إلى خبرة واسعة . ومعرفة دقيقة لا يستطيع تفصيلها إلا قليل من الناس وهم المزارعون القدامى الذين مارسوا الزراعة ممارسة تطبيقية ودرسوا شئونها ومشاكلها دراسة عملية ، ونأتى استفادتهم هذه من تلك المعرفة بحكم مزاولتهم للعمل نفسه . ويتلقون تلك المعرفة ممن سبقهم من آبائهم وأجدادهم ، ومن النادر أن هذه المعرفة توجد عند العامل « البيدار » أكثر مما توجد في أرباب العمل « الهناقرة » بل قد لا يدرك رب العمل كمية مائه ولا ضبط وقته ، والسبب أن العامل عند أرباب انعطافات يتعاقب عليه الأب والابن بل والحفيد . وبإهمال الرغب تعليم ولده انتقالا على العامل . فيصبح الولد لا يعرف شيئا من ذلك ألبته وهذا يحدث كثيرا بين الناس .

تعريف محاضرة الليل

وقد جعلوا ذلك في ضابط زمنى محدد . ووضعوا جدولا لنجوم معروفة لديهم بأسمائها ، وأوقات طلوعها وغروبها وقدروا الوقت بين طلوع نجم وظلوع آخر ، أو بين طلوع نجم وغروب آخر بتعارف زمنى مؤقت . وحيث أن هذا التوقيت يختلف في تحديده في سعة الزمن وضيقه ما بين طلوع نجم وآخر ، فجعلوا لذلك تسمية معروفة لديهم بالأثر وربح الأثر .

وقد وجدوا أن أكثرها مسافة في التحديد يبلغ مقدار ثلاثة آثار من الوقت وأقلها يبلغ أثرين . وتقسم هذه المسافة الزمنية بين النجمين بطلوع نجم أو بغروب آخر .

إذا ما هو تحديد المسافة بالضبط التى تبلغ ثلاثة آثار ؟ والجواب أنه إذا طلع النجم المحاضر عليه ، فإنه يرتفع فى الأفق بمقدار ثلاثة أمثار .

وقدروا لكل متر أثرا واحدا • وبارتفاعه الى هذا الحد يطلع النجم الذى يليه وهنا ينتهى مفعول النجم الأول •

إذا غلو أردنا تقسيم المسافة بين هذين النجمين وتطبيقها عمليا فى تقسيم ماء يبلغ مقداره ثلاثة أثار حسب العرف معهم فماذا تكون القسمة ؟ الجواب أن المسافة بين هذين النجمين لها علامات تقسمها ثلاثة أقسام وهى طلوع نجمين متتاليين مثلثين للتوقيت أو طلوع نجم بمسافة ثلث الوقت وغروب آخر بقدر ثلث الوقت الآخر — فحينئذ نكون قد عرفنا هذه المسافة وتقسيمها الزمنى بين النجمين وكذلك المسافة التى تقدر بآثرين يقسمها طلوع نجم صغير بعدما يمضى من الوقت على طلوع النجم المحاضر عليه مقدار أثر فتكون المسافة الباقية من وقت هذا النجم أثرا واحدا أيضا ، وبذلك ينتصف الوقت ويسمى النجم الصغير الذى ينتصف بطلوعه وقت النجم المحاضر عليه « المنصف » •

بقى سؤال وهو كيف يجرى توقيت نصف الأثر وربعه فى الليل ؟ علماً بأن بعض المالكن للماء تكون حصتهم أثرا ونصف أثر ، وبعضهم له أثر وربع أثر ، وبعضهم له أثران إلا ربعاً •

ولفصل هذا الماء جعلوا تقديرات زمنية محددة تحديداً يفصل هذا الماء تفصيلا عدلا بحيث لا ينقص منه شيء ، وذلك بالطرق الآتية :

١ — يقدرّون استقامة أحد النجوم المحاضر عليه فى كبد السماء ومعرفتهم لذلك أن يقف المحاضر على جدار مسجد مستقيم غيرفع بصره إلى السماء فحينما تلامس رؤية النجم جدار المسجد فإنه يكون قد بقى من الوقت المقدر بطلوع نجم من نجوم المحاضرة مقدار « ربة » أو يكون قد ارتفع فى الأفق بهذا المقدار أو بتقدير آخر حوالى نصف أثر • وبهذا استطاعوا قسمة الماء بالتوقيت المبين •

٢ — التقدّير بغروب أحد النجوم المعروفة • فإذا غرب ذلك النجم .

عرفوا أنه بقى من وقت طلوع النجم المحاضر عليه قدر نصف أثر من الوقت
الزمنى أو ربع أثر أو ثمنه • وبذلك أيضا استطاعوا تقسيم الماء بهذه
الطريقة فيأخذ كل ذى حق من ماء الفلج حقه •

وهناك طرق أخرى لا يمكن ذكرها أو شرحها لدقة تصنيفها •

معرفة النجوم

أسماء النجوم تختلف بعضها باختلاف المناطق ، أما ذاتها فلا اختلاف
بينهم فيها ، وهى كالآتى حسب العرف السائد فى عمان الداخل :

- ١ — كويى •
- ٢ — الموقى •
- ٣ — الغراب •
- ٤ — الأدم •
- ٥ — الصارة الأولى •
- ٦ — الصارة الأخرى •
- ٧ — السعد •
- ٨ — الكوكبين •
- ٩ — الثريسا •
- ١٠ — الدبران •
- ١١ — الشبكة •
- ١٢ — الجوزاء •
- ١٣ — الجنب •
- ١٤ — الذراعين •

- ١٥ - البطن
- ١٦ - السقاع •
- ١٧ - المواتيب •
- ١٨ - الذكريين •
- ١٩ - الشوى •
- ٢٠ - النعش •
- ٢١ - العقرب •

فهذه واحد وعشرون نجما هي التي وقع التعارف عليها في تقسيم
الوقت وتختلف أيضا مطالعها باختلاف الفصول فبعضها يكون طلوعها أول
سبيل في الشتاء ويكون طلوعها آخر الليل في الصيف ، بينما البعض الآخر
العكس ، ومن هذا السبب يكون التوقيت متفاوتاً بين وقت وآخر •

وقد نظم أسماء هذه النجوم الشيخ على بن ناصر الريامي شاعر
الجبيل الأخضر في ثلاثة أبيات : يقول فيها :

كوى موفى الغراب الادم صارا وصار أسعد كوكبها الثريا
ودبر شبكة الجوزا شعار وجنب ذراع يطوى البطن طيا
وسفع مواكب الذكرين غفر وقد مطرت على العقربيا

تفصيل دليله النجوم المحاضر عليها نقلا من خط الشيخ الفقيه سعيد
ابن صالح العبري •

✽ **العقرب :** جملة نجوم معترضة من جهة سهيل على الجانب النعشى ، مطلعها من جهة المشرق على الجانب السهيلي وهى ثلاثة آثار ، أى مقدار وقتها الذى منى ساعة ونصف ، طلوع نجم نير. متوسط بين نجمين مما أدق منه يسمى المنصف مضى أثر ونصف منها = أى العقرب ومطلعه من مطلعها هى ، وطلوع العقرب علامة لغروب الدبران .. والله أعلم .

✽ **كوى :** نجم نير له ثلاثة آثار ، مطلعها من الجانب النعشى من هذه النجوم المتقدم ذكرها ، يعقبه طلوع نجم هو أدق منه ، أى أصغر حجما ، مطلعها من الجانب النعشى من مطلع كوى بشئ يسير ، بعده يكون قد مضى من وقت كوى أثر ونصف وهذا يسمى المنصف أيضا أى يكون طلوعه فى منتصف الوقت الزمنى لنجم كوى ، وعند طلوع كوى يكون حينئذ غروب الشعرى السهلية ، فإذا ارتفع — أى نجم كوى — قدر ربع أثر ، يكون حينئذ غروب نجم العيق الذى يتقدم الدبران ، ومع غروب نجم الشعرى النعشية فحينئذ يمضى من وقت كوى أثران — أى ساعة — والله أعلم .

✽ **الموفى :** هما نجمان نيران ، أحدهما مطلعها من جهة المشرق والثانى من حيث مطلع كوى ، له أثران ، يتقدمه فى الطلوع نجم يكون مطلعها من حيث طلوع الموفى النعشى قريباً منه من جهة المشرق ، ومطلعه متوسط بين مطلع الموفى الشرقى والموفى النعشى .

وأكثر الاعتبار بالموفى الشرقى منهما ، ومع طلوع نجم الموفى يكون النجم الذى يتقدم الذكريين فى كبد السماء ، فإذا صار نجم الذكريين فى كبد السماء فحينئذ يمضى من الموفى أثر . والله أعلم .

✽ **الغراب :** جملة نجوم دقيقة ، له أثران ، مطلعها بجهة المشرق من مطلع الموفى الشرقى بجانبه من الجهة النعشية بقليل ، يعقبه نجم أدق

يطلع من حيث مطلعته هو • وبطلوع هذا النجم يكون حينئذ قد مضى أثر • وهذا يسمى منصف الغراب • وبانتهاء الوقت الزمنى للغراب يكون النجم الذى يعقب الذكريين فى كبد السماء • والله أعلم •

✽ **الأدم** : نجم دقيق مطلعته بجهة المشرق من حيث مطلع الغراب ، له أثران • يعقبه طلوع نجم بعدما يمضى من وقته أثر ويسمى منصف الأدم ، ومطلعته من حيث مطلع الأدم ، وإذا صار نجم الغفر فى كبد السماء فحينئذ يكون الوقت قبيل طلوع الأدم بربع أثر ومع غروب الأول من الذراعين ، فإنه يكون قد مضى من وقت الأدم أثر • والله أعلم •

✽ **الصارة الأولى** : نجم متوسط فى نوره ، له أثران ومطلعته نعشى مطلع الغفر ، يطالعه نجم يطلع غربى مطلع بنات نعش ويعقبه نجم مطلعته بجهة المشرق ، يبعد عن مطلع الصارة بمقدار مترين فى رأى العين ، فحينئذ يمضى من الصارة نصف أثر ثم يعقب هذا النجم طلوع نجمين نيرين مطلعهما حيث يطلع النجم الذى يطالع الصارة حيث غربى بنات نعش ، وحينئذ يمضى من الصارة أثر وربع ، ويتقدم طلوع الصارة من حيث مطلعهما مباشرة نجم نير قبلها بنصف أثر • والله أعلم •

✽ **الصارة الثانية** : وهى نجم أكثر استتارة من الصارة الأولى ، له أثران ، مطلعهما نعشى مطلع الصارة الأولى بمقدار قليل ، لها منصف أدق منها ، ومطلعته حيث مطلعها هى من جهة النعش ، وبطلوعه يمضى من وقتها أثر كما يطلع بعدها نجم مطلعته مطلع النجم الذى ينصف الصارة الأولى من جهة الشرق وبطلوع هذا النجم يمضى من وقت الصارة الثانية ثلاثة أرباع أثر • والله أعلم •

✽ **السعد** : وهو نجم نير ، له أثران ، مطلعته نعشى مطلع الصارة الثانية بمقدار متر ونصف فى رأى العين يعقبه طلوع نجم مطلعته بالجانب

النعشى منه بمقدار متر ونصف حسب رأى العين يماثله فى الاستتارة ،
فحينئذ يمضى منه أثر ، وحين طلوع السعد يكون كوى فى كبد السماء
وإذا غرب الذكرين السهلى والأول من نجوم بنات نعش فهو وقت لطلوع
السعد ، والله أعلم •

✽ **الكوكبين :** (هكذا) نجمان متقاربان ، والنعشى منهما أكثر إنارة
السهلى ، له ثلاثة آثار ، مطلعه بجهة المشرق ويعقبه طلوع نجم بالجانب
النعشى عنه بقدر ذراع فى رأى العين وهو نير ، وبطلوع هذا النجم يكون
قد مضى من وقت الكوكبين ربع أثر •

ثم يعقب ذلك طلوع نجمين أحدهما مطلعه حيث مطلع كوى والثانى
منهما مطلعه حيث مطلع عين الدبران ، وحينئذ يمضى من الكوكبين أثر وربع ،
ثم يعقب هذين النجمين طلوع نجم دقيق مطلعه حيث مطلع الكوكبين ،
وبطلوع هذا النجم الدقيق يكون غروب الذكرين النعشى وحينئذ يكون قد
مضى من وقت الكوكبين أثر ونصف ، وإذا صار الموفى السهلى فى كبد السماء
فذلك علامة أنه قد مضى من الكوكبين قدر ربع أثر • أو يزيد شيئاً يسيراً ،
فإذا غربت السابقة من بنات نعش فحينئذ قد مضى من الكوكبين أثرين وربع
أثر ، وكذلك مع غروب الرابعة من بنات نعش فهو علامة طلوع الكوكبين
والله أعلم •

✽ **الثريا :** جملة نجوم متقاربة لها أثران مطلقها حيث مطلع
الكوكبين من جهة النعش ، تتقدمها نجم قبلها بربع أثر مطلعه حيث مطلع
كوى ، وهو نجم متوسط فى الاستتارة ثم يعقبها طلوع نجم من حيث
مطلعها هى ، متوسط فى الاستتارة وبطلوعه يكون قد مضى من وقت
الثريا ثلاثة أرباع أثر ، ثم يعقب هذا النجم طلوع نجم بجهة سهيل عن
مطلع الثريا ، وحينئذ يكون قد مضى من الثريا أثر • وهذا النجم الأخير

هو الذى يسمى منتصف الثريا ، وإذا صار الأدم فى كبد السماء فحينئذ يكون قد مضى من الثريا أثر أو يزيد قليلا • والله أعلم •

✽ **الدبران** : نجم نير له أثران ، مطلعه بالجانب السهيلي من مطلع الثريا بمقدار متر ونصف ، يتقدمه طلوع نجم يسمى عيق الدبران ، وهو أنير منه ، مطلعه بجانب النعش عن مطلع كوى وقد اصطالحوا فى تقدمه عن ربع أثر ، ثم يعقب الدبران طلوع نجم يقارب الدبران فى استنارته مطلعه ما بين الدبران والعيق يسمى المنصف ، وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى من الدبران أثر ، ثم يعقب هذا النجم طلوع نجم بجانب سهيل يبعد عن مطلع المنصف بمقدار متر ونصف ويقارب فى استنارته المنصف ، وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى من المنصف نصف أثر • والله أعلم •

✽ **الشبكة** : جملة نجوم صغيرات متقاربة من بعضها البعض لها أثران ومطلعها من جهة المشرق سهيلي مطلع الدبران بمقدار متر ونصف ، يتقدمها طلوع نجم بجهة سهيل يبعد عن مطلع الشبكة بمقدار نصف متر وهو نجم نير ، وقد اصطالحوا فى تقدمه عن ربع أثر ، ثم يعقب الشبكة طلوع نجم نير يسمى المنصف مطلعه من حيث مطلعها وبطلوعه يكون قد مضى من الشبكة أثر • والله أعلم •

✽ **الجوزاء** : نجم نير له أثران ، مطلعه من حيث تطلع الثريا ، يعقبها طلوع نجم نير يسمى المنصف ، مطلعه من حيث مطلع منتصف الدبران ، وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى من الوقت الزمنى للجوزاء أثر ، ثم يعقبه نجم نير يماثله فى الاستنارة مطلعه من حيث مطلع المنصف يسمى الذراع وبطلوعه يكون وقت طلوع الشعرى السهيلية ، وحينئذ يمضى من المنصف نصف أثر وإذا غرب كوى فبغروبه يكون قد مضى من الجوزاء أثر ونصف • والله أعلم •

✽ **الشعري النعشية :** وهى نجم نير له أثران ، مطلعها من جهة المشرق من حيث مطلع الشبكة ، يعقبها طلوع نجم يسمى المنصف أصغر حجما من الشعري ، مطلعها بالجانب النعشى عنها بمقدار متر ونصف تقريبا . ويطلوع هذا النجم يكون قد مضى من الشعري'أثر' ، وإذا صار الكوكبين فى كبد السماء فإنه حينئذ يكون قد مضى من الشعري ربع أثر ، كما يتقدم طلوعها غروب الموفى السهيلي بمقدار ربع أثر أو أقل من ذلك . والله أعلم .

✽ **الجنب :** هو جملة نجوم مجتمعة معا له أثران مطلعها من جهة المشرق نعشى مطلع الشعري النعشية بشئ قليل وإذا طلع سهيل فحينئذ يكون قد مضى من الجنب نصف أثر يعقبه طلوع نجم أكثر استنارة من نجوم الجنب يسمى المنصف ، مطلعها من حيث مطلع منصف الدبران ، ويطلوعه يكون قد مضى من الجنب أثر ويتقدم طلوع المنصف طلوع النجم الأول من بنات نعش بربع أثر ، وعند طلوع الثانية من بنات نعش يكون قد مضى من المنصف نصف أثر ، وإذا صارت الثريا فى كبد السماء فحينئذ يمضى من الجنب أثر ونصف .

كما أنه يكون حينئذ غروب الموفى النعشى . والله أعلم .

✽ **الذراعين :** (هكذا) وهما نجمان مفترقان بمقدار متر ونصف بينهما ، كما أنهما معترضان نيران ، له أثران ، مطلعها بجانب المشرق نعشى الجنب بمقدار متر ونصف فى رأى العين ، يتقدمه طلوع نجمين دقيقين مفترقين أمام النعشى من الذراعين بربع أثر ثم يعقب الذراعين طلوع أدق منهما ، مطلعها من حيث مطلع السهيلي من الذراعين ، ويطلوع هذا النجم يكون قد مضى من الذراعين أثر ويسمى منصف الذراعين ، فإذا طلعت الثالثة من بنات نعش فإنه حينئذ يكون قد مضى من الذراعين أثر ونصف ،

وإذا صار الدبران في كبد السماء ، فإنه يكون قد مضى من الذراعين أثر •
والله أعلم •

✽ **البطن :** نجم نير له أثران • مطلعته من حيث مطلع النعشى من
الذراعين يتقدمه طلوع نجم من بنات نعش برقع أثر ، ويطلع أيضا مع
طلوع البطن نجم نير مطلعته غربي مطلع النعوش بمقدار سبعة أمطار ،
كما يعقبه طلوع نجم أصغر من الذراعين مطلعته بالجانب السهيلي عنه
بمقدار متر فقط ويطلوع هذا النجم يكون قد مضى من البطن أثر ، وإذا صار
النجم النير الذى يكون سهيلي الميازين في كبد السماء فإنه حينئذ يكون قد
مضى منه ثلاثة أرباع أثر • والله أعلم •

✽ **السفاح :** نجم نير له أثران ، مطلعته شرقى مطلع الثريا ، يتقدمه
النجم الرابع من بنات النعش برقع أثر ثم يليه في الطلوع منتصف السفاح •
مطلعته حيث مطلع السفاح ويطلوع هذا النجم يكون قد مضى من السفاح
أثر ويتقدم أيضا هذا النجم السادس من بنات نعش برقع أثر ،
وإذا صار منتصف الشبكة في كبد السماء فإنه يبقى من السفاح ربع أثر ،
وكذلك طلوع النجم السابع من بنات نعش يبقى من السفاح ربع أثر ،
لطلوع السفاح علامة وهى إذا كانت الميازين في كبد السماء فتلك علامة
طلوعه • والله أعلم •

✽ **المواثيب :** ثلاثة نجوم معترضة متوسطة الاستنارة • مطلعها في
أقصى الشرق الجنوبي • له أثران يطالعها نجم نير مطلعته مطلع النجم
النعشى من نجوم المواثيب ويطلوع هذا النجم يكون قد مضى منها أثر
ونصف وتكون حينئذ الشوى النعشية في كبد السماء • والله أعلم •

انتهى ما كتبه القاضى الفقيه سعيد بن صالح العبرى رحمه الله •

بقى أن هناك تعارفاً آخر في أسماء النجوم يختلف باختلاف المناطق ،
علماً بأن نظامها واحد لا يختلف وإن اختلفت أسماء النجوم .

ولا يفوتنا أن بعض الأفلاج لها معرفة قديمة نادرة . وذلك مثل غلج
الحمام في الرستاق فإن الضابط النهاري يختلف قياسه ، وإن كان القسمة
سواء فمثلاً يقال أثر ما قبل الغاربة . أو أثر ما قبل الشارقة فهذه تكون
مسافتها الزمنية طويلة بحيث تكون مقابل أثرين أو أكثر .

كما أنها توجد آثار منه في وسط النهار تكون مسافتها ربع مسافة
ما قبل الغاربة .

**والآن وقد برزت الساعة بأشكال مختلفة فاغنت الناس بتقسيمها
للوقت عن تلك التقسيمات السابقة . والضوابط المتعارف عليها .**

وقد وجدت كلاماً مختصراً يتضمن أحكام تقسيم الأفلاج في سقى
المرزوعات حسب العرف العماني وذلك في كتاب نشاء الجوهر في علم الشرع
الأزهر للشيخ العلامة الجليل أبي مسلم ناصر بن سالم الرواحي ما نصه :

« قلت . آد . في اللغة مال ورجع وأصله من مادة أود كفرح بمعنى
أعوج . وفي عرف العرب العمانيين ، الآد الشرب للأراضى المعمورة ينوبها
في وقت مخصوص على دور معلوم .

وهذا الآد قسط من العين الجارية مقدراً بالساعات الفلكية في النهار
بالظلال . وفي الليل بالنجوم وهي نجوم معلومة معهم . أكثرهم من المنازل
القمرية فيقدرون أقساط الشرب من طلوع نجم إلى طلوع آخر وما بين
الطلوع الى الطلوع ساعة فلكية ، ونصف تلك الساعة يسمونه أثراً ، ونصف
الأثر يسميه بعض أربعة أثر . وبعض ربع أثر . فيقدرون الآثار وأجزائها

بالحرز والتخمين في الليل وباقيسة مقدرة يخطونها في الأرض للظلال نهارا •
فإذا غم عليهم الليل والنهار بسحاب يحجب الشمس والنجوم حملوا ذلك
على الحرز والتخمين بناء على تعارف أجازوه فيما بينهم ، ومنذ غروب
الشمس إلى ظهورها يسمون ذلك القسط = الغروبية ، ومنذ طلوع الفجر
إلى طلوع الشمس يسمون ذلك القسط الغادي •

ويختلف التقدير في الليل بالنجوم في الصيف والشتاء ، فلعلمهم سموا
هذا القسط الدائر من وقت إلى وقت آدا وأصله أود لأنه مصدر آد يؤد
ثم تصرفت فيه الألسن خصار آدا •

ثم إن الآد يختلف أدواره خمسه ثلاثة أيام ومنه سبعة ومنه أربعة
عشر ومنه ثمانية وعشرون ويكرن أقل بحسب عادات البلاد وحينئذ يترتب
الحكم بطهارة السرجين على أى آد من هذه الأواد ، إذ شتان ما بين آد
ثلاثة أيام مثلا وآد ثمانية وعشرين فيقال أن المراد هنا نفس الشرب سواء
طالت أيام الدور أو قصرت •

وهنا انتهى كلام العلامة باختصار وقد أوضح فيه بدقته أحكام تقسيم
بعض الأفلاج التي كانت لديه بها معرفة •

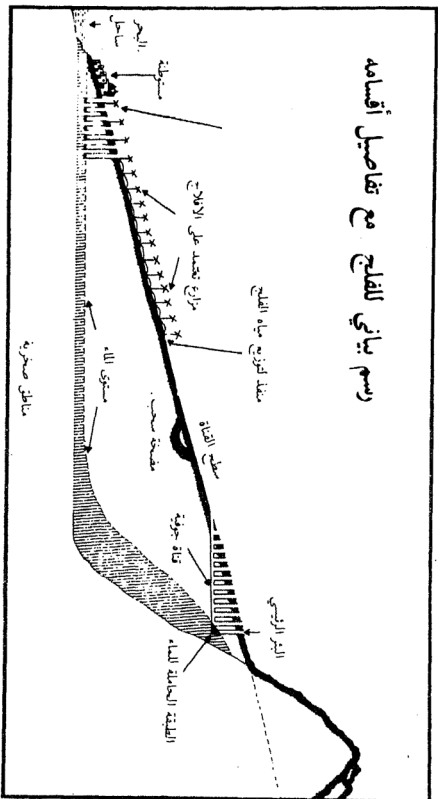
وهناك أفلاج أخرى تختلف باختلاف المناطق واختلاف القرى ، ونظم
الرى فيها ولنضرب لذلك مثلا إذا كانت قرية صغيرة والمالكون لفلاجها قليلون
بحيث تنحصر ملكيتها في أفراد بعضهم يكون نصيبه منها بادتين وآخر بادة
والبادة محصورة من طلوع الشمس إلى غروبها وبالعكس فمثلا هذه القرية
لا تحتاج إلى تقسيم بضابط نهار ولا ضابط ليل •

كما توجد أفلاج صغيرة تكال بمكيال قياسى مقدر وهى التى يجمع
ماؤها في مجمع خاص ويسمى هذا المجمع « لِجَل » بكسر الجيم ،



منبع فلج دارس بنزوی

رسم بياني للفلج مع تفاصيل أقسامه



جانب من فلج دارس بنزوى

وبعضهم يقول « جل » وهى عبارة عن حوض كبير فمثل هذا تقسيمه يكون بهذا الحوض .

كما أن بعض الأفلاج تقسيمها بالأثر والبادة مثل غيرها لكن قياس تقسيمها بصورة أخرى ، وهى أن يؤخذ إناء من نحاس فيثقب من أسفله ثقباً مقدراً ويترك فى حوض ماء صغير بحيث يتسرب الماء اليه من ذلك الثقب فى وقت مقدر يستغرق أثراً ، فإذا امتلأ الإناء فمعناه قد مضى من الوقت أثر ، كما أن فيه علامات لتقسيم الأثر رباعياً فكلما وصل الماء الى علامة فمعناه مضى من الوقت ربع أثر . ويوكل هذا التقسيم الى وكيل كأمين يرضى به الجميع . وقد يساعده أمين آخر وعليهما تنظيم الرى فى البلاد فى طول اليوم والليلة وهذا النظام لا يحتاج الى محاضرة نهار ولا ضابط ليل لأنه أشبه بالساعة .

والآن وقد تغيرت كل هذه العوامل المتصالح عليها واتجه الناس إلى استعمال الساعة التى أصبحت المرجع الوحيد الذى يتفق عليه الناس جميعاً وهى لاشك عامل عادل صالحة لكل زمان ومكان بشرط أن تكون على المستوى الصحيح فى صلاحيتها وعلى أن تكون فى يد أمينة تقدر حقوق الناس فالأمانة فى الإنسان هى الركيزة الأساسية التى يتعامل بها مع أبناء جنسه الذين يتعاملون معه بالمثل .

يبقى موضوع لابد أن نطرقه فى هذا البحث نظراً لأهميته ، وهو أن الأفلاج الكبيرة مثل فلج دارس وأمثاله لا يمكن أن يوجه فى جدول — ساقية — واحدة إلى مزرعة ما أو الى بستان فيه زراعة ذات تنظيمات دقيقة فى زراعة البقولات والحبوب وأمثالها ، ومن هنا وضعوا مقاييس للفلاج فى تقسيمه إلى عدة أقسام ، ويسمى كل قسم منها « غيز » فقسّموا بعض الأفلاج إلى ثمانية غياز وبعضها أربعة كل فلج على حسب كبره وصغره لكن ما هى عملية التقسيم التى ترضى الجميع ؟ .

والجواب — هو أن الفلج يخرج من منبعه في ساقية واحدة كبيرة يجرى في طرفها حتى يصل إلى البساتين ، وهناك يبدأ التقسيم فيفتحون من هذه الساقية فتحة صغيرة يجرى فيها جزء من الفلج مقدر تقديراً هندسياً بواسطة تلك الفتحة ، ويسمى هذا الجزء « غيز » واحد ينقص هذا الغيز بنقصان الفلج ويزيد بزيادته ، وهكذا تمشى عملية التقسيم بفتحات منتظمة إلى أن ينتهي الفلج في الساقية كجزء واحد من تلك الأجزاء حتى إذا جاء الجفاف يبدأ ذلك التقسيم في التقلص بحيث يصبح الفلج الذي يقسم ثمانية غياز — أربعة فقط أو أقل من ذلك .

وهنا تسد تلك الفتحات ولا يترك مفتوحاً منها إلا بمقدار قوة الفلج وضعفه فقد ينتهي إلى غيزين فيترك له فتحة واحدة بالإضافة إلى الباقي في الساقية الأم ، وقد ينتهي إلى غيز واحد فتسد جميع الفتحات إلى أن يرحم الله عباده ، ويغيثهم بواسع رحمته فيمطر عليهم أمطاراً تعم السهل والجبل فتسيل الأودية بقدرها ، وتفتح ينابيع المياه الجوفية ويصدق قول الشاعر :

أيها الإخوان جاء الفرج

هبط الوادي وزاد الفلج

نسأل الله تعالى أن يغيثنا برحمته ويمطر علينا مطراً مدراراً يحيى به البلاد ويغيث به العباد ، إنه كريم رحيم .

وإلى هنا فقد انتهى هذا البحث الموجز ، راجياً عدم المؤاخذة ممن يقف عليه إذا وجد به أية أخطاء .. فهذا هو اجتهدى وما كل مجتهد يصيب .
وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

بدر بن سالم العبرى

مصادر البحث

أولا : اعتمد هذا البحث في المقام الأول على الدراسة الميدانية على الطبيعة ،
ومن ذوى الاختصاص والقائمين على شئون الأفلاج ، وأهل الخبرة
والمعرفة في هذا المجال •

ثانيا : كتاب « نثار الجواهر »
للشيخ العلامة : ناصر بن سالم الرواجي •

ثالثا : وثيقة قديمة (مخطوطة) للقاضى الفقيه الشيخ سعيد بن صالح
المعبرى •

دور عُمان
في نشاط التجارة العالمية
في العصر الإسلامي الأول
للدكتور حبيب الحفظاني

إن الأبحاث الجديدة ، ونتائج بعض الحفريات ، قد أثبتت بوضوح أن دور منطقة الخليج العربى بعامه ، وعمان بخاصة فى الملاحة والتجارة البحرية دور عريق يرجع إلى ما قبل الإسلام بعصور طويلة .

إن هذا الدور مرتبط وثيق الارتباط بالتقاليد الراسخة للعرب فى الملاحة سواء كان ذلك انطلاقا من المضايق الغربية للخليج ، أو من مرافئ غرب الجزيرة العربية على شواطئ البحر الأحمر ، أو من جنوبها ، خلافا لما ذهب إليه البعض من « أن المسلمين كانوا بصورة عامة يخافون البصر »^(١) .

إن شهرة الملاحة الحميرية تعود إلى عصور قديمة ، وكان للعمانيين بالخصوص من سكان منطقة الخليج دور نشيط فى التجارة البحرية ، وحتى فى فترة نفوذ الامبراطورية الساسانية على منطقة الخليج فإنها لم تتمكن من السيطرة إلا على الشريط الساحلى ، أما داخل البلاد فقد كان تحت الحكم العربى ، ويشير إلى ذلك الأزكوى قائلا :

« فكانت الفرس فى السواحل ، وشطوط البحر ، والأرد ملوكا فى البادية والجبال وأطراف عمان وكل الأمور منوطة بهم »^(٢) .

وقد عجز الساسانيون فى فترات ضعف الامبراطورية عن حماية سواحلهم ، حيث إنها كانت عرضة لغارات عرب الخليج .

أما أهم تحول فى تاريخ التجارة البحرية العمانية فقد حدث بعد الفتح الإسلامى^(٣) ، فقد أكسبت فتح بلاد فارس ، والقضاء على الدولة الساسانية ، ثم فتح بلاد السند^(٤) من جهة ، وظهور أمصار جديدة فى منطقة الخليج مثل البصرة^(٥) من جهة ثانية منطقة عمان أهمية تجارية

جديدة ، وأصبحت مساهمة مدنه المرفئية في التجارة ذات بعد عالمي . وفي طليعة هذه المدن نجد : صغار عاصمة عمان القديمة .

وقد أصبحت عمان بفضل هذه المكانة الجديدة في الدورة التجارية العالمية مضرب الأمثال في سعة الرزق ، ورواج التجارة ، فقد قيل : « من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان » ، وهناك من ينسب هذا القول إلى الرسول عليه الصلاة والسلام^(٦) ، وإذا لم تثبت نسبته فانه يدل على مدى توفر وسائل الكسب بعمان ، وقد قال الأصمعي : « الدنيا ثلاث عمان ، والأبلهة ، وسيراف »^(٧) ، وجاء في « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » للجغرافي المقدسي « من أراد التجارة فعليه بعمان ، أو عمان ، أو مصر » .

وينبغي أن لا نغفل هنا عن الإشارة إلى أن سهولة الرزق بعمان في العصر الاسلامي لا تعود إلى النشاط التجاري فحسب : وذلك بالرغم من أهميته في النشاط الاقتصادي العماني عصرئذ ، بل إلى التطور الزراعي أيضا ، وذلك لسببين رئيسيين :

أولا : إن السهولة الزراعية الخصبة التي كانت قبل الاسلام بيد المرازبة والأساورة قد عادت للعرب المسلمين .

ثانيا : إن تطور التجارة ، ولاسيما التجارة الكبرى جعل من بعض المنتوجات الزراعية بضائع ثمينة في قائمة التبادل مثل التمر ، والتين الجفف ، والصمغ ، واللبان وغيرها .

ويتحدث الجغرافيون العرب عن الانتاج الزراعي لعمان فيقول الحميري : « وبلاد عمان مستقلة في ذاتها ، عامرة بأهلها ، وهي كثيرة النخل والفاكهة والموز والبرمان والتين والعنب »^(٨) ، وقد بلغ خراج أهل عمان على المقاطعة ثمانين ألف دينار^(٩) ، وجمع في العصر العباسي من الجباية مبلغ ثلاثمائة ألف دينار .

ويربط بعض الجغرافيون العرب بين الحياة الزراعية في عمان والنشاط التجاري ، فبعد الحديث عن المياه والانتاج الفلاحي يقول الحميري صاحب (الروض المعطار) :

« فرضة الصين ، وبها مرفأ الصين ، وتحمل من سيراف الأمتعة اليها ، والحمولة في قوارب ، ثم توفّر السفينة العظيمة حتى تلجّلج في البحر العظيم فتسير بالريح الطيبة مقدار أربعين يوما إلى خمسين يوما حتى تنتهي إلى مدينة تسمى (الشحر)^(١) .

ومن المعروف أن التحول الخطير في الحياة التجارية في منطقة الخليج بعد الفتح الاسلامي قد تم تدريجيا ليلبّغ أوجه ابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني الهجري إلى القرن الخامس الهجري ، فقد ساهم انتقال مركز الخلافة من بلاد الشام إلى العراق في تحول التبادل التجاري من المنطقة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي ، وإلى ما يرتبط به من مسالك برية وبحرية متفرعة عنه .

وقبل الحديث عن تفاصيل هذا النشاط التجاري ، وعن مسالكه البحرية ، وعن مراكزه في عمان ، وعن البضائع المتبادلة ، وعن ملامح التأثير الحضاري لهذا التبادل أودّ إيداء الملاحظات الأساسية التالية :

أولا : إن الموقع الجغرافي لموانئ عمان جعلها مراكز مهمة لتجارة العبور وتوريدا وتصديرا بين منطقة الشرق الأقصى (الهند ، والصين ، وجزر الهند الشرقية) من جهة ، وداخل مناطق شبه الجزيرة العربية من جهة أخرى فضلا عن علاقاتها مع إفريقيا الشرقية .

ولكي نتضح أهمية هذا الموقع فلا بد من وضعه في نطاق وإجهات التبادل التجاري في العصر الإسلامي ، ونعني بذلك المواجهة الشمالية

الشرقية ، وهى واجهة الطرقات القارية للواحات وتنفود مما بين النهرين إلى بلاد فارس وآسيا الوسطى ، ثم إلى بلاد الترك ، وإلى الصين الشمالية ، أو إلى الهند الشمالية الغربية •

أما واجهة الجنوب الشرقى التى تحتل فيها عمان المكانة الأولى ، فهى واجهة المسالك البحرية للمحيط الهندى التى تنفود مما بين النهرين والخليج العربى من جهة ، ومن البلاد المصرية والبحر الأحمر من جهة أخرى إلى أسواحل الغربية لشبه القارة الهندية ، ثم إلى سيلان واندونيسيا والهند الصينية ، وجنوب الصين ، وهى مسالك رحلة السندباد العربى من الخليج إلى ميناء كانتون ، أو إلى بلاد الزنج ، وجزيرة مدغشقر •

أما الواجهة الجنوبية الغربية فهى واجهة مسالك القوافل فى الصحراء انطلاقا من بلاد المغرب الاسلامى حتى بلاد السودان ، وأخيرا الواجهة الشمالية الغربية ، أى واجهة المسالك البحرية والنهرية والقارية التى تنفود مما بين النهرين ، وأرمينية إلى بلاد الخزر ، والأنهار الروسية ، ومن هناك إلى بلاد بحر البلطيق وأورربا الوسطى ، أو من الموانئ الاسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى مرافئ جنوب ايطاليا واليونان ، وجزر البحر الأبيض المتوسط ، أو من الأندلس الى الممالك الاسبانية فى الشمال ، ومنها عبر ممرات البرانس الى بلاد الافرنج (الغرب الأوروبى) ، أو فى النهاية من الأندلس بطريق المحيط إلى الجزر البريطانية^(١١) •

ونلمح هنا إلى تضاؤل أهمية البحرين فى العهد الاسلامى^(١٢) فى ميدان التجارة البحرية لفائدة عمان ، وقد أهلها موقعها الجغرافى لتصبح المركز الرئيسى للساحل الغربى من الخليج العربى •

ثانيا : لابد — إذن — من النظر إلى أهمية عمان فى التجارة العالمية فى القرون الاسلامية الأولى ضمن الوحدة الاقتصادية التى أصبح يمثلها العالم الاسلامى ابتداء من القرن الأول إلى القرن الرابع الهجرى ، فشبكة

المسالك التجارية لهذه الوحدة الجغرافية والاقتصادية تمتد — كما رأينا — من الجنوب الغربى من بلاد السودان إلى بلاد الافرنج ، أى أوروبا الغربية اليوم ، ومن الجنوب الشرقى من سواحل إفريقيا الشرقية إلى الصين . وبلاد الترك ، والأورال ومنطقة بحر قزوين ، وتمتد من المغرب إلى المشرق من شواطئ المحيط الأطلسى إلى بغداد وكابول ، ومنها إلى منطقة المحيط الهندى .

ونحب الإشارة في هذا الصدد إلى أن الخليج العربى ، والبحر الأحمر لم يعودا مسلكين بحريين متنافسين لبلوغ رومة ، أو القسطنطينية ، وإنما قد أصبحا في العهد الإسلامى طريقين متساويين يسلك كل منهما لبلوغ ما قاربه من أرض الخلافة .

وقد كان لهذه الوحدة السياسية والعمرانية أهمية كبرى في ازدهار التجارة بمنطقة الخليج مع الملاحظة أن تقلص ظل الوحدة السياسية ، وقيام دول إسلامية مختلفة لم يؤثر في استمرار العلاقات التجارية ، والتبادل الحضارى مع شتى أجزاء أنحاء العالم الإسلامى (١٣) .

ثالثا : إن التطور العمرانى الكبير الذى نلاحظه خلال فترة ازدهار الحضارة الإسلامية يعتمد أساسا على الازدهار الاقتصادى ، وليس من المبالغة في شئ إذا قلنا إن هذا الازدهار الاقتصادى يكاد ينحصر عصره في النشاط التجارى ، وهو نشاط يكمن وراء تطور المدن ، وانتشار شبكة المسالك التجارية والبحرية ، وقد كان لهذا أثر بالغ في ازدهار المدن الساحلية العمانية ، وتطور المسالك البرية التى تربط بينها ، وبين مناطق داخل الجزيرة العربية ، كما كان له تأثير في تطور مستوى معيشة إقليم عمان ، يقول عبد الرحمن بن خلدون :

« فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا ، وعلى نسبة يسار

الراعايا يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرته» (١٤) وأشار قبل هذه الفقرة بقليل إلى العلاقة بين التطور العمرانى ، وما يرافقه من تأثير مباشر فى حياة السكان والازدهار الاقتصادى حيث يقول : « وسنتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر » (١٥) .

رابعاً : العلاقة العضوية بين تطور التجارة ونشر الاسلام فى اتجاهين :
اتجاه شواطئ المحيط الهندى وبحر الصين ، وقد استقرت جاليات إسلامية فى مدن ساحلية كثيرة ، وبنيت المساجد وأصبح للمسلمين قضائهم ، وسنرى — بعد قليل — أهمية انتشار الاسلام فى هذه المناطق عن طريق التجارة ، واتجاه سواحل افريقيا الشرقية .

خامساً : رافقت هذه العلاقات التجارية النشطة بين عمان من جهة ، والشرق الأقصى وافريقيا الشرقية (بلاد الزنج) من جهة أخرى ظاهرة حضارية مميزة تمثلت فى عملية التأثير والتأثير العميقين فى شتى مجالات النشاط البشرى من زراعة وصناعة ، وملاحة ، وثقافة ، ولغة وعادات .

سادساً : تتصل الملاحظة الأخيرة فى هذا التمهيد ذى الطابع التنبؤى بدور الوحدة النقدية الاسلامية فى النشاط التجارى لمنطقة الخليج بصفة عامة وعمان بصفة خاصة .

إنه من المعروف أن عثمتين أساسيتين كانتا متداولتين فى العالم القديم الى القرن الثامن الميلادى : الدرهم الساسانى ، والدينار البيزنطى ، ولقد استمر التعامل بهما فى العصر الاسلامى الأول .

ولكن هنالك تحولا جذريا حدث ابتداء من نهاية القرن الأول الهجرى / بداية الثامن الميلادى ، حيث سخرت الذخائر الذهبية التى كانت مخزونة لفائدة الدورة الاقتصادية العالمية فى مناطق النفوذ الفارسى

والبيزنطى ، وقد أصبحت فى ظل الحكم الإسلامى تمثل وحدة جغرافية واقتصادية ، ثم طرأ حدث جديد ابتداء من نهاية القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى لا يقل شأننا عن ذلك التحول .

إنه اكتشاف العالم الإسلامى لمصدر جديد وثرى لتوريد هذا المعدن الثمين : بلاد السودان^(١٦) .

وسيقى ذهب السودان طوال ستة قرون يغذى مصانع ضرب العملة الذهبية الإسلامية ، ويدعم حركة التبادل التجارى بين المغرب والأندلس والبحر الأبيض المتوسط من جهة والمشرق الإسلامى من جهة أخرى .

إن ذلك التحول وهذا الاكتشاف الجديد جعلنا من المسلمين خلال حقبة طويلة سادة الذهب فى العالم على حد تعبير م. لومبار ، ومكنا العالم الإسلامى من بلوغ درجة تفوق اقتصادى تجاه الشرق والغرب معا بفضل امتلاكه لثروات ذهبية ضخمة ، ولما تتمتع به العملة الإسلامية من اعتراف عالمى^(١٧) .

إن دور عمان كان فعّالاً فى اللقاء كميات الذهب الموردة عن طريق المسالك البحرية من الشرق الأقصى ، وإفريقيا الشرقية (بلاد الزنج) إلى العالم الإسلامى بالثروة الذهبية المستجلبية بواسطة بلاد المغرب عن طريق المسالك الصحراوية الرابطة بينه وبين إفريقيا الغربية (بلاد السودان) .

إن امتلاك هذه الثروات الذهبية داخل منطقة جغرافية شاسعة جعل الفتوحات الإسلامية ، وبالتالي خضوع أجزاء تلك المنطقة للحكم الإسلامى تحتل أولاً مكانة بارزة فى التاريخ الاقتصادى العالمى بين غزوات الاسكندر التى فتحت للعالم اليونانى ذخائر مملكة فارس ، ومنجم آسيا والغزوات

الاسبانية التي مكنت أوروبا من ذهب وفضة القارة الامريكية ، وتبرز ثانيا
ظاهرة جديدة في تاريخ الدورة النقدية حيث لم يسجل قبل الدينار
الاسلامى عملة شملت دورتها الشرقيين الأقصى والأوسط . ومنطقة البحر
الأبيض المتوسط وأوروبا في نفس الوقت (١٧ أ) •

العلاقات التجارية بين عمان والشرق الأقصى :

إن موقع عمان في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية ، مطلاً
على الخليج العربي من جهة والبحر العربي من جهة ثانية جعل له أهمية
استراتيجية وتجارية كبرى في مختلف العصور •

وإذا حاولنا التعرف الى تاريخ علاقات عمان مع منطقة الشرق
الأقصى فإننا نجد جذورها تمتد الى العصور القديمة ، فإنه بالرغم من
الفتح المقدوني لمنطقة البحر الأحمر ، ومنطقة الخليج ، ووقوعها تحت
سيطرة البطالسة ، بعد اليونان لمدة طويلة الا أن عرب الجنوب من
حضارمة ، وحميريين ، وعمانيين كانوا هم المسيطرين على التجارة البحرية
مع الهند طول الوقت (١٧ ب) ، وكانت لهم جاليات في السواحل الهندية ،
وفي جزر الملايو ، وأندونيسيا ، وهناك من يذهب الى أن « أوفير » هي
ظفار. عند ميناء مربط في أرض اللبان ، وكانت منذ أقدم العصور مركزاً
لتبادل السلع مع الشرق الفسيف (١٨) •

إن هذه العلاقات القديمة التي أصبحت تدعمها نتائج الحفريات
الجديدة في عمان ، وفي منطقة الخليج عامة تفند القول بأن خبرة العرب
الملاحية ضعيفة ، فقد كانت لعرب الجنوب خبرة بالملاحة تعود الى حوالى
ألف سنة قبل الاسلام •

ويرجح بعض الدارسين بأن السفن العربية قد وصلت الى الصين في

حوالى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى^(١٩) وقد كان الطريق لبحرى الممتد من الخليج الى كانتون أطول طريق استعمله الانسان على نحو منتظم قبل التوسع الأوروبى فى القرن السادس عشر الميلادى •

ونستطيع أن نقول — دون مبالغة — إن زمام البحر فى منطقة الخليج ، ومنطقة البحر العربى ، والمحيط الهندى كان بيد العرب الى القرن الخامس عشر الميلادى •

ولكن السيطرة العربىة على البحر مرت بمراحل متفاوتة ، فقد ذكرنا أن هذه السيطرة بلغت أوجها استراتيجيا وتجاريا فى عصور ازدهار الحضارة العربىة الاسلامىة ، وخاصة بين القرنين الثانى والخامس للهجرة / الثامن والحادى عشر للميلاد ، وقد أصبحت الموانئ العمانيّة خلال هذه الفترة تمثل أكبر المراكز التجارية مع بلدان الشرق الأقصى •

وقد ركز الجغرافيون العرب على دور عمان التجارى فى اتجاه الشرق الأقصى ، فقد ذكر السيرافى أنه « مجتمع الأمتعة من العود ، والكافور ، والصندل ، والعاج ، والرصاص ، والأبنوس ، والأفاوية كلها ، وغير ذلك مما يتسع ويطول شرحه والجهاز من عمان فى هذا الوقت ومنها الى عمان واقع »^(٢٠) •

وقد كان لفتح إقليم السند دور فعال فى تدفق أنواع جديدة من البضاعة الى مرفئ الخليج ومنها الى بقية أجزاء العالم الاسلامى ، ويصف المقدسى هذه السلع قائلا : « هذا إقليم الذهب ، والتجارات ، والعقاقير ، والآلات ، والفانيذ والخيرات ، والأرزاز ، والموز والأعجوبات به رخص وسعة »^(٢١) •

وينقل لنا كل من ابن الفقيه والمسعودى عن « التاجر سليمان » وصفا للمسالك الرابطة بين سواحل الخليج وسواحل السند والهند وأندونيسيا حتى الصين ، يقول ابن الفقيه :

« وذكر سليمان أن السفن الصينية تحمل من البصرة وعمان ، وتعبأ بسيراف ، وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر (بحر غاس) ، وقلة الماء في مواضع منه ، فإذا عبى المتاع استعذبوا الماء إلى موضع منها يقال له مسقط ، وهو آخر عمان ، وبين سيراف وهذا الموضع نحو مائتي فرسخ ، وفي شرقي هذا البحر غيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف (ساحل) ، وفي غربي هذا البحر جبل عمان » (٢٣) .

وتحدثنا المصادر عن رحلة تاجر أباضى عمانى إلى الصين حوالى منتصف القرن الثامن الميلادى ، كان يدعى أبا عبيدة ، وقد اشترى في الصين بعض خشب اللند (٢٣) .

وفي نهاية هذه الفقرة عن العلاقات التجارية بين عمان والشرق الأقصى أودّ إبداء الملاحظتين التاليتين :

أولا : إن ازدهار هذه العلاقات التجارية مرتبط بالتطور الديمغرافى والعمرانى السريع للأممصار الإسلامية ، وما استلزمه من حاجات استهلاكية جديدة ، وكذلك مثل البصرة ، والكوفة ، وواسط ، وسامرا ، ولا سيما حاجات العاصمة العباسية الكبرى : بغداد . ومن الطريف هنا الإشارة الى أن مؤسسها الخليفة المنصور كان واعيا بميزاتها الاقتصادية ؛ فقد كان يقول :

« هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء ، يأتينا فيها كل ما فى البحر » (٢٤) .

ثانيا : إن العلاقات التجارية بين عمان والصين تأثرت بطبيعة الحال بالأحداث السياسية التى عاشتها الامبراطورية الصينية فى عهد حكم أسرة « تانج » ، وتدهور سلطتها إثر ثورة (هوانج تشاو) سنة ٨٧٨ للميلاد ، ثم سقوط حكم هذه الأسرة سنة ٩٠٦ ميلاديا .

كما تأثرت أيضا بالأحداث الخطيرة التي عاشتها الخلافة العباسية ،
ما أدت إليه من مظاهر التفكك والضعف ابتداء من منتصف القرن التاسع
ميلاد ، فقد انطلقت في العقد السابع من هذا القرن ثورة الزنج في جنوب
عراق ، وبعض مناطق الخليج ، فحربوا الأبلّة والبصرة ، وقطعوا بغداد
عن سواحل الخليج ، ثم اندلعت في نهاية القرن نفسه حركة القرامطة .

العلاقات التجارية بين عمان وأفريقيا الشرقية :

أما الهدف الثاني لتجارة السواحل العمانية فهو شرق إفريقيا ،
وكانت هذه العلاقات قديمة . ولكنها اكتسبت بُعداً جديداً في العصر
الإسلامي لأسباب متعددة تمت الإشارة إلى أهمها .

وتمتد الرحلة إلى شواطئ إفريقيا الشرقية حوالى شهرين ، وقد اهتم
الجغرافيون العرب بوصف هذا المسلك البحر حيث إن سكان جنوب الجزيرة
وشرقيها يكادون يحتكرون التجارة مع هذه المنطقة الشاسعة والغنية .
يقول المسعودي :

« وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج (الخليج البربري)
إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج ، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار
من الزنج ، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا
الخليج المعروف بالبربري - وهم يعرفونه ببحر البربري - وبلاذ جفوني
أكثر مسافة مما ذكرنا ... وهؤلاء القوم الذين يركبون البحر من أهل عمان
عرب من الأزد ويقطع هذا البحر السيراغيون ، وقد ركبت أنا هذا البحر
من مدينة سنجان من بلاد عمان في سنة أربع وثلاثمائة » (٢٥) .

وقد استقرت جاليات إسلامية في الساحل الشرقي لأفريقيا ، وقامت
عن طريق التجارة بنشر الإسلام في مناطق شاسعة من القارة الأفريقية ،
فقد وجدت كتابات كوفية ترجع إلى القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد ،

ويرجع تاريخ بناء المسجد في زنجبار إلى القرن الخامس الهجرى /
الحادى عشر الميلادى ، وبلغ الاستيطان العربى على الساحل الاغريقى
الشرقى حتى سفالة وموزمبيق ، وكذلك جزيرة مدغشقر منذ القرن الرابع
الهجرى ، وحكم على هذا الساحل سلاطين من الشُّعْر . واليمن .
وحضرموت ، وظلت سلطنة زنجبار تحت الحكم العربى إلى بداية الاحتلال
الأوروبى .

وتثبت المصادر العربية أن الأزدیین قد قاموا بدور خاص فى دعم
العلاقات التجارية بين منطقة الخليج وشرق إفريقيا ؛ فقد كانوا يسافرون
بمراكبهم من سيراف وعمان الى زيلع ، وعيذاب وسواكن ، وبربر وزنجبار ،
ويتابعون سيرهم جنوبا حتى جزيرة القمر (مدغشقر) ، ويعودون ومعهم
العنبر والذهب من بربر ، كما كانوا يعودون بكميات كبرى من العاج ومن
الرقيق .

والنص على الرقيق الوارد من افريقية يدل على أهمية تجارة الرقيق
بين منطقة الخليج وسواحل إفريقيا الشرقية ، فإنه من المعروف أن العبيد
كانوا يمثلون القوة المنتجة الأساسية فى جميع ميادين النشاط الاقتصادى ،
فهم العاملون فى المناطق الزراعية الكبرى ، وفى المعادن ، وفى حراسة القوافل
التجارية وفى البناء والصناعات التى نشأت فى مراكز العمران ، وفى الأعمال
 المنزلية ، وفى الجند أيضا ، ولا سيما فى فئة الحرس الخاص (٢٧) .

البضائع المتبادلة :

إن الحديث عن البضائع المتبادلة عنصر أساسى فى تاريخ العلاقات
التجارية بين منطقة وأخرى ، وأود البداية بالحديث عن نقطة طالما أهملت
فى الكتابة عن تاريخ التجارة ، وأعنى هنا المنتوجات الزراعية لعمان التى
أوليتها عناية خاصة — للأسباب التالية :

أولاً : إن قسماً من هذه المنتوجات يتحول إلى بضاعة تصدير ثمينة في دورة تجارية مزدهرة ، وإن كان الانتاج الزراعى ضعيفاً لا يكاد يفي بحاجة الاستهلاك المحلي .

ثانياً : إن العلاقات التجارية تجلب معها الخبرة الفلاحية ، وتجارب نفل المزروعات والأشجار .

ثالثاً : إن المدن التجارية الثرية مثل مدينة صمار تحتاج إلى حزام زراعى يوفر لسكانها أمنهم الغذائى ، مهما نشطت حركتها التجارية ، وتجمعت فيها الثروات .

إن المؤرخين الاقتصاديين يقدرّون أن تجمعاً سكّانياً يبلغ أفراداه ٣٠٠٠ ساكن يحتاج — ابتداءً من القرن الحادى عشر الميلادى — لمدّه بالمواد الغذائية إلى عشر مناطق ريفية خصبة ، أى مساحة ٨٠٠ كلم مربع « نظراً لضعف انتاجية الفلاحة » ، إن الضواحي الريفية يجب أن تمدّد المدينة — إذن — بالحد الأدنى من المواد الغذائية حتى لا تبقى مهددة فى معيشة سكانها كل لحظة ، إن التجارة الكبرى لا يمكن الاعتماد عليها فى تموين المدن إلا بصفة استثنائية ، جزئية ، وهذا بالنسبة للمدن المحظوظة فقط مثل البندقية ، ورومة ، واسطنبول ، ومكة (٢٨) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون قد تنبه إلى هذه النقطة فى حياة المدن قبل النظريات الحديثة ، فكتب فصلاً فى المقدمة سمّاه : « فصل فيما يجب مراعاته فى المدن وما يحدث إذا أغفلت تلك المراعاة » فأشار إلى ضرورة ضمان مناطق زراعية حول المدينة قائلاً : « ومما يراعى أيضاً المزارع فإن الزروع هى الأقوات فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل فى اتخاذها ، وأقرب إلى تحصيله » (٢٩) .

ونعود للتعرف إلى المنتوجات الزراعية العمانية من خلال كتب

الجغرافيين العرب • ينقل الامام نور الدين السالمى عن الأندلسى الشريسي
قائلا :

« ومى كثيرة النخل والبساتين وضروب الفواكه والحنطة والشعير ،
والأرز وقصب السكر قال : وفى الأمثال من تعذر عنه الرزق فعليه بعمان
فقال : وفى أحوازها مغاص للؤلؤ • قال وعمان من أحواز اليمن قلت ولعله
أراد بمدينة عمان قلعات ، وهى الآن عارية من هذه الصفات لانتقال
العمارة عنها إلى مسكد •

وكون عمان ثلاثين فرسخا فيه نظر ، بل هى أكثر من ذلك بأضعاف
مضاعفة ، والأرز لا يوجد فيها ، وإنما يجلب إليها من الهند اللهم إلا أن
يكون قد زرع فى أيام الأئمة ، ثم انقطع بانقطاع ذلك الخير فانه سيأتى أن
الامامين : سلطان بن سيف وولده قد جلبا لعمان أشجارا
كثيرة من البحر وغرسا فيها تلك الأشجار حتى الورس والزعفران ، ومن
عجائب الدنيا انها مملوءة بالفواكه مثل الرمان والعنب والجوز والخوخ
والمشمش وغيرها من أشجار الجبل ، فيه من الرياحين كالورد والزعفران
والآس والرنجس وغيرها •

وسئل بعض أهله عن وصفه فقال : هو جبل عظيم الارتفاع ، صعب
الامتناع فى وسط عمان ، أهله فى رفاة وأمان لا يخافون جور الشيطان ،
ولا سطوة سلطان ، ذو نهور وقصور ، وحياض ورياض ، وبساتين ،
بها كروم وتين وتوت وجوز ومشمش ورماني وفواكه ألوان ، محصنة حذائقها
بالورد والياسمين ، وحشيشها الزعفران الثمين والفودنج ، والشذاب ،
والرنجس المشبه بعيون الكعاب ، محفوفة بالآس كأنها الجنة فى القياس ،
اعتصمت بالكروم والتفاح والشجر المعطر النفاح •

قال : وإن حلت فى أقطارها اكتفيت عن جنى أثمارها بكمثل النمت

والبوت شفاء ، وقوت ، تسفخ من هذا الجبل تسعة أودية ، وكل واد به له طريق مؤدية ، وعلى أبوابها قرى لبنى ريام أحاطوا كالأكامم بالثمر والهالة بالقمر حامين لأبوابه عن طلابه » انتهى وصف صاحب الجبل له والله أعلم (٣٠) .

وبالإضافة إلى المنتجات الزراعية الواردة في نص مؤلف « تحفة الأعيان » فإننا نجد منتجات أخرى مثل شجر الكندر الذى ينبت بمنطقة الشحر ، يقول الحميرى :

« والشحر مدينة كبيرة ، وليس بها زرع ولا ضرع ، ويكون بها العنبر وشجرها الكندر ، ومنها يحمل إلى الآفاق » (٣١) .

وتذكر المصادر العربية المنتجات التالية : المقل ، وهو يشبه الكندر ، ويستعمل فى الأدوية ، وينبت بجبال عمان (١٣١) ، والضجاج وينبت فى جبل قهوان ، وينتج صمغا أبيض ، والتامول ، والزنجبيل ، والتمر الهندى .

ومن المنتجات الزراعية ذات الأهمية الكبرى فى قائمة التبادل التجارى بين عمان ، وبقية أنحاء العالم : اللبان المشار إليه ، ينقل ابن البيطار عن أبى حنيفة الدينورى أنه قال : « أخبرنى أعربى من أهل عمان أنه قال : اللبان لا يكون إلا بالشحر ، شحر عمان ، وهى لشجرة مشوكة لاتنمو أكثر من ذراعين ، ولا تنبت إلا بالجبال ليس فى السهل منها شئ ، ولها ورق مثل ورق الآس ، وثمر مثل ثمره ، له مرارة فى الفم ، وعلكه الذى يمزج ويسمى الكندر » (٣٢) .

ومن أبرز المنتجات البحرية العمانية المصدرة للؤلؤ فقد عرف إقليم عمان منذ القديم مفاصات اللؤلؤ ، ولا سيما عند مسقط ، وصور ، ومن لآلى عمان المشهورة الدرة اليتيمة التى استخرجت من عمان فى بداية العصر (م ٥ — ندوة الدراسات ج ٣)

العباسي ، واشتراها هارون الرشيد بسبعين ألف درهم ، كما اشترى لؤلؤة أخرى استخرجت معها ، وكانت أصغر بثلاثين ألف درهم (٢٣) .

ولا نغفل بصدد الحديث عن صادرات عمان عن الإشارة إلى الإنتاج الحرفي ، وما عرفه من تطور وازدهار نتيجة نشاط التبادل التجاري . وقد كان للعمانيين دور كبير في ازدهار الحرف في العاصمة التجارية الكبرى لمنطقة الخليج : البصرة (٢٤) .

أما أهم واردات المصدن العمانية ، سواء كان ذلك للاستهلاك المحلي ، أو لإعادة التصدير في نطاق الدور النشاط الذي أدته المصدن الساحلية العمانية في ازدهار تجارة العبور خلال الفترة الإسلامية فهي كثيرة ومتنوعة نذكر منها استيراد الحديد من الهند لصنع الأسلحة ، واستيراد السيوف الهندية جاهزة من الهند ، أو من سيلان ، والمصدل من الهند والصين ، وتوريد أنواع من المنسوجات .

وبالرغم من أن العالم الإسلامي كان ينتج الكثير من النسيج ، واشتهرت صحار بأنسجتها المتنوعة فإنه كان يستورد المنسوجات الحريرية والديباج من الصين ، ويستورد من الهند الثياب القطنية المخملية ، وتحتل الأخشاب في قائمة الواردات مكانة بارزة نظرا لفقر العالم الإسلامي بصفة عامة في مادة الخشب فقد كان يستورد الساج من الهند لاستعماله في بناء البيوت ، أو في صناعة السفن ، ويجلب الخيزران من السند والهند والصين ليستعمل في صناعة الرماح .

وكان خشب جوز الهند يورد من جنوب الهند ، وأندونيسيا ، وسيلان . وجزر ملدايف لاستعماله في صناعة السفن ، فقد كان عرب الخليج يسافرون إلى موطن جوز الهند لصناعة السفن من هذه الشجرة تبني منها هياكلها ، وصواريخها ، وخيوطها المغروزة ، وحبالها ، وكانت السفن بعد بنائها تشحن بخشب جوز الهند وثماره ، ويؤتى بها إلى عمان ، ومنطقة الخليج عامة (٢٥) .

أما الأبنوس فتشير المصادر العربية إلى أنه كان يستورد من بلاد الزنج ، ونجد في قائمة التبادل التجارى العماني العاج من بلاد الزنج والهند ، ومن جزيرة أندمان ، وشتى أنواع البهارات : والأصناف الرفيعة من العطور مثل المسك المستورد من الهند ، والتبث والصين ، والعنبر المجلوب من بلاد الزنج ، ومن الهند وسرنديب : وجزر لنجيا لوس والزنج ، والعود المستورد من الهند وجاوة وفنصور والصين . والكافور المجلوب من سفالة والهند وفنصور والصين وغيرها من مناطق الشرق الأقصى .

ويعد الجغرافى العربى المقدسى أنواع السلع المصدرة إلى عمان قائلًا :

« ... فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة ، والعطر كله حتى المسك ، والزعفران ، والبقم ، والساج ، والسلم ، والعاج ، واللؤلؤ ، والديباج . والجزع ، واليواقيت ، والأبنوس ، والنارجيل والقند ، والاسكندروس . والصبر ، والحديد ، والرصاص ، والخيزران ، والغفار ، والصندل ، والبلور ، والفلفل ، وغير ذلك » (٣٦) .

ويبقى الذهب أهم بضاعة وأثمنها — دون رَيِّب — في قائمة التبادل التجارى العماني ، وقد كانت عمان تستورد الذهب من شرق إفريقيا ، ومن بلاد الهند والشرق الأقصى عامة ، يحدثنا المسعودى عن استيراد الذهب من منطقة الصين قائلًا :

« بلاد الواق واق ، وجزائرها في مشارق الصين ، وهى كثيرة الذهب حتى أن مقاود دوابهم وسلاحهم وسلاسل كلابهم ذهب يعملون القصب المنسوجة بالذهب ذات التماثيل العجيبة » (٣٧) . أما الدمشقى فإنه يتحدث عن قنبلو قائلًا : إنها من « جزائر الزنج عامرة بهم ، وبها الأبنوس والبهار ، ومعادن الذهب » (٣٨) .

صحار : دهليز الصين ، وخزانة الشرق والعراق :

إن مدن المرافئ ذات الشأن في الدور التجارى العالمى لعمان في القرون الإسلامية الأولى متعددة ومتنوعة تمتد على كامل سواحل الخليج شرقا ، وعلى شواطئ بحر العرب جنوبا وسنقف قليلا في خاتمة هذه الدراسة عند صحار : عاصمة عمان •

لقد كان لهذه المدينة دور بالغ الأثر في تاريخ التجارة الخليجية منذ عصر ما قبل الإسلام ، ويذكر المؤرخون العرب أسطورة تأسيسها على يد صحار بن إبراهيم بن سام بن نوح ، ولا شك أنها خضعت للإمبراطورية الساسانية أيام نفوذها في منطقة الخليج ، وتظهر المدينة في العصر الاسلامى منذ سنة ٨ للهجرة (٣٠ / ٦٢٩ م) ، أى سنة وصول مبعوثى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهما عمرو بن العاص ، وأبوزيد الأنصارى ، إلى ملك عمان عبد بن الجندى ، وأخيه جيفر (٣٩) •

وسرعان ماتطور دور صحار ، ومكنها ازدهار التجارة مع بلدان الشرق الأقصى وشرق إفريقيا أن تصبح مركزاً تجارياً حساساً في علاقات التجارة البعيدة المدى •

بالرغم من تحول البصرة إلى مركز اقتصادى مهم في منطقة الخليج فإن ذلك لم يؤثر في مركز صحار في العلاقات التجارية الدولية عهدئذ ، وأصبحت تعد أهم ميناء في عمان ، وأجمل مدينة في منطقة الخليج ، وكانت أقرب المرافئ العربية لرسو السفن القادمة من الهند والصين وإفريقيا الشرقية إلى خليج البصرة يصفها ابن حوقل قائلاً :

« ... وقصبتها (يعنى ناحية عمان) صحار ، وهى على البحر ، وبها من التجار والتجارة مالا يحصى كثرة ، وهى أعمر مدينة بعمان ، وأكثرها مالا ، ولا يكاد يعرف على شط بحر فارس بجميع الاسلام مدينة

أكثر عمارة ومالا من صحار ... » (٤٠) ويصفها المقدسي بقوله : « صحار
هى قسبة عمان ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه عامر ، أهل ،
حسن ، طيب ، نزه ، ذو يسار وتجار ، وفواكه ، وخيرات ، أسرى من
ربيد وصنعاء . أسواق عجيبة : وبلدة ظريفة ، ممتدة على البحر .
نورهم من الآجر والساج . شاهقة نفيسة . والجامع على البحر له منارة
حسنة طويلة فى آخر الأسواق ، ولهم آبار عذبية . وقناة حلوة . وهم
فى سعة من كل شئ ، دهليز الصين . وخزانة الشرق والعراق . ومغوة
اليمن ... » (٤١) .

وقد اشتهرت صحار بأحيائها الثرية ، وقد سكنها أهل اليسار من
التجار ، ولاسيما المختصين منهم فى التجارة الكبرى ، وتشير النصوص
إلى أن بناء بيوت الأحياء الغنية كان بالآجر وخشب الساج .

وقد ساعد دورها التجارى النشط على تطور الصناعات اليدوية
بها ، واختصاص أسواقها بأنواع الحرف المختلفة مثل الحياكة ، والحدادة ،
وصناعة الجاد ، والذهب والفضة ، وصناعة الصمغ (٤٢) .

أما أشهر صناعة عرفت بها صحار فى شبه الجزيرة العربية ، وفى
مناطق أخرى نائية فهى المنسوجات ، وقد كانت تسمى الصحارية .
وهى صناعة قديمة فى المدينة سبقت ظهور الاسلام دون ريب ، حيث
إننا نجد صحار تصدر منسوجاتها إلى الحجاز فى عصر الرسول عليه
الصلاة والسلام (٤٣) .

وقد بدأ يتقلص الدور التجارى لمدينة صحار منذ القرن السادس
الهجرى / الثانى عشر الميلادى حيث ضعفت علاقاتها مع الشرق الأقصى ،
وذلك لفائدة عدن ، ولعله هو التحوّل فى حياة المدينة الذى يتحدث
عنه الحميرى قائلا :

» وهى أقدم مدن عمان ، وأكثرها أموالا قديما وحديثا ، ويقصدها فى كل سنة من تجار البلاد مالا يحصى عددهم ، واليها تجلب جميع بضائع اليمن ، ويجهز منها بأنواع التجارات وأحوال أهلها واسعة ، وبها النخيل والموز ، والرمان والسفرجل ، وكثير من الثمار الطيبة ، وكان فى قديم الزمان تسافر منها مراكب الصين فانقطع ذلك ، لأن عامل جزيرة كيش أنشأ أسطولا فغزا به بلاد اليمن الساحليّة فأضرّ بالمسافرين والتجار ، ولم يترك لأحد مالا ، وأضعف البلاد ، وانقطع السفر عن عمان ، وعاد إلى عدن » •

وكان بصحار مجتمع للتجارة ، ومنها يتجهز لكل بلدة ، والى بلاد الهند والصين ^(٤٤) • وهكذا يثبت دور عمان فى التجارة العالمية فى عصر ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ماعرفته هذه الأرض العربية العريقة من تفتح حضارى ، ومساهمة فى مسيرة المجتمع البشرى نحو غد أفضل ، وينبغى أن لا يغفل المرء ، وهو يتطلع إلى آفاق المستقبل ، عن هذا الجانب الحيوى من تراثنا الحضارى •

التعليق

- (١) راجع فصل « الصين » في دائرة المعارف الاسلامية .
- راجع دور العرب في تاريخ الملاحة الدولية كتاب : جورج فضلو حواريني ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة ، واولئ العصور الوسطى ، القاهرة ، د . ت .
- (٢) انظر : فاروق عمر ، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني ، بغداد ١٩٧٩ ، ص ٢٨ .
- (٣) راجع عن فتح عمان : البلاذري ، فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٨٤ وما يليها ، للسالي نور الدين ، تحفة الأعيان بسير اهل عمان ، نشر ابراهيم طغيث الجزائري ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٧ وما بعدها .
- (٤) انظر عن فتوح السند : ن . م . ، ص ٤٢٠ وما بعدها .
- (٥) راجع عن تمصير البصرة : ن . م . ، ص ٣٤١ وما بعدها ، انظر ايضا : صالح احمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري ، بيروت ١٩٦٩ .
- (٦) انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ ، ج ٣ ، ص ٧١٨ .
- (٧) ابن الفقيه ، ابو بكر احمد بن محمد الهمداني ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ ، ص ٢٠٥ .
- (٨) الروض المعطر في خبر الاقطار ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٤١٣ .
- (٩) ن . م .
- (١٠) ن . م .
- (١١) راجع في هذا الصدد : مورييس لومبار ، الاسلام في فجر عظمته ، ترجمة حسين العودات ، دمشق ، ١٩٧٩ ، ص ٢٥٢ .
- (١٢) راجع عن الحياة الاقتصادية في البحرين ، عبد الرحمن عبد الكريم النجم ، البحرين في صدر الاسلام ، واثرها في حركة الخوارج ، بغداد ١٩٧٣ ، ص ٨١ وما بعدها .

(١٣) راجع في هذا العدد كتابنا : المغرب الاسلامى : الحياة الاقتصادية ، والاجتماعية ، تونس ، ١٩٧٨ ، ص ٢٢ .

(١٤) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٩٦٧ ج ٣ ، ص ١٠٠٩ .

(١٥) ن . م . م . ، ج ٣ ، ص ٩٩٦ .

(١٦) ان اكتشاف المسلمين في المغرب لهذا المصدر الجديد للذهب : بلاد السودان لايبنى أبدا أن هذا المصدر لم يكن معروفا قبل الفتح الاسلامى ، اننا نوافق ف . برودال فيما يرجحه من أن التجارة الصحراوية أقدم بكثير من القرن الثانى ، انظر :

F. Braudel, La Méditerranée et la Monde Méditerranéen à L'époque de Philippe 11, Paris, 1949, pp. 364-365.

ولكن هذه التجارة الصحراوية القديمة قد توقفت أيام العهد الوندالى ، وأيام البيزنطيين ، وازدهرت في العهد الاسلامى ، وارتبطت بوحدة عمرانية واقتصادية شاسعة ، وهذا ما اكسب توريد الذهب للسودان في العصور الاسلامية أهمية خاصة . انظر ايضا :

Lacoste, Ibn Khaldoun, Paris, 1969, p. 25.

(١٧) انظر كتابنا المغرب الاسلامى ... ، سبق ذكره ، ص ٣١ ومابعدهما .

(١٨) ن . م . م . ، ص ٣٣ .

(١٩) انظر أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص ١٨ .

(٢٠) راجع في هذا الشأن : جورج فضل حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، سبق ذكره ، ص ١٣٩ وما بعدها .

(٢١) أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار ، سبق ذكره ص ٢٢ .

(٢٢) رحلة السيرافى ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص ٧٨ .

(٢٣) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦ ، ص ٢٧٤ وما بعدها .

- (٢٢) ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، لندن ، ١٨٨٥ ، ص ١١ .
- (٢٣) جورج فضل حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، سبق ذكره ، ص ١٩٥ . راجع أيضا عن الملاحة العربية : ابن حوقل ، صورة الأرض ، بيروت ، د ت ، ص ٤٨ وما بعدها .
- (٢٤) ن . م . م . ، ص ١٩٧ .
- (٢٥) مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٠٧ وما يليها .
- (٢٦) عبد الرحمن المعاني ، عمان في العصور الإسلامية الأولى . بغداد ، ١٩٧٧ ، ص ٧ .
- (٢٧) راجع كتابنا : المغرب الإسلامي ... ، سبق ذكره ، ص ٢٩ وما يليها
- (٢٨) انظر :
- F. Braudel, *Civilisation Matérielle et Capitalisme*, Paris, 1967, p. 372.
- راجع كتابنا المغرب الإسلامي ... ، سبق ذكره ، ص ٣٥ .
- (٢٩) المقدمة ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٩٧٥ .
- (٣٠) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٦ ، وما يليها .
- (٣١) الروض المعمار في خبر الإقطار ، سبق ذكره ، ص ٤٤٩ .
- (٣١) الروض المعمار في خبر الإقطار ، سبق ذكره ، ص ٣٣٩ .
- وعمان ، وكذلك اللبان هناك ، وفي أماكن من اليمن والله أعلم » ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لايزيف ، ١٩٢٣ ، ص ٨٢ .
- (٣٢) ابن البيطار ، عبد الله بن أحمد المالقي الأندلسي ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، القاهرة ، ١٢٩١ هـ ، ج ٤ ، ص ٨٣ .
- (٣٣) راجع قصة لؤلؤتين عمانيتين في روض المعمار للحميري ، مسادة عمان .
- (٣٤) أنظر : صالح أحمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ... ، سبق ذكره ، ص ٣٠١ .

(٣٥) انظر : جورج فضل حوراني ، العرب والملاحة ... ، سبق ذكره ، ص ٢٤٧ .

(٣٦) أحسن التقاسيم ... ، سبق ذكره ، ص ٩٧ .

(٣٧) المسعودي ، أخبار الزمان ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٥٩ .
راجع عن قضية الواق واق : جورج فضل حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ... ، سبق ذكره ، ص ٢٣١ وما يليها ، تعليق رقم ٢ .

(٣٨) الدمشقي شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لايبزيغ ، ١٩٣٣ ، ص ١٦٢ .

(٣٩) انظر السالمى ، تحفة الأعيان ... ، سبق ذكره ، ص ٩ وما يليها .

(٤٠) ابن حوقل ، أبو القاسم بن حوقل النصيبى ، صورة الأرض بيروت ، د ت ، ص ٤٤ وما يليها .

(٤١) أحسن التقاسيم ... ، سبق ذكره ، ص ٩٢ .
انظر أيضا وصف ابن الفقيه أبى بكر أحمد بن محمد الهذائى ، مختصر كتاب البلدان ، لندن ١٣٠٢ ، ص ١١ ، ووصف ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٣٩٣ .

(٤٢) راجع مقال : أدولف كروهمان عن صحار في دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الفرنسية الأولى ، لندن ، ١٩٣٤ ، ج ٤ ، ص ٥٢٧ — ٥٣٠ .

(٤٣) لبس الرسول صلى الله عليه وسلم الثياب الصحارية ، انظر : عبد الرحمن العاتى ، عمان في العصور الإسلامية الأولى ، سبق ذكره ، ص ٣٨ .
وتذكر بعض النصوص أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد كفن في نسجين من صحار .

(٤٤) الروض المطار ... ، سبق ذكره ، ص ٣٥٤ وما يليها .

نائباً ،

عمان في شرقي إفريقيا

الدولة العُمانية في شرقي إفريقيا

للأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم

هذه صفحات كثيرة في ترانسا انعربى لانتزال تحتج من الباحثين ومؤرخين الى تسليط مزيد من الضوء عليها والكشف عنها بعد أن أدت ظروف العزلة والتخلف الى حجبها وبخاصة تلك الصفحات المجيدة في تاريخنا العربي الحديث .

وعيس من المبالغة اذا ما أكدنا في هذا المجال بأنه تم تعان منطقة من اجزاء وطننا العربي منما عانت مصقه الخليج من عوامل التخلف والركود التي فرضت عليها في بعض فترات تاريخها .

ونعل سحنة عمان كانت أكثر وحدات الخليج معاناة من تلك الظروف . اننى كادت تقضى على ما كان لها من انطلاقه حضارية لم تقتصر على حدودها فحسب وانما انضقت اتساعاتها الى خارجها في كثير من فترات تاريخها القديم والوسيط والحديث .

ومن المؤكد أن تبحوث التى سوف تنتشر من هذا المبرجان الثقافى سوف تكشف بالأسلوب العلمى عن أهمية اندور الحضارى الذى أسهمت به عمان : ويكفى أن نشير في هذا المجال الى أنه كان لتجارها وملاحيها فضل نشر العربية والاسلام في مناطق بعيدة في آسيا وافريقيا كما سيطر أبناؤها على تجارة المحيط الهندي ضينة العصر الذهبي للملاحة الاسلامية حتى مقدم البرتغاليين الى بحر الشرق في أوائل القرن السادس عشر الميلادى (١) .

كما كان لأبنائها أثر لا ينكر في تأكيد حرية البشار وذلك بالتصدي للسيطرة الاحتكارية البرتغالية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وفي القرن التاسع عشر كان انتظام عمان وشرقى افريقيا تحت حكم واحد على

(١) راجع في ذلك فضل حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي وكذلك آدم مقرر البشارة الاسلامية . ترجمة الدكتور عبد الهادى ابوريدة ، ج ٢ ص ٤٢٩ - ٤٣٠ .

عهد دولة البوسعيد تحديدا لأول دولة آسيوية افريقية برزت في تاريخنا الحديث •

ولم تقتصر هذه الدولة على جزيرة زنجبار أو السواحل الافريقية المواجهة لها وانما مضى العمانيون يحملون حضارتهم الى مجاهل القارة في محاولات دائبة لاستجلاء معالمها عن طريق قوافل التجارة وما يتبعها من تأسيس المحطات والمراكز التجارية على طول تلك الطرق التي كانت عوناً كبيراً وفعالاً في عمليات استكشاف أواسط القارة ودواخلها وهو أمر لم ينكره رواد حركة الكشف الجغرافية من أمثال بيرتون وسبيك وستانلى ولفنجستون كما اعترف به أيضاً رواد حركة التبشير من أمثال كرايف ودريمان وغيرهما^(١) •

وقد أكد هؤلاء في سجلاتهم اعتمادهم على التنظيمات والمستوطنات العربية التي امتدت الى مسافات بعيدة داخل القارة اذ أن العمانيين لم يقتصرُوا على الاستقرار في الساحل وانما توغلت جماعات كبيرة في الداخل واستقرت في عدة أماكن متفرقة في أوغندة ومنطقة البحيرات الاستوائية وأعلى الكونغو • وقد أسهمت تلك الجماعات في نشر الاسلام والحضارة العربية بين القبائل الافريقية الخالصة •

وقد وصل الامتداد العماني الى أقصى مدى له خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أى في نفس الفترة التي شهدت تعاظم الموجة الامبريالية وبالتالي فلم يكن من المقدر أن تحتفظ الممتلكات العمانية في افريقيا بكيانها أو تماسكها وانما كان من المحتم أن تصطدم بالأطماع الاستعمارية وعجزت الامبراطورية العمانية أن تصمد في وجه المنافسة الأوروبية والصراع الذي احتدم بين الدول الامبريالية للسيطرة على القارة وكانت نتيجة ذلك تقسيم أجزائها وانفصال قسمها الآسيوى عن الافريقى •

(١) جمال زكريا قاسم : دور العرب في كشف افريقيا — مجلة عالم الفكر — الكويت — العدد الثانى المجلد الأول — مارس ١٩٧١ •

وفي الوقت الذي تفككت فيه أقاليمها الآسيوية بسبب المنافسات
الأسرية أو توسع الدول الاقليمية المحيطة بها تقاسمت كل من إنجلترا
وفرنسا وإيطاليا وألمانيا مقاطعاتها الافريقية ولم يعد هناك سوى بقايا
متناثرة لهذه الامبراطورية اقتصر على جزيرتي مبابا وزنجبار بالإضافة
الى الشريط الساحلي المواجه لها في شرق افريقيا وحتى هذه البقايا نجحت
بريطانيا في فرض حمايتها عليها في عام ١٨٩٠ كما فرضت حمايتها أيضا
على ما تبقى لهذه الدولة من ممتلكات في القسم الآسيوي بعد ذلك بعام
واحد^(١) .

غير أن هذه النهاية المحزنة لا تمنعنا بطبيعة الحال من تسجيل الصفحات
الناصعة وبخاصة ان هذه الصفحات لم تكن عارضة في التاريخ العماني
اذ أنه من الأمور التي تسترعى الانتباه أن الحكم العماني أو الامبراطورية
العمانية في شرق افريقيا لم تقم فجأة وانما كان قيامها نتويجا لمراسل
متتابة مرت بها العلاقات بين عمان وشرق افريقيا في فترات بعيدة من
التاريخ ولذلك فقد يكون من المناسب أن نستعرض تلك العلاقات والصلات
باعتبارها تشكل أساسا هاما من الأسس التي استندت عليها الامبراطورية
العمانية في شرق افريقيا في القرن التاسع عشر .

فمن المسلم به أن الروابط بين عمان وشرق افريقيا ترجع الى أزمنة
قديمة^(٢) وقد توطدت هذه الروابط بحكم التبادل التجاري من ناحية ثم

(١) انظر نص هذه المكاتبات في :

جمال زكريا قاسم عن دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا منذ تأسيسها حتى
انقسامها — القاهرة ١٩٦٧ .

(٢) عبد الرحمن بدوي : افريقيا والثغاة العربية — العدد ٤٨ من مجلة
افريقيا كتاب وضعه أحد الملاحين الاغريق في القرن الأول الميلادي وعرف بال دليل
الملاحى للبحر الارثري Periplus Maris Erythraei

ولهذا الكتاب ترجمة انجليزية نشرها Schof بعنوان :
The periplus of the Erythrean Sea.

Allan Villiers : The Arab Dhow trade, Middle East Journal, October
1951.

انتشار الاسلام من ناحية أخرى وترتب على توثق هذه الروابط ظهور مراكز استيطانية سكنها مهاجرون من عمان ومن غيرها من مقاطعات الخليج وسواحل شبه الجزيرة العربية وكانت هذه المراكز الاستيطانية بمثابة الأساس الذى قام عليه الحكم العمانى فى شرق افريقيا خاصة بعد أن نجحت عمان على عهدى اليعاربة واليوسعيد فى توحيد تلك الكيانات الاستيطانية على سواحل شرق افريقيا وتجميعها تحت زعامتها •

ولذلك فقد يكون من المفيد أن نعرض بشئ من التفصيل الى تلك الهجرات العمانية التى تدفقت على سواحل شرق افريقيا ولم تجد صعوبة فى الاستقرار فى تلك السواحل حيث لم يصادف العمانيون تنظيمات قبلية متماسكة وبذلك سهل عليهم الاستقرار وبناء وحدات تجارية تحولت فيما بعد الى مراكز سياسية •

بيد أننا لا نستطيع أن نحدد تحديدا قاطعا الفترة التى ظهرت فيها تلك الوحدات ولكن من الثابت أن العمانيين عرفوا السواحل الافريقية قبل ظهور الاسلام اذ ساعدت العوامل الجغرافية على تنشيط حركة الملاحة العربية لأن الرياح الموسمية التى تهب على منطقة المحيط الهندى تمكن السفن الشراعية الصغيرة من القيام برحلتين منظمتين فى السنة بأقل مجهود وفى فصل الخريف تدفعها الرياح فى اتجاه جنوبى غربى فتخرج من خليج عمان الى المحيط الهندى ثم تسير بمحاذاة الساحل الافريقى الذى ينحنى فى اتجاه شمالى شرقى يمكن السفن من العودة الى قواعدها^(١) •

على أن الاستقرار العمانى فى شرق افريقيا حدث بعد ظهور الاسلام نتيجة دوافع متعددة لم تعد قاصرة على التجارة وما كان يتبعها من استقرار مؤقت على الساحل وإنما أثرت المنازعات الدينية والسياسية فى تواجد كثير من الهجرات العمانية التى استقرت فى سواحل شرق افريقيا واستوطنت

(١)

Zoe March : East Africa through contemporary Records, p. 6, London 1961.

فيها بصفة دائمة^(١) حيث بدأ العمانيون يقيمون المدن والامارات والسلطات الاسلامية على السواحل •

وقد صادف العمانيون جماعات من العرب سبقتهم الى هناك منذ أزمنة بعيدة تقطن المراكز التجارية كما لقوا شعبا سواحليا أسهمت العناصر الواغدة على الساحل في تكوين سماته وفي وسط هذه العناصر نجح العمانيون في اقامة منازلهم دون مشقة اذ حلوا أهلا على من سبقهم وتزاجوا منهم ومن غيرهم من العناصر وأخذت شعوب الساحل منهم الدين الجديد والثقافة التي قامت عليه كما أخذت عنهم الكثير من وسائل عيشهم ونماذج حياتهم^(٢) •

والكثير من المصادر التاريخية تركز على عرب عمان ونجاحهم في تأسيس بعض المدن والامارات العربية الاسلامية على ساحل شرق افريقيا اذ أن موقع عمان كان يوجه سكانها الى الملاحة والتجارة كما ظهرت مهارة العمانيين في صناعة السفن وقد اندفع العمانيون بعد ظهور الاسلام في حمل الرسالة الاسلامية عن طريق التجارة ، فمما يسترعى الانتباه أن انتشار الاسلام في شرق افريقيا لم يتم نتيجة فتح عربي أو توسع عسكري كما حدث في فارس والشام ومصر وانما الذي قام بنشر الاسلام جماعات من التجار العرب وعلى الرغم مما ذهب اليه توماس ارنولد الى أن التجار العرب لم يعملوا على صبغ البلاد بالصبغة الاسلامية^(٣) • فإن بساطة التعاليم الاسلامية جعلت بعض القبائل الافريقية تقبل على اعتناق الدين الاسلامي بسهولة ويسر •

على أنه ينبغي أن نقرر من ناحية أخرى أنه على الرغم من سرعة انتشار الاسلام في سواحل شرق افريقيا الا أن اللغة العربية كانت بطيئة الانتشار

Ingrams, H. : Arabia and the Isles, p. 3.

(١)

(٢) ، (٣) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، الترجمة العربية ،

ص ٢٨٨ •

(م ٦ — ندوة الدراسات ج ٣)

اذ لم تصطبغ البلاد بالصبغة العربية انصباغا تاما رغم كثرة الهجرات العربية التي وفدت على الساحل ويعزى ذلك في اعتقادنا الى اختلاط العناصر وتباينها •

وعلى الرغم من أن اللغة العربية لم تستطع أن تتغلب على اللغات واللهجات المتعددة التي وجدت على الساحل الا أنها استطاعت أن تتغلغل في كيائها ونتيجة ذلك كانت ظهور لغة جديدة عرفت باللغة السواحيلية . شكلت المفردات العربية نسبة كبيرة منها . وقد أثبت الباحثون الذين عكفوا على دراسة اللغة السواحيلية قوة المؤثرات العربية في تلك اللغة وأن لهذه المؤثرات مدلولاتها الحضارية . اذ أن أكثر المفردات العربية التي دخلت في اللغة السواحيلية كانت ترتبط بالجوانب الفنية والثقافية والحضارية الى جانب المعاملات التجارية •

ويقدر رويش Reush وهو أحد المتخصصين في دراسة اللغة السواحيلية وتاريخها عدد المفردات العربية في هذه اللغة من الربع الى الخمسين (١) •

وقد يكون من المفيد مناقشة التنظيمات التي أوجدها العرب في شرق افريقيا في الفترة التي أعقبت ظهور الاسلام اذ أنه لم يثبت لدينا بشكل قاطع وجود مستوطنات عربية ثابتة في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام حيث لم تكن تتعدى صلات العرب بسواحل شرق افريقيا في تلك المرحلة أكثر من الصلات التجارية •

وانما أحدث عرب عمان وغيرهم من عرب سواحل الجزيرة العربية بعد ظهور الاسلام تنظيمات جديدة أو بالأحرى تم تحويل المراكز التجارية المؤقتة الى مراكز استقرار عربية تطورت فيما بعد الى امارات وسلطنات كبيرة تناثرت على طول الساحل الشرقي لافريقيا وازدادت ازدهارا نتيجة

تدفق فيض من الهجرات العربية من البحرين وعمان والاحساء واليمن وحضرموت وكانت تلك الممالك والامارات العربية الاسلامية تمتد من خليج عدن الى مدار الجدى وهى المنطقة التى يطلق عليها جغرافيو العرب اسم « بر الزنج » وقد برز من هذه السلطنات والامارات مقديشو وبرأوة وكلوة وممبسة وزنجبار وغيرها^(١) .

ولعل أقدم الهجرات العمانية المعروفة لدينا والتى أخذت طابعاً استقرارياً فى سواحل شرق افريقيا حدثت فى نهاية القرن السابع الميلادى وهى ترجع الى عهد عبد الملك بن مروان ٦٨٤هـ / ٧٠٧م وذلك حين اتبع سياسة قبلية فى شبه الجزيرة العربية وأخذ يستعين ببعض القبائل ضد بعضها الآخر وكذلك حين أولى السلطة فى العراق للحجاج بن يوسف الثقفى الذى أخذ يجهز الجيوش لاختضاع عمان وضمها تحت راية الأمويين .

وفى تلك الفترة كان يحكم عمان سليمان وسعيد أبنا عباد بن عبد الجندى وكانا يعدان العدة لمقاومة جيوش الحجاج اذا ما حاولت دخول البلاد ، ولم يكن يحد من طموح الحجاج شئ ، فصمم على فتح عمان وأرسل بالفعل جيشاً كبيراً بقيادة القاسم بن شعوة المزنى فقابله سليمان ابن عباد بجيشه واستطاع الانتصار عليه .

وحين بلغ الحجاج النبأ جن جنونه وزاد تصميمه على فتح عمان ، حتى أدرك سليمان وسعيد أنه لا قبل لهما بما كان يديره الحجاج لهما فقرا الى شواطئ افريقيا^(٢) مع قسم كبير من قبيلة الأزد العمانية ولا نعرف على وجه الدقة المكان الذى استقروا فيه مع أتباعهما وان كان من المحتمل أن تكون هذه الهجرة الكبيرة قد استقرت فى جزيرة ماфия .

(١) صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم : زنجبار ص ٤ القاهرة ١٩٦٠
انظر أيضاً جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى سواحل شرق افريقيا —
حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس — المجلد العاشر ١٩٦٦ .
(٢) محمد بن عبد الله السالى وناجى عساف : عمان تاريخ يتكلم ص ١٠١
دمشق ١٩٦٣ .

وهناك رأى آخر فى أن تكون هذه الهجرة قد استقرت فى جزيرة لامو ويؤكد ذلك ما ذكره الأستاذ هتشنز Hichens من أنه عثر على كتاب ألفه شيخو فرج بن أحمد وعنوانه أخبار لامو يظهر فيه أن امارة لامو كانت أقدم الامارات العربية ظهورا على الساحل الشرقى لأفريقيا •

وعلى ضوء هذه الدعامة التاريخية يستطيع المؤرخ أن يقرر أن الوجود العمانى على أرض شرق إفريقيا قد بدأ ظاهرا فى صورة ما فى أواخر القرن التاسع الميلادى وأن هذا الوجود ارتكز على وجود آخر سبقه فى هذه البلاد إذ أنه مما لا يستقيم فى العقل أن يلجأ سلطانا عمان « سليمان وسعيد » فرارا بنفسيهما وبمن معهما الى أماكن خالية من الوجود العمانى يأمنون فيها على حياتهم أو دينهم^(١) •

وقد أعقب هذه الهجرة هجرات أخرى نتج عنها ظهور أسرات عمانية حكمت بعض مناطق الشرق الإفريقى وأهمها الأسرة النبهانية ، ففى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر الميلادى وفدت هجرة كبيرة من عمان تزعمها أحد الملوك النبهانيين واستقرت هذه الهجرة فى جزيرة بات التى وجد بها النبهانيون خليطا من العرب والفرس الذين كانوا قد سبقوهم الى الإقامة فى تلك الجزيرة^(٢) •

ولكن نظرا للشخصية التى كان يتمتع بها الملك النبهانى الذى كان ملكا على عمان فقد استقبله العرب وكان معظمهم من اقليم عمان استقبالا طيبا وكان أول ما فعله الملك النبهانى أن تزوج من ابنة حاكم الجزيرة السواحلى

(١) جبهة الأخبار فى تاريخ زنجبار — انظر مقدمة عبد المنعم عامر — وزارة التراث القومى والثقافة — سلطنة عمان •

(٢) للهجرات المتتابعة التى وفدت على ساحل شرق إفريقيا يمكن الرجوع الى جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا — عربيه ملخصا الأمير يوسف كمال — القاهرة ١٩٢٧ وكذلك :

Freeman-Grenville : Select documents on East Africa p. 34.

المدعو اسحق الذى تنازل لابنته ولصهره عن حكم الجزيرة ، وبذلك بدأت الأسرة النبهانية فى جزيرة بات لتبدأ دورا ثانيا من حكمها الطويل الذى مرَّ بمراحل متتالية من القوة والضعف حتى انهيار نفوذها فى عام ١٨٨٥هـ^(١) .

وعلى الرغم مما تعرضت له الأسرة النبهانية من صراعات أسرية حول السلطة الا أنها استطاعت أن تحقق انتعاشا كبيرا فى الساحل الشرقى لاغريقيا حتى أصبحت جزيرة بات مركزا للسلطنة النبهانية التى شملت عدة جزر وبعض الموانىء الهامة على الساحل الفريقي واستطاعت أن تخضع معظم مقاطعات الساحل تحت لوائها وذلك قبل أن يدهمها الخضر البرتعالى فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى •

وكذلك نجحت الأسرة المزروعية ، وهى أسرة وفدت من ساحل عمان فى السيطرة على ممبسة وسوف نعرض لها بالتفصيل فى حوادث الشرق الاغريقي وخاصة عند تأسيس السلطنة العربية فى زنجبار على عهد السيد سعيد •

والهم أن الأسرات العربية التى وفدت من عمان أو غيرها من سواحل الخليج والجزيرة العربية حققت نجاحا وازدهارا كبيرين وربطت المصالح الاقتصادية بين العرب والشعوب التى صادقوها ، فمن الظواهر التى تسترعى الانتباه أن التنظيمات التى أقامها العرب فى سواحل شرق افريقيا أو فى دواخلها كانت تتفكر الى المتطلبات العسكرية ويرجع سبب ذلك الى أنها لم تقم نتيجة فتح عسكري أو توسع حربي وإنما قام بها تجار أو مهاجرون أو مضطهدون سياسيون أو دينيون وهؤلاء جميعا كانت مصالحهم تقتضى أن تكون علاقاتهم سلمية مع الأهالى الذين استقروا فى أوطانهم •

(١)

Warner, A : A swahili history of Pate cf. Journal of East African Swahili Committee, London 1933. See also Prins : The Swahili speaking people of Zanzibar and the East African Coast (Arab-Shiraz and Swahili, London, 1961).

وكان وصول العمانيين الى سواحل شرق افريقيا منذ القرن السابع الميلادى وتأسيسهم المراكز والمدن والامارات والسلطنات فرصة للرحالة والكتاب العرب لزيارة هذه المناطق أو الكتابة عنها فالمسعودى صاحب التجار العرب من عمان وسيراف الى شرق افريقيا •

وعلى الرغم من حديثه المطنب عن الشعوب الافريقية التى اختلط بها العرب الا أنه لم يصف الامارات والمدن الاسلامية التى أسهم العمانيون فى بنائها ، ومما يؤسف له أن الوقت الذى ساه فيه المسعودى كان عهد تأسيس بعض الامارات الاسلامية العمانية •

ولكن المسعودى صب حديثه كله على شعب الاقليمين أو شعب الزنج ومع ذلك فيمكن التعرف على جوانب من حياة هذه الامارات فيما كتبه الجغرافيون أو الرحالة أو أصحاب التقاويم الذين تعاقبوا بعد المسعودى كالادريسي فى مصنفه الشهير نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق أو ياقوت الحموى فى مصنفه المعروف بمعجم البلدان والذى يبدو فيه انه استقصى معلوماته من التجار الذين كانوا يذهبون الى شرق افريقيا لصلته بهؤلاء التجار وبرؤساء عمان على وجه خاص^(١) • أو ابن بطوطة الذى وصل الى شرق افريقيا فى أقصى عهد الازدهار الذى عاشته الامارات والسلطنات العربية فيها^(٢) •

وبالإشارة الى ذلك يمكن التعرف على تاريخ المنطقة وصور مجتمعاتها فيما كتبه الرحالة البرتغاليون الذين رافقوا فاسكو دى جاما فى رحلاته وسجلوا اعجابهم بما شاهدوه من مدن ومجتمعات متحضرة^(٣) ولذلك فإن

(١) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ١ ص ٣٢٨ — ٣٣٣ دار الرجاء — القاهرة •

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الاسفار وعجائب الامصار ج ١ تنظر سلطنات كلوه ص ١٦٣ •

(٣)

انظر ايضا بازل دانيد (ترجمة جمال محمد أحمد) : افريقيا تحت اضواء جديدة ص ٢٦٤ وما بعدها — بيروت ١٩٦٥ •

التاريخ العماني في شرق افريقيا يمكن البحث عنه في المصنفات العربية أو في المصادر البرتغالية الى جانب الروايات المحلية التي سجلت بالعربية أو السواحيلية والتي عكف على تحليلها واستخلاص مادتها الكثير من الباحثين^(١) .

ولقد ترتب على الصلات والروابط التي قامت بين عمان وشرق افريقيا ظهور دور عمان واضحا في تحضير الشرق الافريقى وهو دور كبير اذا قيس بمساحة عمان أو حجم سكانها ولذلك يعتبر ذلك الدور من أهم الأدوار انتى سجلها التاريخ لعمان ، وعلى الرغم من أن كثيرا من الباحثين المنصفين قدروا أهمية هذا الدور الا أن هناك باحثين آخرين تعمدوا التقليل من أهمية الدور الحضارى الذى قامت به عمان .

فقد اتجهت بعض المصادر الأجنبية الى التهوين من تأثير العرب الحضارى في شرق افريقيا فهم مثلا لم يدخلوا الزراعة الا بالقدر الذى كان يكفى استهلاكهم وجل ما انصرفوا اليه هو اشباع نهمهم في جمع العاج والذهب^(٢) .

وإذا كانت هذه المقولة تصدق بعض الشيء على الفترة السابقة على تأسيس السلطنة العربية في زنجبار بسبب القلاقل والتناحر بين الامارات والحدن الا أنه بعد أن تأكدت السيطرة العمانية على عهد دولة البوسعيد وتأكدت الوحدة بين مقاطعات الشرق الافريقى اتجهت الدولة الى الاهتمام بالزراعة ، كما سنشير الى ذلك فيما بعد .

ولكن ينبغى أن نؤكد أن طبيعة العرب في زنجبار كانت طبيعة تجارية وذلك قبل أن يتم استقرارهم النهائى ويسيطرون على المقاطعات الزراعية ويديرونها لحسابهم .

(١) جمال زكريا قاسم : المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا — العدد الرابع عشر من المجلة المصرية للدراسات التاريخية — ١٩٦٦ .
(٢) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ص ٧٩ وما بعدها — معهد البحوث والدراسات العربية — القاهرة ١٩٧٥ م .

والغريب أن الأوروبيين أنفسهم لم يدخلوا الزراعة الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بعد استيطانهم المناطق المرتفعة الصالحة للاستغلال في الشرق الافريقي • أما الفترة التي سبقت ذلك فقد كان كل ما يعينهم هو الاثراء والاستغلال بتجارة الرقيق^(١) •

ومن نافلة القول أن نشير الى الأثر الحضارى الذى أدخله العرب فى شرق افريقيا ويكفى أن نشير بصدد ذلك أنه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حينما فكر الأوروبيون فى ارتياد منظم للقارة الافريقية بدعوى ادخال الحضارة اليها والحقيقة بهدف الاستعمار وقد اعتمدوا على جهود العرب وعلى المراكز التجارية التى أقامها العرب لربط الساحل بالداخل وكانت هذه المراكز عوناً كبيراً للمستكشفين الأوروبيين بل ان المناطق التى كشفت كانت معروفة لدى العرب •

هذا فضلا عن استعانة الرواد الأوروبيين بالتجار والأدلاء العرب فى عمليات الكشف هذه والتى لم تكن فى حقيقتها كشفاً وانما كانت مجرد تسجيل لحقائق كانت معروفة لدى العرب من قبل^(٢) •

(١) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ص ٨٠ وما بعدها .

Philips Wendell : Oman, A history, p. 24. See also G. Z. Kassem : Omani-Portuguese conflict in the 17th century, Bulletin of the Arab Research and Studies Institute, Cairo, 1980.

(٢) جمال زكريا قاسم : دور العرب فى كشف افريقيا — عالم الفكر — العدد الثانى ج ١ مارس ١٩٧١ • وانظر أيضاً :

1. Michael Crowder : The story of Nigeria.
CF. The Atlantic Slave Trade, London, 1962.
2. Wendell Philips : op. cit. p. 117.
3. Coupland, R : East Africa and its invaders, pp. 18-20.

الصراع بين البرتغاليين والعمانيين في شرق افريقيا

قنعت الشعوب السواحيلية في شرق افريقيا بالعيش في أمان تحت حكم الأسرات العربية التي توافدت من عمان ، وقد استمر السواحيليون يعترفون بالسيادة العربية حتى مقدم البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر الذين استغلوا فرصة الصراع الذي كان محتدما بين بعض هذه السلطنات لتوطيد سيطرتهم عليها واخضاع المنطقة كلها لأسلوبهم العسكري والاحتكاري^(١) .

ومما تجدر الإشارة اليه أن فاسكو دي جاما في وصوله الى الهند اعتمد على أدلاء من العرب والهنود الذين كانوا يترددون على هذه المدن والموانئ وقد اشتهر من أولئك الملاح العربي العماني الشهير شهاب الدين أحمد بن ماجد الذي تدرب في المياه العمانية على فنون الملاحة ووضع عددا من المؤلفات والقياسات البحرية الهامة منها كتابه الشهير الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، وحاوية الاختصار في أصول علم البحار بالاضافة الى الأراجيز البحرية التي اختصت بالملاحة وفنون الابحار في الخليج والمحيط الهندي بصفة عامة^(٢) .

وقد نجح البرتغاليون في تطبيق سيطرتهم الاحتكارية على سواحل شرق افريقيا حيث أقاموا في سفالة وكلوة وموزمبيق حكما مباشرا تسنده

(١) للتعرف على أسلوب البرتغاليين الاحتكاري وما اتصف به من عنف . انظر زين العابدين تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين . نشر دافيد لويز David Lopes لشبونه ١٨٩٨ ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) انور عبد العليم : أحمد بن ماجد ص ٦ انظر أيضا مادة شهاب الدين أحمد بن ماجد في دائرة المعارف الاسلامية وكذلك افناطيوس كراتشكوفسكى - مع المخطوطات العربية ص ١٨٠ - ١٨٣ .

انحمايات والأساطيل القوية ونتيجة للسيطرة البرتغالية انقطعت الصلات تقريبا بين سواحل شرق افريقيا وسواحل الخليج والجزيرة العربية التي كانت تمدها دوما بأفواج متجددة من أبنائها^(١) .

وقد استمرت السيطرة البرتغالية في أوج تنوتها ما يقرب من قرن ونصف قرن من الزمان تعرضت خلالها الامبراطورية البرتغالية للتصدع بسبب المنافسة الاستعمارية ، التي واجهتها بالاضافة الى قصور البرتغال وهي دولة صغيرة محدودة المساحة والسكان في الاحتفاظ والسيطرة الاحتكارية على سواحل امبراطورية بحرية ضخمة امتدت من لشبونة الى كاليفوت .

هذا فضلا عن خضوع البرتغال للعرش الأسباني بين عامي ١٥٨٠ و ١٦٤٠ .

وما ترتب على كل هذه الأحداث من فقدان البرتغاليين لمعظم مستعمراتهم^(٢) ولعل عوامل الضعف هذه هي التي مكنت لدولة اليعاربة — وهي دولة عمانية ناشئة في التصدي للامبراطورية البرتغالية ليس في عمان فحسب وانما في القواعد البرتغالية في الخليج وسواحل الهند وشرق افريقيا .

ولعل أعظم انتصار أحرزه العمانيون على البرتغاليين في شرق افريقيا هو نجاحهم في اخضاع قلعة المسيح في ممبسة في ١٤ ديسمبر ١٦٩٨ وذلك بعد حصار دام ثلاثة وثلاثين شهرا .

(١) محمد بن عبد الله السالمى وناجى عساف ، عمان تاريخ يتكلم ص ١٨٢ .

(٢) عن ازدهار وانهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق يمكن الرجوع الى :

Boxer C : Four centuries of Portuguese expansion, London, 1961.

ويقول كوبلاند أنه بسقوط ذلك الحصن المنيع وضعت نهاية لتفوق البرتغاليين في شرق أفريقيا إذ كان لسقوط ممبسة على يد عرب عمان أثره البالغ في إجبار البرتغاليين على الجلاء عن جميع الساحل الذى يقع شمال رأس دجاجو^(١) وفشلت محاولات في إعادة سيطرتهم وكانت أهم تلك محاولات محاولة قاموا بها في عام ١٧٣٥ عندما تقدموا بأسطولهم صوب مباسا منتهزين فرصة الاضطرابات التى وقعت فيها نتيجة الحروب التى تمت بينها وبين زنجبار^(٢) .

ومهما كانت المحاولات التى بذلها البرتغاليون لاسترداد مركزهم فإن الأمر الذى لا شك فيه أنه بسقوط قلعة المسيح في ممبسة وضعت نهاية لتفوق البرتغاليين في شرق أفريقيا^(٣) وينسب الى الامام سيف وهو الذى خلف أباه سلطان بن سيف في عام ١٦٦٩ تحرير له لسواحل شرق أفريقيا من انسيطرة البرتغالية .

وقد حفظ لنا المؤرخ العماني نور الدين السالمى في كتابه المعروف تحفة الأعيان بسيرة آل عمان شيئاً من أعمال سيف وجهاده ضد البرتغاليين فذكر أن الامام حارب النصارى في جميع الأقطار وعمل لهم مراكز عظيمة في البحر وعظم جيشه وقوى سلطانه وأخذ من النصارى ممبسة والجزيرة الخضراء وكلوة وغيرها من البلدان التى بالزنج ومن البلاد التى بالهند^(٤) كما حفظ لنا بعض المراسلات التى تبودلت بين الأئمة

(١)

Coupland : East Africa and its invaders, p. 67-68, See also Guillaum . Documents sur l'Histoire, geographie et le commerce de l'Afrique Orientale, Tome I, pp. 67-68.

Eliot, Sir Charles : East Africa Protectorate, p. 19. (٢)

(٣) عن قلعة البرتغاليين في ممبسة يمكن الرجوع الى :

Boxer, C : Fort Jesus and the Portuguese in Mombasa 1593-1927, London 1961.

(٤) السالمى — تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ج ٢ ص ٩٦ — ٩٨ .

العمانيين وبين بعض قادة البرتغاليين وكشفت لنا تلك المراسلات عما كان يتميز به الصراع من حماس ديني ورغبة العمانيين الحقيقية في الجهاد^(١) .

أصبح العمانيون بعد نجاحهم في طرد البرتغاليين من الخليج وسواحل شرق أفريقيا حتى رأس دلجادو جنوبا قوة ذات خطر كما أضحي أسطولهم الشراعى يسيطر على التجارة في المحيط الهندي واعانهم على ذلك أن سياسة الدول الأوروبية التي خلفت البرتغال في بحار الشرق لم تكن قائمة على سياسة الاحتكار التجارى كما كانت سياسة البرتغاليين وانما انصرفت الى تأسيس المستعمرات واستغلال الاهالى وتنشويين الامبراطوريات ، أما في التجارة فقد أفسحت المجال للعناصر التي كانت تعمل فيها من قديم لتعمل فيها من جديد وانما حرموا في الوقت نفسه على تأمين المواصلات لامبراطورياتهم الاستعمارية وترتب على ذلك دخولهم في علاقات مع القوى المسيطرة على أهم القواعد في طريق هذه المواصلات .

وثمة حقيقة أخرى ينبغي أن نشير اليها وهي أن تدخل عرب عمان في شرق أفريقيا لم يكن عاملا هاما في القضاء على السيطرة البرتغالية في شرق أفريقيا فحسب بل ان أهمية هذا التدخل هو أنه أتاح للدين الاسلامي وللغة العربية المناخ الصالح للانتشار دون عقبات^(٢) .

فالمعروف أن البرتغاليين قد تمكنوا خلال المائتي عام التي قضوها في ساحل شرق أفريقيا في التمكن للعقيدة الكاثوليكية ولذلك تعتبر سنة ١٦٩٨ سنة هامة لامن حيث القضاء على السيطرة البرتغالية بل

(١) انظر نص هذه المكاتبات في :

Guillain : op. cit. Tome I, p. 520 ff.

وكذلك السالى ج ٢ ص ١١ وما بعدها — انظر أيضا :

G.Z. Kassem : Omani-Portuguese conflict in the 17th century, Cairo 1980.

(٢) عبد الرحمن بدوى : افريقيا والثقافة العربية — العدد ٤٨ من مجلة

نهضة افريقيا السنة الرابعة — اكتوبر ١٩٦١ .

أن أهميتها ترجع في أنها أتاحت للإسلام الفرصة الواسعة للانتشار^(١) .

وبعد سقوط ممبسة على أيدي العمانيين توالى السيطرة العمانية بعد ذلك على كثير من اجزاء الساحل على أن هناك أمرا جديرا بالانتباه وهو أن طرد العمانيين للبرتغاليين من شرق إفريقيا لم يكن بمثابة تأكيد لادعاءات العمانية في شرق إفريقيا إذ أن العلاقات بين عمان وشرق إفريقيا تعود كما سبق أن أشرنا الى روابط أقوى من ذلك بكثير وتمتد لى عصور موعلة في التاريخ وانما يمكن اعتبار تحرير عمان لسواحل شرق إفريقيا من سيطرة البرتغاليين بمثابة مرحلة من المراحل التى مرت بها العلاقات بين عمان والشرق الافريقى .

ومن ناحية أخرى فان سقوط ممباسة لم يكن نهاية للدور الذى قامت به عمان للتصدى لخطر البرتغاليين إذ استمر هذا الدور قائما حتى السنوات الاولى من القرن الثامن عشر وهناك ثمة ما يؤكد أن الامام اليعربى سيف بن سلطان وصل الى موزمبيق وشدد الحصار على حصن سان سبستيان الأمر الذى أثار ثائرة البرتغاليين ، وعلى الرغم من أن العمانيين كانوا على وشك الاستيلاء على الحصن الا أنهم لم ينجحوا فى ذلك نظرا لما وقع فى نفوسهم من ارتياح على أثر انفجار لغم كبير كان البرتغاليين قد أعدوه هناك .

وعلى أية حال فقد بادر سكان الساحل الشرقى لإفريقيا بالاعتراف بالسيادة العمانية من خليج دلجادو جنوبا حتى رأس غردفون شمالا وهى المناطق التى تم تحريرها من السيطرة البرتغالية .

وعلى الرغم من تلك المنجزات الا أن الظروف لم تساعد ، دولة

(١) لوغروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٢٥٦ تعليق
الاجير شكيب ارسلان .

اليعاربة على تأكيد سيطرتها على الشرق الافريقى رغم احرازها الانتصار ضد البرتغاليين وعلى الرغم من الصلات الوثيقة التى كانت تربط بينها وبين المستوطنات العربية فى شرق افريقيا التى كانت تنظر الى عمان دوما باعتبارها الدولة الأم وتلجأ اليها خلال الازمات • ولكن العمانيين مع ذلك لم يعملوا على وراثة النفوذ البرتغالى وإنما اكتفوا بتبعية هذه المناطق لدولتهم تبعية اسمية ^(١) •

ويرجع ذلك فى تقديرنا الى أن دولة اليعاربة قامت على أساس مذهبي ولذلك كان أهم ما يعينها هو الارتباط بالمراكز الداخلية الدينية فى عمان كالرستاق ونزوى وبهلا وازكى وغيرها •

ولا شك أن المشكلات الداخلية التى تردت فيها دولة اليعاربة من تنازع حول الحكم واستمرار الصراع ضد البرتغاليين فى تتبعهم فى سواحل الهند كانت من أهم العوامل التى استنفدت جهودهم وجعلت السيادة العمانية على شرق افريقيا على عهد اليعاربة سيادة اسمية أكثر من كونها سيادة فعلية حيث لم يكن لدى اليعاربة الوقت الكافى الذى يتمكنون فيه من تفقد سلطانهم ^(٢) حتى اذا سقطت دولة اليعاربة وخلفتها دولة البوسعيد كانت هذه الدولة أكثر تفهما لحقيقة الصراع فى البحار بين الدول الاستعمارية فوجهت ثقلها الى الشرق الافريقى لتسبق هذه الدول فى تكوين امبراطورية لها فى تلك الاجزاء •

وهكذا كان الخلاف كبيرا بين أسلوب الدولتين فى علاقاتهما بشرق افريقيا فبينما اكتفت دولة اليعاربة بالسيادة الاسمية تاركة الحكم لبعض

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا — ص ٢٤ — ٢٥ •

(٢)

Krapf, Rev. Dr. J. Lewis : Travels, Researches and Missionary Labours during an eighteen years residence in Eastern Africa, p. 529. London 1860.

الاسرات العمانية الموالية لها عمل البوسعيد على تأكيد سيطرتهم الفعلية، وقد يكون من المفيد أن نشير بصدد ذلك الى أهم الأسر التي ولاها اليعاربة على شرق افريقية وهي أسرة الحرث التي حكمت في زنجبار والنبهانيون الذين أقرهم اليعاربة حكاما على جزيرة بات وان كان الامام سيف حرص في الوقت نفسه على تقليص نفوذهم من مدينة ممبسة اذ عهد بها لاسرة جديدة وهي اسرة المعمرى .

وعلى الرغم من نجاح محمد بن سعيد المعمرى في اخضاع زنجبار ومقديشو وغيرهما من مدن الساحل الا أنه فشل في تثبيت الحكم لأسرته حيث خلفتها أسرة جديدة هي أسرة المزروعى^(١) . اذ كان أئمة اليعاربة يرسلون ولاتهم متناوبين على ولاية ممبسة وما كان يتبعها من مقاطعات في سواحل شرق افريقيا وجزرها واستمر الوضع على ذلك حتى ضعفت قوة اليعاربة وعجزت عن مقابلة ولاياتها في شرق افريقيا لقلة ايراداتها حيث لم يوجه اليعاربة أهمية لاستثمارها .

وفي عام ١٧٣٩ عرض الامام اليعربى سيف بن سلطان على المزاريع ولاية افريقيا على أن يدفعوا له شيئا من المال كل سنة^(٢) وبهذه الطريقة جعل الشيخ محمد بن عثمان المزروعى خلفا لمحمد بن سعيد المعمرى ليكون واليا على ممبسة .

وفي أثناء ولاية الشيخ محمد بن عثمان انتقلت الامامة الى الامام

(١) اميلى رويت (مترجم) : مذكرات اميرة عربية ص ٢٥ .
(٢) المزروعىون او المزاريع فرع من قبيلة بنى ياس التي ماتزال تسكن الساحل العماني وقد حكمت هذه الاسرة في الشرق الانريقى ما يقرب من مائة عام وامتد سلطانها في اوائل القرن التاسع عشر على طول ساحل كينيا من لامو شمالا حتى بنجا في جنوبها . وقد نشر وليم اوين W. Owen الرحالة الانجليزى الذى زار شرق افريقيا عام ١٨٢٤ ملخصا لكتاب وجده في ممبسة عن تاريخ آل المزروعى وذلك ضمن كتابة المعنون .

Narratives of voyage to explore the shores of Arabia, Africa and Madagascar, 2 vols. London, 1862.

أحمد بن سعيد ١٧٤١^(١) ولما بلغ الخبر بانتقال الامامة من اليعاربة الى البوسعيد عزم الوالى الجديد على الاستقلال بملكية ممبسة ومتعلقاتها وامتنع عن دفع الجزية المفروضة ورفض الاعتراف بولاية ممبسة لدولة البوسعيد وعلل ذلك بأنه ظل مواليا لدولة اليعاربة حتى سقطت ولم تكن تبعيته لعمان معناها أن يستمر فى ولائه لها حتى بعد سقوط اسرتها الحاكمة .

كما ذكر أيضا بأن الامام أحمد بن سعيد مؤسس اسرة البوسعيد وصل الى الحكم بدهائه وطموحه الشخصى ، واذا كان الامام أحمد بن سعيد وهو والى اليعاربة على صحرار قد استطاع أن يصل الى الحكم فى عمان فماذا يحول دونه وهو حاكم ممبسة فى أن يقتدى بما فعله حاكم صحرار ويبادر باعلان استقلال ممبسة وتوابعها فى شرق افريقيا عن التبعية العمانية^(٢) .

على أن الامام أحمد بن سعيد كان يذرك جيدا مساوىء حدوث انفصال بين بلاده وبين شرق افريقيا لما بين الاقليمين من روابط وصلات اقتصادية وروحية ولذلك غان المشاكل التى واجهها سواء فى داخلية بلاده أو فى الخليج أو فى صراعه ضد الفرس لم تكن لتشغله عن تثبيت السيادة العمانية على ممتلكاتها فى الشرق الافريقى .

ومن ناحية أخرى فانه بالاضافة الى الحركات الانفصالية التى ترعها المزروعون فى ممبسة واجه الامام أحمد بن سعيد حركات انفصالية أخرى ترعها النبهانيون فى جزيرة بات^(٣) واذا كان الامام أحمد بن

Rudolf Said, op. cit. p. 47.

(١)

Lyne : Zanzibar in Contemporary times, p. 10. See also Guillaing : (٢)
op. cit. Tome I, p. 543.

وكذلك جبهة الاخبار فى تاريخ زنجبار تحقيق عبد المنعم عامر ١١٨/١١٩

Pearce, F. B. : Zanzibar, the Island, Metropolis of Eastern (٣)
Africa, p. 109, London 1920.

سعيد قد لقي مقاومة عنيفة في ممبسة وبات غانه كان أكثر توفيقا ونجاحا في المقاطعات الأخرى التي لم تدب فيها الثورات مثلما حدث في هاتين المقاطعتين فزنجبار ظلت على ولائها لعمان واعترفت بالدولة الجديدة كذلك فعلت كلوة بينما انحازت كل من مقديشيو وبرأوة وبقية الموانى والجزر الواقعة في الجنوب حتى توانى لمبسة (١) .

حقيقة أن الامام أحمد بن سعيد حاول التصدي لهذه الثورات ولكنه سرعان ما أدرك أن تورطه في مشكلات الشرق الأفريقي في الوقت الذى لم يكن حكمه قد توطد في عمان قد يؤدى الى انهيار دولته ويكفى أن نشير الى أن العلاقات العدائية بينه وبين كريم خان الزندى . ومواجهته بالصراع الانجليزى الفرنسى الذى بدأ يظهر في مياه مسقط أجبر الامام أحمد على وقف نشاطه في الشرق الافريقى مكتفيا بالعمل على ترويج التجارة واستمرارها بين مسقط وشرق افريقيا مقتنعا بسيادة عمان الاسمية .

ولكن هذه السيادة الاسمية أدت الى انفصال المقاطعات الافريقية واحدة بعد الأخرى سواء حدث ذلك في عهده أو في عهد ابنه سعيد بن الامام أو سلطان بن أحمد غفى خلال عهد اولئك الحكام انصرفت سياستهم الى تأكيد مركز دولتهم في عمان وانصرافهم الى معالجة مشاكل الدولة الخارجية وقد استمر الوضع على ذلك حتى تولى السيد سعيد بن سلطان الحكم في عمان ١٨٠٦ حيث كانت له سياسة اختلفت اختلافا جذريا من حيث اتجاهه الى انشاء امبراطورية عمانية في شرق افريقيا وهو أمل استطاع أن يحققه خلال المرحلة الثانية من حكمه الطويل الذى امتد حتى عام ١٨٥٦ (٢) .

Guillain : op. cit., Tome I, pp. 549-550. (١)

Pearce : op. cit. p. 117. (٢)

وقد كان أول ما اتجه اليه السيد سعيد هو التخلص من الأسرة الحاكمة في شرق إفريقيا نظرا لجنوحها الى الاستقلال عن عمان وقد ركز بصفة خاصة على أسرة المزروعى في ممبسة والأسرة النبهانية في جزيرة بات وقد بدأ بالتخلص من الأسرة المزروعية التى سقطت تحت سيطرته الفعلية.

ونحن نرى أن سقوط الأسرة المزروعية وبقاء الأسرة النبهانية رغم كونها أضعف كثيرا من الأسرة المزروعية يثير جدلا قويا في اتجاه السيد سعيد في بداية الأمر الى الاستعانة بالأسرة النبهانية للإطاحة بآل المزروعى في ممبسة خاصة وأن حوادث سقوط ممبسة في أيدي السلطان سعيد تشير بوضوح الى المساندة الفعلية التى قدمها النبهانيون الى والى السيد سعيد في ممبسة •

ومن ناحية أخرى غان الدارس لتاريخ شرق إفريقيا يجد أن الأسرة النبهانية في بات كانت قد سقطت تحت سيطرة آل المزروعى في ممبسة ولكن السيد سعيد حرص قبل أن يبدأ صراعه ضد ممبسة على أن يعيد سلطة بات للأسرة النبهانية وكان يهدف من ذلك أن تستأنف هذه الأسرة صراعا القديم ضد المزروعيين فيؤدى ذلك الى إضعاف نفوذ الأسترتين •

ومما يؤكد لنا ذلك أن السيد سعيد راودته فكرة التخلص من النبهانيين بعد استقرار حكمه في زنجبار كما فعل مع آل المزروعى في ممبسة الا أنه فشل في الاستيلاء على جزيرة بات ولم يخضع النبهانيون الى اسرة البوسعيد الا على عهد خلفائه من بعده وكان آخر استقرار لهم في مقاطعة ديتو التى خضعت بدورها للسيطرة البريطانية (١) •

(١) تقع مقاطعة ديتو في المناطق الداخلية في الصومال البريطانى وعلى الرغم من خضوعها للسيطرة البريطانية الا انها تحكم وتخضع لسلطين مسلمين مستقلين ينتمون الى الاسرة النبهانية التى كانت تتوارث الحكم في جزيرة بات — انظر صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم : زنجبار ص (١٣١)

الامبراطورية العمانية في شرق افريقيا على عهد البوسعيد

ولعل أزمى فترة عاشتها الامبراطورية العمانية في شرق افريقيا حدثت على عهد السيد سعيد اذ امتزج العرب العمانيون بالسكان الوطنيين وانهقدت بينهم وبين السلاطين الأفارقة صلات مودة وحسن جوار كما أبقي العمانيون لهؤلاء الملوك والسلاطين نفوذهم بين مواطنيهم واحكامهم القائمة على رعاياهم ومماليكهم .

ولعل ابرز مثال على ذلك هو السلطان منى مكوا ^(١) وهو من السلاطين النوطنيين الذين سادوا جزيرة زنجبار قبل الوجود العماني غقد ناصفه البوسعيد الحكم في زنجبار كما لم يتعرض العمانيون للاهالي الوطنيين بشيء من الأذى أو القهر ولم يفرضوا عليهم ذلا بل انهم عملوا على تخليصهم من بطش أبناء جنسهم الذين استرقوهم فعلموهم الحرف والزراعات واشركوهم معهم في شئون الحياة واعطوهم الاملاك والمزارع يتابعونها ويتوارثونها في حرية تامة كما علموهم الدين الاسلامي وتزاجوا منهم فصار بعض نسائهم امهات والذات لعرب نبلاء .

وقد تميز عهد البوسعيد باتجاه عمان لتخطيط سياسة افريقية ورغم ماذهب اليه بعض المؤرخين من أن اتجاه السيد سعيد للشرق الافريقي كانت محاولة منه للتخلص من المشكلات التي كانت تواجهه في عمان ^(٢) الا أننا لا نتفق مع هذا الرأي لأن اتخاذ السيد سعيد لنفسه

(١) هو السلطان احمد بن محمد بن حسن العلوي ويعرف في زنجبار باسم منى مكوا ومعناه السيد الكبير وهو من سلالة السلاطين السابقين ، ولما نقل السيد سعيد ديوان حكومته من مسقط الى زنجبار جعل حكم البلاد مناصفة بينه وبين منى مكوا وكان يسود على جميع رعاياه في زنجبار وكان السيد سعيد حكيما لم يعترض على الاحكام التي كان يصدرها متى مكوا منافسه في دونغا بل كان معه على غاية الود والوفاء وكان منى مكوا يجمع الرسوم من رعاياه ويقسمها بينه وبين السيد سعيد — انظر جبهة الاخبار في تاريخ زنجبار ص ١٦٨

Pearce : op. cit. p. 117.

(٢)

سياسة افريقية لم تكن لتبعده عن المشاكل العمانية التي كان يفرغ لها جزءا كبيرا من وقته وجهده وانما اتجه السيد سعيد الى الشرق الافريقي كان يكمن في حرصه البالغ على هذا الجزء من دولته لكثرة موارده ووفرة خيراته وزيادة فرص استغلاله .

هذا فضلا عن أن الظروف التي آلت اليها الدولة في عهده لم تكن تضطره كما اضطرت اسلافه من أئمة وسلاطين الدولة على البقاء في اقليم عمان ذا الطابع الديني التقليدي وظهر ذلك واضحا في اتجاه السيد سعيد الى نقل عاصمة ملكه من مسقط الى زنجبار في عام ١٨٣٢ وجهوده الدائبة لتكوين امبراطورية عمانية في شرق افريقيا ^(١) ويمكننا أن نؤكد أن الفترة من عام ١٨٣٩ وهي نهاية صراعه ضد آل المزروعى في ممبسة كانت حتى وفاته في عام ١٨٥٦ هي الفترة التي انصرفت فيها جهوده وراء رغبته في توسيع ممتلكات أسرته في شرق افريقيا والعمل على استغلالها .

وعلى الرغم من أن السيد سعيد كان يدرك جيدا أن عمان هي المصدر الأول لقوته البحرية والعسكرية الا أنه بدأ يعهد بها الى وكلاء له ما استطاع الى ذلك سبيلا ووضح اهتمامه الشخصي بشئون ممتلكاته في الشرق الافريقي ^(٢) ومن المعروف أن حكم السيد سعيد بدأ في مسقط عام ١٨٠٦ وقضى سنوات حكمه الأولى في تدعيم مركز حكمه في عمان سواء كان ذلك في صراعه ضد القواسم أو ضد السعوديين أو في محاولته تأكيد كيان عمان وسط المنافسة الانجليزية الفرنسية في مياه المحيط الهندي .

على أن السيد سعيد كان أكثر ادراكا الى أهمية الشرق الافريقي وكما سبق أن اشرنا الى الأسرات العمانية التي استقرت في شرق افريقيا

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ص ٢٠٧ .

(٢) ج . ج . لوريير : دليل الخليج - المجلد الثاني ص ٧٠٢ / ص ٧٠٣ .

(الترجمة العربية - مكتب ديوان حكم قطر) .

حاولت أن تؤكد لنفسها كيانا منفصلا عن الدولة الأم • غفى بدايه حكمه لم تكن سلطته واضحة الا على بعض المقاطعات التابعة لزنجرار وهي بمبا ومافيا وكلوة بينما استمرت اسرة المزروعى فى ممبسة تنازع عمان سيادتها على الشرق الافريقى •

وقد أدرك السيد سعيد أهمية العامل الاقتصادى فى الصراع بينه وبين ممبسة ويتضح ذلك فى اتجاهه الى تطويقها اقتصاديا وذلك بمنع رعاياه العمانيين من التجارة معها ثم اتجه بعد ذلك الى تخليص المقاطعات الافريقية من سيطرة آل المزروعى •

وفيما يبدو أن الضغط الاقتصادى والعسكرى كانا عنيفين من قبل عمان ، الأمر الذى دفع بالمزروعيين فى عام ١٨٢٤ الى طلب الحماية البريطانية وبالفعل وقع الشيخ المزروعى مع أحد ضباط البحرية الهندية الكابتن وليم اوين اتفاقية حماية ^(١) وكان الذى دفع ذلك الضابط الى توقيع هذه الاتفاقية من غير استئذان حكومته هو ادراكه بأن هذه الاتفاقية ستكون مفيدة لتثبيت دعائم النفوذ الانجليزى وقمع تجارة الرقيق ومواجهة النفوذ الفرنسى فى شرق افريقيا •

ولكن حكومة الهند ، مراعاة ل صداقتها للسيد سعيد أسرع باصدار أوامرها الى الكابتن اوين بالانسحاب من ممبسة وقد تم ذلك بالفعل فى عام ١٨٢٦ ^(٢) •

ولا شك أن سقوط الحماية البريطانية فى ممبسة دفعت السيد سعيد الى السيطرة عليها غفى ديسمبر من عام ١٨٢٩ قام بحملته الأولى

(١) Coupland : East Africa and its Invaders, p. 260. See also selectinos from the Records of Bombay Government. Vol. XXIV, p. 191, Bombay 1856.

(٢) Coupland : The exploitation of East Africa, p. 9.

على شرق افريقيا ولكن صد عن ممبسة وتكبد خسائر فادحة (١) بيد
أنه استطاع في حملته الثانية في عام ١٨٣٢ أن يستولى على ممبسة وبدأ
بعد جزيرة زنجبار كي تكون قسبة حكمه في شرق افريقيا .

ولكن مالبث أن انتهر المزروعين فرصة تروده للاقامة بين مسقط
وزنجبار وعودته الى عمان حتى تمكنوا من استرداد زعامتهم على ممبسة (٢) .
وقد حاول السيد سعيد أن ينفس عن طاقته في شرق افريقيا بمشروعه للزواج
من ملكة مدغشقر . وكان زوجها ملك الجزيرة قد مات واعتكلت ارملة
الملكة راغا غولوتا ماتجاكا أريكة الحكم ولكن الملكة اعتذرت عن عدم
الزواج بتقاليد بلادها التي لاتجيز زواج الملكة الارملة ولكنها تقبلت
هدايا ورسائله الرقيقة التي بعث بها اليها وعرضت عليه أن تزوجه احدى
الأميرات اليافاعات (٣) .

كذلك حاول السيد سعيد أن يستعين بالولايات المتحدة الامريكية
لانتراع موزمبيق من البرتغاليين على أن تمدد بقوات لاستعادة ممبسة
من آل المزروعى وقد ظهر ذلك خلال المفاوضات التي دارت بينه وبين
ادموند روبرتس ممثل الولايات المتحدة الامريكية لعقد معاهدة ١٨٣٣ .

ولكن الحكومة الأمريكية لم تر من مصلحتها تنفيذ تلك المغامرات ورأت
الاكتفاء بتوثيق العلاقات الاقتصادية مع سلطنة مسقط وخاصة القسم
الافريقى منها (٤) .

(١) ج . ج . لوريير — المصدر السابق ج ٢ ص ٧٠٣ انظر ايضا
Guillain : Relation du voyage d'Exploration a la Cote Orientale
d'Afrique Tome I, p. 193, Paris, 1856.

(٢) ج . ج . لوريير — المصدر السابق ج ٢ ص ٧٠٣ .

(٣) سلمى رويت : مذكرات أميرة عربية ص ٣٠ — انظر ايضا .
Lyne : op. cit. pp. 29-30.

(٤) Coupland : East Africa and its Invaders, p. 281.

على أنه يكون تحليل عدم نجاح السيد سعيد في توجيه ضربة قاصمة الى آل المزروعى في ممبسة انما يرجع الى موقف الحكومة البريطانية التى كانت تقف الى جانبهم خوفا من التجاؤم الى فرنسا ويتضح ذلك فى فشل المحاولات التى كان يوجهها السيد سعيد ضدهم بل وأكثر من ذلك فان السيد سعيد كان مضطرا الى التحفظ فى عداؤه معهم وكان ذلك بطلب من الحكومة البريطانية •

على أن الصراعات الداخلية فى الأسرة المزروعية هى التى عجلت بفقدان نفوذهم ^(١) اذ أن السيد سعيد استغل التصدع الداخلى الذى كانت تواجهه الأسرة بارسال حملة فى عام ١٨٣٦ تمكن بواسطتها من الاستيلاء على قلعة المدينة العاتية •

وقد ساعدته فى هذه الحملة قبائل بنى على القاطنة على الساحل العماني بزعامة عيسى بنى طريف وقد تأكدت السيطرة العمانية على ممبسة بعد ذلك بثلاثة سنوات ١٨٣٩ م وتشنت زعماء الأسرة فى مقاطعات الشرق الاغريقى •

وقد ذكر المبشر الألماني لويس كرايف أنه فى أثناء تجواله فى مقاطعات الشرق الاغريقى عام ١٨٤٣ قابل بعض زعماء المزروعى وحاولوا استغلاله فى الوساطه بينهم وبين السيد سعيد ولكن كرايف اعتذر عن عدم القيام بهذه المهمة مؤكدا أن الغرض من بعثته غرض دينى لا شأن له بتلك الأمور السياسية ^(٢) •

كان نجاح السيد سعيد فى السيطرة على ممبسة يعد عاملا هاما من

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ص ٢٠٥ .
Krapf, Travels, Researches and Missionary Labours during (٢)
an eighteen years residence in East Africa, pp. 536-567. See also Pank-
hurst, E. Sylvia. Ex Italian Somaliland, p. 16, London 1951.

عوامل الاستقرار في الشرق الاغريقي ولعل ذلك الاستقرار كان من أهم الدوافع التي دفعته للإقامة الدائمة هناك وكان قد سبق له أن اتخذ جزيرة زنجبار عاصمة لحكمه وإذا به يتجه الى قضاء معظم أوقاته فيها •

ولكن لا يعنى ذلك أن السيد سعيد قد أهمل شئون ممتلكاته في عمان أو الجزيرة العربية إذ أن وجوده في زنجبار لم يكن يمنعه من التردد على القسم الآسيوى من ممتلكاته لتفقد أوضاعه • وقد أورد كثير من الباحثين العديد من الدوافع التي دفعت السيد سعيد الى الاستقرار في جزيرة زنجبار واتخاذها عاصمة لحكمه •

وقد أكد بيرس بصدد ذلك على الدافع السياسى الذى كان يكمن في المعاناة التي كان يتعرض لها السيد سعيد في عمان من قبل السعوديين والقواسم مما جعله يلجأ الى تلك الجزيرة الواقعة في المحيط الهندي على بعد كبير من ممتلكاته في عمان لكي يبتعد عن المؤامرات والثورات (١) •

أما كوبلاند وهو أحد الباحثين الثقة في تاريخ شرق افريقيا غقد أكد على الدوافع الاقتصادية باعتبارها من أقوى الدوافع التي دفعت السيد سعيد الى احداث ذلك الانتقال ، وقد ذكر بصدد ذلك أنه لما كانت التجارة هي الشغل الشاغل للسيد سعيد فلم يكن هناك مكان آخر في ممتلكاته أكثر ملائمة لتنفيذ سياسته الاقتصادية من زنجبار كما تكمن الدوافع الاقتصادية أيضا في جاذبية زنجبار الطبيعية اذا ما قورنت بمسقط التي تعتبر من أشد جهات الأرض حرارة خلال أربعة أو أكثر من الشهور في السنة والى أهمية زنجبار التجارية بما تتمتع به من موان صالحه لرسو السفن وتسهيل عمليات النقل والتبادل التجارية •

ولاشك أن موقعها في الشرق الافريقي جعلها مركزا وسيطا للتجارة والتبادل لمعظم مقاطعات الشرق الافريقي (١) .

ومما لاشك فيه أن العامل الاقتصادي هو الذي يعلل لنا ما يثيره بعض الباحثين من تساؤلات عن الأسباب التي جعلت السيد سعيد يختار جزيرة زنجبار لتكون عاصمة لدولته رغم أنه كانت هناك عدة مدن غير زنجبار كمبسة وكوة ومقديشو ولامو وغيرها وكل مدينة من تلك المدن كانت تنافس زنجبار في ثروتها وفي تاريخها وعلى الأخص مدينة كوة التي عرف أنها كانت العاصمة لمئات السنين للدول الفارسية والعربية التي تعاقبت على الشرق الافريقي (٢) .

وهناك من الباحثين من يعتقد أن السيد سعيد اختار جزيرة زنجبار لطيب هوائها وبما فيها من المزارع والبساتين حيث ملأها بمزارع الجوز وقصب السكر والتارجيل والقرنفل وقصدها التجار من كل حذب وحوب .

والواقع أنه لولا غراسة السيد سعيد وصدق أمله لما استطاع المرء أن يتصور بأن جزيرة صغيرة مثل زنجبار التي لم تكن وقتئذ الا جزيرة تكتنفها الزناجل وتحيط بها الحشائش ويحتقرها كل من مر عليها ستكون لاثقة لتكون عاصمة للسلطنة .

وقد انتقل السيد سعيد الى جزيرة زنجبار وانتقل معه مئات من العرب وقد رافقه التوفيق فعمت التجارة واتسع نطاقها الى حد لم يعرف

D'Avezac : Ile de l'Afrique Troisieme Partie, p. 141. (١)

See also Coupland : East Africa and its Invaders, p. 295.

Mona McMillan : Introducing East Africa, p. 162, London 1945.

Chappnis, F : Visite a l'Imam de Mascate an Zangular (٢)

(Extrait de memoires de la société de geographie de Geneva 1860.

له نظير من قبل وتضاعف الدخل عشرات المرات وتحولت زنجبار من قرية صغيرة الى أعظم ميناء في الاطراف الغربية من المحيط الهندي كما أصبحت المستودع الرئيسى للتجارة الأفريقية الآسيوية بصفة عامة .

وهكذا تبدل حال زنجبار من قرية صغيرة كانت تعيش على صيد الأسماك في بداية القرن الثامن عشر أو كما وصفها بيسل في نهاية القرن الثامن عشر عندما كانت لا تشتمل سوى على عدد قليل من الاكواخ الى تلك المكانة التي وصلت اليها على عهد السيد سعيد (١) .

ويتضح من تقارير اتكنز همرتون القنصل البريطانى في زنجبار أن السكان ازدادوا فيها بانتقال السيد سعيد اليها ويقول كوبلاند بمصد ذلك أنه من خلال عشرين عاما قضاه السيد سعيد في زنجبار استطاع أن يجعل منها واحدة من ثلاث أو أربع مراكز رئيسية للتجارة في المياه العربية في المحيط الهندي .

والواقع أن زنجبار لم تصل الى تلك الشهرة الا بعد وفود العرب العمانيين عليها على عهد السيد سعيد كما أن عمارة زنجبار من قصور ومساجد كانت أيضا عمارة العرب العمانيين حيث امتلأت الجزيرة بسكنى العرب والهنود (٢) .

وقد عرفت زنجبار ببستان شرق افريقيا لجمال منظر اريافها التي هي مدورة بشجر القرنفل والنارجيل والبرتقال ويرى المتجول في اريافها كأنه يتنزه في بستان جميل المنظر تتدفق المياه العذبة في جميع

(١) Lyne : op. cit. p. 4.

(٢) جبهة الاخبار في تاريخ زنجبار ص ٢٠ — ٢٢ .

أرجائها ومن أهم القبائل العربية التي هاجرت من عمان إليها في زمن السيد سعيد قبيلة الحرث التي عمرت زنجبار ببطونها وأغفادها^(١) .

وفي جزيرة زنجبار حرص السيد سعيد على زراعة القرنفل حيث أصدر منشورا الى كافة رعاياه في زنجبار والجزيرة الخضراء بأنه يستلزم من كل صاحب مزرعة أن يزرع فيها ثلاث قورات من القرنفل بدل كل شجرة نارجيل^(٢) .

ويقال أن زراعة القرنفل أدخلت الى زنجبار بواسطة رجل من كبار ملاك العرب نفاه السيد سعيد خارج الجزيرة لأمر خالفه فيه ولكن لم يلبث أن عاد ومعه بذور القرنفل لكي يستسمح بها مولاه فصفح عنه وبدأت تلك الزراعة في زنجبار والمعروف أن العرب نقلوا تلك الزراعة من جزيرة موريس ولعل الفرنسيين كانوا هم أول من أدخلوها الى تلك الجزيرة في أواخر القرن الثامن عشر^(٣) .

والهم أن زراعة القرنفل نجحت نجاحا كبيرا في جزيرة ممبا وجزيرة زنجبار حتى أن هاتين الجزيرتين لاتزالان حتى الآن تمدان العالم بالقسط الأعظم من استهلاكه من القرنفل حيث يبلغ مقدار ما ينتجانه ٩٠ ٪ من الانتاجي العالمي^(٤) .

(١) المرجع السابق ص ١٨ — ١٩ .

(٢) جبهة الاخبار في تاريخ زنجبار ص ١٥٥ .

Rudolf Said Ruete, op. cit. pp. 73-74. (٣)
See also Coupland : East Africa and its Invaders, p. 303.

Coupland : Exploitation of East Africa, p. 4. (٤)
See also Pearce : op. cit. p. 122.
Coupland : Exploitation of East Africa, p. 4 .

النظام الادارى

وكانت نظم الحكم التى اتبعت فى زنجبار لاتختلف كثيرا عما كان متبعاً فى البلاد العمانية من حيث بساطة الأنظمة الادارية •

فقد تميزت الادارة فى شرق افريقيا بالبساطة وعدم التعقيد بسبب أن التجارة كانت هى الطابع المميز للامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا وبالتالى فان الاتجاه الى وضع الأنظمة الادارية أو الاقتصادية فى تلك الامبراطورية كان يستهدف فى الدرجة الأولى الحرص التام على انعاش الناحية الاقتصادية ويتضح ذلك فى تبسيط نظام الضرائب وجعله مطابقا للنظام الجمركى الذى كان معمولاً به فى مسقط حيث كانت الضريبة المفروضة على الواردات التى تأتى الى الموانى الافريقية لاتتجاوز ٥ ٪ من قيمتها فى حين أعفيت الصادرات تماما من الضرائب •

وقد عنيت السلطة العربية فى زنجبار بتشجيع تجارة القوافل العربية التى كانت تمر فى داخلية القارة وكان الهدف من ذلك الحصول على موارد كافية من العاج وغير العاج^(١) • ولتسهيل عمليات التجارة والتبادل التجارى وضعت السلطنة العربية نظاما جديدا للنقد اذ كان النقد المتداول فى زنجبار الريالات النمساوية والامانية والاسبانية • وقد أدخل بدلا منها نظام نقدى بسيط حل تدريجيا محل تلك العملات الاجنبية ولم يكد ينتهى عصر السيد سعيد حتى اختفت تماما تلك العملات وحل محلها النظام النقدى الجديد الذى يتمثل فى الروبية وهى عملة صغيرة أدخلت من الهند^(٢) •

(١) Coupland : East Africa and its Invaders, p. 304.

(٢) تعادل الروبية ١/١٢ من الجنيه الاسترلىنى •

أما في النظام القضائي فكان هو الآخر على درجة كبيرة من البساطة فالقرآن الكريم هو مصدر الاحكام ومراجعتها وكان السيد سعيد يحكم في القضايا الكبرى بنفسه أما القضايا الأقل أهمية أو خطورة فكان يتركها لابنه الأكبر خالد أو لحاكم مدينة زنبار بينما تركت القضايا العادية للقضاة الذين كان يتم تعيينهم في الاقاليم والمقاطعات المختلفة في البلاد لفض ما يحدث من نزاع بين الرعايا ^(١) وكان السيد سعيد يميل الى الرفق والأخذ باللين في معاملته لأهالي البلاد كما كان يعامل زعماء الأسر التي قضى عليها في شرق افريقيا كالزروعين بالاحترام فابقى لهم الزعامة على جماعتهم كما أبقي العوائد التي كانوا يتعاملون بها فيما بينهم ^(٢) .

ولعل أهم ما تميزت به السلطنة العربية في زنبار من عدم التعصب للجنس والأديان فجميع الأجناس النازلة في زنبار من غير الجنس العربي عاملهم حكام السلطنة بغاية الاحترام ومهما تصفحنا تاريخ زنبار لا نجد فرقا بين العرب وسائر الأجناس ^(٣) .

كذلك حرص السيد سعيد على اشراك الوطنيين في الحكم فكان يعين في كل مقاطعة حاكما محليا من أهل البلاد يدين له بالتبعية والولاء وان كنا نراه احيانا يفقد ثقته بالحكام المحليين ويستعيز عنهم بأعوان له من مسقط أو زنبار يكونون بمثابة حكام تابعين له وكان يمدهم بحامية من الجند تكون بمثابة نواة يحرص الحاكم المعين على تنمية قوتها بنفسه وبشكل يحفظ له هيئته كما يحفظ للسلطان نفوذه .

وقد استمر الحكم في زنبار سائرا على طريقته التقليدية اذ

(١) Guiffain : op. cit. Tome I, p. 239.

(٢) جبهة الاخبار في تاريخ زنبار ص ١٥٠ .

(٣) جبهة الاخبار في تاريخ زنبار ص ١٦٦ .

لم يكن اولئك الحكام يفعلون أكثر من جمع الضرائب المقررة التي كان يرغبها السيد سعيد على التجارة وتسليمها اليه وهذا هو كل ما كان يطلبه السيد سعيد من حكام تلك المقاطعات^(١) .

والجدير بالذكر أن السيد سعيد لم يكن يهتم بوضع حاميات قوية في مقاطعات الشرق الإفريقي ولعل تحقيق الأهداف الاقتصادية التي كان يرمى اليها من وراء ممتلكاته هذه ورغبته في حفظ الأمن والنظام في ربوعها هو الذي نأى بحكمه عن الثورات أو المنازعات الى حد كبير .

ونستطيع أن نتبين من سجلات الرحالة الذين زاروا مقاطعات الشرق الإفريقي بأن جزيرة زنجبار كادت تكون خلوا من الحاميات العسكرية باستثناء قوات صغيرة من الدرك تعمل على حفظ النظام واستتبابه^(٢) بينما لم تعدد القوات التي أبقاها السيد سعيد في شرق إفريقيا أربعمئة شخص حسب تقدير بيرتون في عام ١٨٤٦ موزعين على أهم مقاطعات الشرق الإفريقي كزنجبار وممبسة ولامو ويات^(٣) .

ويذكر جيان بدوره قلة الجنود المعينين من قبل السلطان ولكنه يضيف الى ذلك وجود بعض الأفراد المسلحين والمدربين الذين كانوا يعينون من قبل الرؤساء والحكام المحليين وكانوا يقومون بمهام السلطة التنفيذية وحفظ الأمن ويمكن أن نضيف الى تلك القوات الحامية الخاصة بالسلطان والتي كان يتكون أفرادها عادة من البلوش والمغاربة وكانوا يتقاضون مرتبات وجرايات بسيطة لاتتجاوز بضعة قروش وبضع

Chappnis, op. cit. p. 385. (١)

Coupland : East Africa and its Invaders, p. 329. (٢)

Burton, R : Zanzibar, City, Island and Coast, Vol. 1. p. (٣)

265, London 1872.

عبوات من الأرز والتمر^(١) .

وقد شيد السيد سعيد لنفسه قصرين أحدهما في زنجبار ويسمى بيت الساحل وكان يشتمل على مجموعة غير قليلة من القصور الصغيرة التي كان يشغلها أبناؤه وأعضاء بلاطه وحاشيته أما القصر الثانى فكان أقدم من بيت الساحل وكان بمثابة المقر الرسمى للسيد سعيد وقد بناء فى متونى وهى ضاحية صغيرة تبعد ثلاثة أميال شمالى زنجبار وكان هذا القصر بمثابة مكانه المفضل اذ كان يقيم فيه غالبية الأيام^(٢) .

وقد تزوج السيد سعيد عدة مرات ولعل من أشهر زوجاته ابنة عمه موزة بنت الامام ، ثم زوجته الفارسية ابنة اريش ميرزا وحفيدة شاه الفرس فتح على شاة وقد أخذها الى زنجبار فى عام ١٨٤٩ وبنى لها الحمامات على الطراز الفارسى بيد أنها كانت مكروهة من الاهالى وفيما يقال انها اغاظت العرب العمانيين بسبب غطرتها وكبرائها^(٣) .

Guillian : Relation du voyage d'Exploration a'la Cote (١)
Orientale de l'Afrique, Tome I, p. 238.

Coupland : East Africa and its Invaders, p. 303. (٢)

(٣) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ص ٢٣٢ .

السياسة الاقتصادية

لعل المجال الاقتصادي كان أهم ما يميز الامبراطورية العمانية في شرق إفريقيا ، وقد عرف عن السيد سعيد شغفه الشديد بالتجارة وحبه لممارستها من ذلك أنه كان يقوم بالاشتغال بها لحسابه الخاص ، وقد أثر عنه قوله اننى تاجر قبل أن أكون سلطانا ، وكان يستخدم أسطوله الخاص في نقل البضائع ومن آونة وأخرى . وكانت بريطانيا وفرنسا تستقبلان في موانئهما حمولات من البضائع الإفريقية التى حملتها اليهما سفنه .

وقد فتح السيد سعيد بلاده للدول الأجنبية للمشاركة الاقتصادية كما يفهم ذلك من المعاهدات التى عقدها مع الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وغيرها . وظهرت كثيرا من القنصليات الأجنبية في زنجبار كذلك سمح لبعض الولايات الألمانية المشتركة في اتحاد الهنسا بالاشتغال بالتجارة في بلاده على الرغم من أنه لم تعقد معاهدات بين زنجبار واتحاد الهنسا الا بعد وفاته في عام ١٨٥٦ (١) .

وعلى الرغم من أن السيد سعيد كان يؤمن بحرية التجارة الا أن سياسته الاقتصادية شهدت بعض الاحتكارات التى كان يقوم بها لضمان مركزه الاقتصادي فقد حرم على طول الساحل الممتد من مصب نهر البانجانى حتى كلوة تصدير العاج والمطاط تحت أى علم خلاف علم مسقط وان كنا لانجد احتكارات أخرى باستثناء هاتين السلعتين (٢) .

وقد حرص السيد سعيد عند انتقاله الى زنجبار أن يأخذ معه التجار الهنود من طوائف الباتيان الذين كانوا يسهمون بنشاط وافر في عمليات التجارة في مسقط (٣) .

Chappnis, op. cit. p. 350. (١)

Coupland : East Africa and its Invaders, pp. 302-303. (٢)

D'Avezac, op. cit. p. 14 (٣)

وقد شجع الهنود على الهجرة الى زنجبار لتسامح السيد سعيد ومعاملته الطيبة وتركه الحرية الدينية ومنح الهنود ما كانوا يتوقون اليه من مكانة في المجال الاقتصادي ولا يعنى بذلك منحهم امتيازات تجارية لأنه كان يؤمن كما ذكرنا ايماننا راسخا بحرية التجارة وانما بتركه مجال التجارة حرا مما أفسح المجال لنشاطهم حتى أصبح الهنود يكونون الطبقة الرئيسية من بين المشتغلين بالتجارة في زنجبار ^(١) .

ولعل نجاح الهنود في المجال التجارى هو الذى دفع السيد سعيد للاستعانة بهم واستخدام الاكفاء منهم في أعمال الاقتصاد والادارة ^(٢) وحسب تقدير بيرتون كانت أربعة أخماس التجارة الخارجية في أيدي الهنود ^(٣) ويمضى الزمن كثر عددهم وتعاضل نفوذهم الاقتصادي وأخذوا يستولون من العرب تدريجيا على ممتلكاتهم عن طريق الرهن أو الشراء .

وبينما كان نشاط الهنود يقتصر على الساحل توغل العرب الذين وفدوا مع السيد سعيد في المناطق الداخلية التي لم يكن قد ارتادها أحد من قبل واستقر كثير منهم في تلك المناطق واسسوا المراكز التجارية التي جاهدوا في تقويتها ومن ثم أصبحت تلك المراكز تشع بعضا من السيطرة والنفوذ للسلطان حتى لقد اشتهر المثل السواحلي القائل عندما يلعب أحد على الزمار في زنجبار يرقص الناس طربا على البحيرات ^(٤) .

ومما لا شك فيه أن الازدهار الذى عاشته السلطنة العربية على عهد السيد سعيد قد أعان في نواح كثيرة على اكتشاف العرب لجاهل القارة الافريقية اذ أن الروايات التي كان يتناقلها أولئك التجار

Chappnis, op. cit. p. 350 (١)

Burton, op. cit. pp. 315-317. (٢)

Pearce : op. cit. p. 113. (٣)

Coupland : East Africa & its Invaders, p. 342. (٤)

العرب عن منطقة البحيرات الاستوائية وعن الجبال ذات القمم الثلجية
قد أثارت انتباه العالم العربى بالنسبة لأفريقيا •

ولما كان العرب تجاراً بطبيعتهم فقد حرصوا على إقامة المراكز
التجارية وبمرور الزمن نمت هذه المراكز وأصبح رؤساؤها بمثابة حكام
صغار تحت سيادة سلطان زنجبار •

ومع ذلك لكانه فى خلال بضع سنوات من وصول السيد سعيد
الى زنجبار كان حلمه فى انشاء امبراطورية افريقية تمتد من محيط الى
محيط على مشارف التحقيق فكل الساحل الشرقى الافريقى الممتد
من رأس غردفون شمالا الى خليج دلجادو جنوبا كان يعترف بسيادة
السلطان وبدا واضحا أن جزيرة زنجبار ستكون عاصمة لهذه
الامبراطورية التى أخذت تمتد امتدادا كبيرا فى الداخل مرتبطة بسلسلة
من المحطات والمراكز التى كانت تمر بها قوافل التجارة وقد حرص
الافريقيون انفسهم على ابقاء تلك الروابط قائمة بينهم وبين السلطنة
العربية فى زنجبار •

وقد ترتب على استمرار الاتصال بين الساحل والداخل وجود
أقليات عربية كبيرة العدد فى الكونغو وتنجانيقا ونياسلاند ، والجدير
بالذكر أن الوجود العربى استمر قائما حتى بعد انحصار نفوذ
السلطنة العربية واقتصارها على الساحل اذ استمرت الكيانات العربية
فى الداخل تعترف بالسيادة لسلطان زنجبار رغم خضوعها للتقسيمات
الاستعمارية وخضوعها لدول استعمارية أجنبية كالمانيا وايطاليا وفرنسا
وبريطانيا وغيرها حتى أن سلطان زنجبار قد استغل من قبل بريطانيا خلال
الحرب العالمية الأولى للتأثير على العرب والمسلمين فى شرق ووسط افريقيا
للإبقاء على ولائهم لبريطانيا التى كانت قد مدت سيطرتها على معظم
هذه المناطق •

ولعل ذلك يدفعنا الى التأكيد هنا أنه لو كانت السلطنة العربية في زنجبار قد اتجهت الى دعم سيطرتها الاقتصادية على المقاطعات الافريقية بسيطرة ادارية وعسكرية لكان من الممكن قيام امبراطورية على اسس ثابتة بيد أن الرباط الذى يربط السلطنة بالداخل كان يعتمد فى الدرجة الأولى على قوة شخصية السيد سعيد فلما انهارت تلك الشخصية بوفاته انهارت امبراطوريته معه .

ويعنى ذلك أن سيطرة السيد سعيد على ممتلكاته فى شرق افريقيا لم تكن سيطرة حاسمة وكان ذلك مما دفع الدول الاستعمارية لى تنفيذ من خلال تلك السيطرة الواهية ويمكننا أن نتفهم ضعف السيطرة العسكرية اذا مارجعنا الى التقارير التى كان يكتبها همرتون — القنصل البريطانى فى زنجبار — الى حكومته حيث كان يؤكد فى تلك التقارير ضعف سيطرة السيد سعيد على ممتلكاته فى شرق افريقيا بحيث لم تكن له سوى سيادة 'سمية على الساحل' .

وقد سبق أن أشرنا الى أن السيد سعيد حاول الامتداد بسيطرته جنوبا حيث مدغشقر وموزمبيق ولكنه اخفق بسبب تواجد كل من النفوذ الفرنسى والبرتغالى على أنه كان أكثر توفيقا فى مد سيطرته نحو الشمال ففى عام ١٨٤٠ نجح فى اخضاع موانئ الصومال لنظامه الاقتصادى كما نجح فى اخضاع مقديشيو وامتد بسيطرته صوب براوه ، وان كان قد فشل فى الاحتفاظ بها طويلا ^(١) .

وعلى الرغم من تلك الجهود الا أنه لم تكن هناك فى حقيقة الأمر سيطرة فعلية على الشرق الافريقى فالواقع أن سلاطنة عمان لم يعتمدوا على الضغط أو القوة العسكرية لاختضاع الشرق الافريقى الى سيطرتهم

وانما اعتمدوا على المصالح والمنافع الاقتصادية المشتركة في تأكيد نفوذهم على زنجبار وغيرها من مقاطعات الشرق الافريقي ، أى أن سلطنة عمان لم يحرصوا على السيطرة السياسية أو العسكرية بقدر ما حرصوا على تحقيق الأهداف الاقتصادية والحضارية .

ومما يؤكد ذلك أنه على الرغم من حدوث ثورات في الشرق الافريقي تنزع الى الانفصال الا أن حكام السلطنة العربية لم يلجأوا الى قمعها بالقوة العسكرية خوفا لما قد يؤدي اليه ذلك من اعاقلة التجارة التي كانوا يحرصون عليها كل الحرص وبالتالي عمل أولئك الحكام على معالجة مشاكلهم الأفريقية بالطرق السلمية بهدف ضمان استقرار المعاملات الاقتصادية وازدهارها سواء في المقاطعات الداخلية أو الساحلية ولعل ذلك يدفع بنا الى أن نقرر في هذا المجال أن عمان نجحت في روابطها الاقتصادية والحضارية بالشرق الافريقي أكثر من نجاحها في السيطرة السياسية أو العسكرية (١) .

فئات السكان في زنجبار

شكل العرب قسما هاما من فئات السكان في زنجبار وعلى الرغم من أن عرب عمان كانوا هم الذين يشكلون الطبقة الارستقراطية الحاكمة الا أن ذلك لم يمنع من لجوء عرب من مناطق أخرى للإقامة في زنجبار وغيرها من المناطق بمقاطعات الشرق الافريقي .

وقد برز من أولئك العرب عرب جزر القمر والحضارمة الذين ولى كثير منهم ولاية القضاء في زنجبار ومنهم من ولى أمور الجمارك كما

(١) جمال زكريا قاسم — دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

استعانت بهم السلطنة العربية في أعمال الجندية بالإضافة الى ماكانوا يقومون به من معاملات تجارية صغيرة فضلا عن اشتغالهم ببعض الصناعات اليدوية البسيطة .

وكان الحضارمة يعيشون في احياء خاصة بهم في زنجبار ويكونون قسما متمايزا من السكان العرب كما كانوا يتميزون بشعائهم الدينية اذ كانوا يختلفون عن عرب عمان الاباضية من حيث اعتناقهم لمذهب السنة .

أما عرب جزر القمر فكان عددهم قليلا على عكس عرب الساحل الذين استقروا في جزر وسواحل شرق افريقيا قبل تأسيس السلطنة في زنجبار كما ينبغى الاشارة أيضا الى عرب عمان وهم الذين تولفدوا مع السيد سعيد ^(١) وشكلوا الطبقة الحاكمة في زنجبار .

والى جانب فئات العرب استعانت السلطنة العربية بطوائف من الفرس والبلوش بالإضافة الى الهنود بطوائفهم وفئاتهم المختلفة اذ كانت توجد طوائف وجماعات من الهنود تنتمى الى طائفتى البهرة والاسماعيلية ^(٢) .

وعلى عهد السلطنة العربية في زنجبار تزايد عدد السكان تزايداً كبيراً ويمكننا أن نثبتين الزيادة الواضحة في اعدادهم خلال عهد السيد سعيد من مطالعتنا لدراسة كرايف الذى قدر تعدادهم بمائة ألف نسمة ذكر أن معظمهم يعيش في العاصمة نفسها ^(٣) . أما بعد وفاة السيد سعيد فقد تناقص السكان تناقصاً ملحوظاً حيث قدر بيرس تعدادهم بخمسة وعشرين ألف نسمة ^(٤) .

Pearce, op. cit. pp. 215-218. (١)

(٢) جبهة الاخبار في تاريخ زنجبار ص ١٦٥ .

Krapt, op. cit. p. 124. (٣)

Pearce, op. cit. p. 190. (٤)

والجدير بالذكر أن عدد السكان في زنجبار كان يتأثر تأثراً كبيراً بموسم هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية حيث تصبح الجزيرة مملوءة بالعرب الذين كانوا يقدون من عمان وغيرها من موانئ الخليج والجزيرة العربية وكان يستتبع ذلك انتعاش الحركة التجارية وتصبح زنجبار في موسم رائج من الحياة والمعاملات^(١) .

وكما سبق أن اشرنا كان العرب هم الذين يكونون الطبقة الارستقراطية في زنجبار اذ كانت تقع في أيديهم ملكية أكثر الأراضى وفيما يبدو أن السيد سعيد قد حرص على أن يكون للعرب ذلك المركز الممتاز اذ تعهد بأن يأخذ معه عند انتقاله الى زنجبار اغنياء العرب وأثريائهم . ومع ذلك فلم تكن زنجبار مقصورة في سكانها على العرب ولكن كانت بحكم موقعها تعد ملتقى الشعوب من ثلاث قارات وشكل سكانها بذلك خليطاً من العناصر الأفريقية الآسيوية^(٢) مع التسليم بقلّة عدد العناصر الأوروبية والأرمنية بسبب الظروف المناخية القاسية^(٣) .

وعلى الرغم من أن العرب كانوا يتوالدون بكثرة من عمان وسواحل الجزيرة العربية بغرض التجارة أو الإقامة وامتلاك الأراضى الا أنه كما هو معهود في المجتمعات الإسلامية لم يكن هناك فصل أو عزل جنسى بين العناصر المختلفة ومن ثم لم يستطع العرب أن يحتفظوا طويلاً بنقائهم الجنسى ولكن ذلك لا يمنع من أن العرب قد أسهموا بدور كبير في نقل المؤثرات الحضارية الى سواحل القارة الشرقية ودواخلها وكانوا عماد دولة عربية أفريقية كانت تعد من أكبر الدول المحلية التي عرفتها الاجزاء العربية من المحيط الهندي في تاريخنا الحديث^(٤) .

Ibid, p. 190. (١)

Burton, op. cit. vol. 1, pp. 312-313. (٢)

Chkappnis, op. cit. p. 350. (٣)

Pearce, op. cit. pp. 117-120. (٤)

وإذا كان من السهولة تحديد ممتلكات عمان الساحلية في شرق إفريقيا من رأس غردفون شمالا حتى خليج دلجادو جنوبا فإنه من الصعب تحديد السيطرة الداخلية لأن هذه السيطرة كانت تعتمد في الدرجة الأولى على الأسس الاقتصادية التي لا تعترف بالفواصل السياسية طالما كانت عمليات التبادل التجاري قائمة والقوافل التجارية تسير من مكان الى آخر .

ولم يكن يحمي نفوذ السلطنة العربية في الداخل سوى محطات أو مراكز تجارية أنشئت خصيصا لتسهيل عمليات التبادل التجاري أو استراحات للقوافل التجارية وامتدت الى ما استطاعت أن تصل اليه من اصقاع كبحيرات بناسا وتنجانيقا وغيكورتوريا وبعض المناطق الأخرى في أعالي الكونغو^(١) .

وكان المغامرون من التجار يذهبون في مغامراتهم بحثا وراء السلع التي يريدونها الى تلك المناطق وسط الغابات الكثيفة وفي ظروف مناخية وطبيعية شاقة .

وإذا عرفنا أن الواحدة من تلك الرحلات كانت تستغرق زمنا قد يمتد الى عدة سنوات فقد كان من اللازم أن يقوم هؤلاء المغامرون بتأسيس المحطات والمراكز التجارية التي كانوا يعتمدون عليها في اسفارهم وعلى هذا النحو قامت عدة مستوطنات عربية على طول تلك الخطوط التجارية التي كان يطرقها التجار وكانت تلك المستوطنات تعد امتدادا للسلطنة العربية وانتشار شهرتها في اجزاء كثيرة من القارة الإفريقية

Colomb, R.N., Slave Catching in, the Indian Ocean, (١)
p. 365, London 1870.

وكان يدعم تلك السيطرة أن الطرق التجارية من الساحل حتى الداخل كانت تقع تحت سيطرة عرب عمان ^(١) .

ويمكننا الإشارة في هذا الصدد الى اسرة المراجعة التي كان لها أثر كبير في توطيد النفوذ العربى على مقاطعات الشرق الافريقى كما أنها اشتركت في عمليات المقاومة ضد البرتغاليين في القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم توغلت بعد ذلك في الداخل وكونت أسرة حاكمة في شرق الكونغو بزعامه حميد الدين المرجبى .

وقد استقرت هذه الأسرة واستمرت قائمة حتى قضى عليها الاستعمار البلجيكي في الكونغو على عهد ليوبولد الثانى ملك بلجيكا في عام ١٨٨٥ ^(٢) .

(١) Pearce, op. cit. p. 128.

(٢) انظر بصدد ذلك : الشاطر بصيلى عبد الجليل ومقال عن حميد الدين المرجبى المعروف بتيويتيب ١٨٣٤/١٩٠٥ عدد ١ من مجلة نهضة افريقية — نوفمبر ١٩٥٧ ص ١٠ — ص ٢٠ وكذلك جورجى زيدان : اشهر مشاهير الشرق ج ١ ص ١٦٧ حميد الدين المرجبى نقلا عن الشيخ ناصر بن سليمان اللمكى ولزيد من التفاصيل عن الدولة العربية في الكونغو انظر .

Ruth Slade : King Leopold's Congo, p. 84, London 1962. See also Celeman, La Question Arabe et Congo, p. 31, Brussels, 1959

الدور الحضارى للإمبراطورية العمانية فى شرق افريقيا

ساهمت عمان بدور مباشر وغير مباشر فى تحضير القارة الأفريقية ونقصد بالدور المباشر الدور الذى قام به العمانيون أنفسهم فى نقل المؤثرات العربية والاسلامية والحضارية الى شرق القارة ودواخلها وتم ذلك عن طريق التجارة فى المقام الأول وظهر التأثير العربى العمانى فى انشاء نظام للحكم وبناء المراكز الحضارية على طول طرق القوافل وفى ادخال طرائق مختلفة من الحياة والمعاملات •

وفى عهد السلطنة العربية فى زنجبار وبفضل الأمن الذى حققته نجح العرب فى التوغل فى داخلية القارة حيث أُلِفَ العمانيون السياحات البعيدة ولذلك فمن الانصاف أن نقرر هنا أن العرب العمانيين كانوا أول من اكتشفوا وأواسط القارة وجاسوا خلالها الى حوض نهر الكونغو وهم الذين أخبروا عن البحيرات الاستوائية وعن الحياة المعممة رؤوسها بالثلوج^(١) والمهم أن العمانيين كانوا أول من توغلوا فى داخلية البر الاغريقى واستقروا فى بعض جهاته وعمرى المراكز التجارية وعلى مر الأعوام تعاظم نفوذهم وصاروا رعايا فى هيئة سلاطين تحت سيادة سلطان زنجبار^(٢) •

ومن المؤسف أن الكتاب الأوروبيين تعمدوا اهمال الدور الشجاع الذى قام به العرب فى افريقيا وتلك الجهود التى قام بها العمانيون

(١) تعنى بذلك جبال كينيا وتنجانيقا ونخص بالذكر جبال كليمنجارو •

(٢) جبهة الاخبار فى تاريخ زنجبار ص ١٥٢ •

الذين اخترقوا البر الافريقي يجاهدون الطبيعة بقسوتها والناس بدائيتهم^(١) .

والى جانب الدور المباشر الذى أشرنا اليه ظهر دور آخر غير مباشر اسهمت به الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا وتمثل ذلك الدور فى تسجيع حكام السلطنة العربية للرحالة والمبشرين والمستكشفين الاوروبيين فى عملياتهم التبشيرية والكشفية .

وقد ظهرت بالفعل الكثير من المراكز التبشيرية فى زنجبار وفى غيرها من مقاطعات الشرق الافريقي بدءا من القرن الثامن عشر^(٢) وبرز من رؤساء البعثات التبشيرية فى شرق افريقيا كرايف ورفيقه ريجان وهما مبشران المانيان استقرا فى شرق افريقيا ولقيا الكثير من رعاية السلطنة العربية فى زنجبار وقد اعترف المبشر كرايف فى الكتاب الذى وضعه عن التبشير فى شرق افريقيا^(٣) بمقدار ما منحه له السيد سعيد من رعاية وتسهيلات وكيف كان يبعث معه برسائل للرؤساء التابعين له فى الداخل يطلب فيها منهم أن يعاملوه معاملة طيبة لأنه رجل يعمل على تحويل الوثنيين الى معرفة الله^(٤) .

كذلك ظهرت فى كثير من مقاطعات الشرق الأفريقي مراكز تبشيرية أخرى تابعة لانجلترا وفرنسا ، وكما لقي المبشرون اهتماما من حكام

(١) جبهة الاخبار فى تاريخ زنجبار — المقدمة — وكذلك دكتور جمال زكريا قاسم دور العرب فى كشف افريقية — مجلة عالم الفكر — الكويت — مارس ١٩٧١ .

(٢) Mona McMilan : Introducing East Africa, p. 167.

(٣) CF. Rev. Dr. Lewis Krapf : Travels, Researches and

Missionary Labour during an eighteen years residence in Eastern Africa, London 1860.

Ibid, p. 127. (٤)

السلطنة العربية في زنجبار لقي أيضا ذلك الاهتمام المستكشفون الأوروبيون الذين قاموا برحلاتهم الكشفية في افريقيا معتمدين على المنافذ الساحلية للسلطنة العربية في زنجبار ومسترشدين بما أوجده التجار العمانيون من مراكز تجارية في قلب القارة .

وقد نوه المستكشف البريطاني ريتشارد بيرتون أنه بفضل السيد سعيد نجحت بعثته في الشرق الأفريقي ^(١) كما أكد لفنجستون في عام ١٨٧١ بأنه كان محاطا بالعرب من كل جانب في كثير من المناطق الداخلية التي وصل إليها في شرق أفريقيا ^(٢) . كذلك تعاون حكام السلطنة العربية في زنجبار مع الحكومة البريطانية في الحد من تجارة الرقيق .

ويمكننا تقدير مدى التضحيات المادية التي تكبدتها سلطنة زنجبار من جراء حدها من تجارة الرقيق ثم الغائه فيما بعد اذا ذكرنا أنه بموجب اتفاق السيد سعيد مع بريطانيا تم تحرير جميع الرقيق التابعين للرايا البريطانيين من الهندوس والبانيان وقد أدى ذلك الى تعرض ممتلكات السلطنة فجأة لعمليات من السطو والنهب واخلال بالنظام لعدم تدبير عمل للرقيق المحررين الذين وجدوا أنفسهم فجأة بلا مورد يعتمدون عليه في حياتهم ^(٣) .

ومما يجدر التنويه به بصدد ذلك بأن السيد سعيد كان بحق حاكما انسانيا فلم يكن تحديده لتجارة الرقيق مجرد استجابة منه لضغوط بريطانية وانما بسبب ايمانه المطلق بوجوب القضاء على الرق وعهده .

(١) Burton, op. cit. vol. I, p. 34.

(٢) The Iast Journal of David Livingstone in Central Africa from 1865 to his death 2, Vols. London 1880.

(٣) سلمى بنت سعيد : مذكرات اميرة عربية ص ٣٤٨ .

ومما تجدر الاشارة اليه أيضا أن السيد سعيد وافق بموجب ملحق اضيف الى المعاهدة المبرمة بينه وبين بريطانيا في عام ١٨٣٩ على توسيع مساحة المنطقة التي كان يسمح فيها للسفن البريطانية بتفتيش ومصادرة السفن العمانية التي تشتغل بتجارة الرقيق .

وفي معاهدة ١٨٤٥ تعهد بأن يمنع تحت أشد العقوبات تصدير الرقيق من ممتلكاته الافريقية الى ممتلكاته الآسيوية بل لقد ذهب توكيدا لحدنى نواياه بأن ضمن للاتجليز حق مصادرة السفن حتى ولو كانت سفنه الخاصة اذا ما اشتبه في أنها تحمل رقيقا من المقاطعات الافريقية .

ومن الطريف أن نشير أيضا الى ان السيد سعيد رفض عن اباء وشمم أن يأخذ أية تعويضات مادية من بريطانيا مقابل تعاونه معها في الحد من تجارة الرقيق ولذلك رشحته الحكومة البريطانية ليكون عضو شرف في الجمعية الآسيوية الملكية في لندن Royal Asiatic Society

اعترافا منها بوقوفه معها في الغاء تجارة الرقيق في شرق افريقيا وتقديرا للجهود البناءة التي كان يبذلها لادخال الحضارة وتقدم العلوم في بلاده وليس من شك في أن ذلك أظهر اسمه في المجتمع الدولي الاوروبى (١) .

العلاقات الدولية

لعل أبرز ما كان يميز الامبراطورية العمانية في شرق إفريقيا هو افتتاحها على العالم الخارجى حيث عقد حكام الامبراطورية عدة معاهدات مع كثير من الدول الأجنبية •

وقد استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تتنافس غيرها من الدول الأجنبية في التجارة مع زنجبار ، ويعد النشاط الأمريكى في سلطنة زنجبار من الارهاصات الأولى للعلاقات العربية الأمريكية بصفة عامة ، وقد تميزت العلاقات بين السلطنة العربية والولايات المتحدة الأمريكية بالود والصدقة •

ويعود الفضل في بدء هذه العلاقات الى أحد التجار الأمريكيين ويدعى آدموند روبرتس Edmond Roberts حين تعرض لبعض المتاعب في زنجبار وما اعتبره قيودا يتعرض لها الأمريكيون اذا قورنت معاملتهم بمعاملة التجار البريطانيين الذين لم يكونوا ليرغمون على بيع بضائعهم لوكلاء السلطان أو يدفعون عمولات باهظة أو رسوم ميناء •

ولهذا كله كتب روبرش احتجاجا مؤلفا من عدة صفحات وجهه إلى السيد سعيد ، وقد أجابه الأخير بأنه يمكن التغلب على هذه الصعاب

بعقد معاهدة بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية • وبالفعل مثل روبرتس الرئيس الأمريكى اندرو جاكسون في عقد معاهدة ١٨٣٣ ويقول جيان أن عقد هذه المعاهدة لقي هوى في نفس السيد سعيد ، وفي سبتمبر ١٨٣٥ اتخذت المعاهدة وضعها النهائي بعد تعديلها وفي نفس العام قامت الولايات المتحدة الأمريكية بتأسيس قنصلية لها في زنجبار وعينت عليها أحد التجار الأمريكيين ويدعى ريتشارد واترز (١) •

وكانت هذه المعاهدة عبارة عن معاهدة مودة وصداقة وتجارة بين الولايات المتحدة الأمريكية وسلطنة زنجبار وتوابعها في شرق أفريقيا وعمان والخليج العربي • وقد اعطت المعاهدة للولايات المتحدة الأمريكية حق تعيين قناصل لها ومنحهم بعض الامتيازات •

ولاشك أن توقيع هذه المعاهدة قد أفسح المجال للولايات المتحدة الأمريكية كي تنشط اقتصاديا في زنجبار • ولذلك يؤكد جيان أن بريطانيا قد ساورها الكثير من القلق عن مسلك السيد سعيد مع الولايات المتحدة الأمريكية حتى أنها بادرت بإرسال الكابتن هارت من ضباط البحرية الهندية الى زنجبار، ولكن السيد سعيد أظهر له صدق نواياه واستعداده لكي يعقد معاهدة مع بريطانيا تماثل المعاهدة مع الولايات المتحدة الأمريكية (١) •

ومن المؤكد أن تأثير بريطانيا على السيد سعيد كان سببا في اضمحلال التجارة الأمريكية في الشرق الأفريقي حتى جاء الوقت الذي بدأ يعامل فيه القناصل الأمريكيين معاملة غير ودية ولعل ذلك مما دفع الرئيس الأمريكي فليمور أن يكتب الى السيد سعيد في مايو ١٨٥٤ طالبا تنفيذ الامتيازات المنصوص عليها في معاهدة ١٨٣٣ وأن يسمح للسفن الأمريكية بالدخول في موانيه وقد جاء في هذه الرسالة أن الولايات المتحدة الأمريكية ترحب في جميع موانئها بجميع السفن التي تحمل علمكم وبالتالي سوف نرسل بسفنتنا الى موانئ بلادكم ولكن ينبغي أن تلاقى الرعاية التي كفلتها لنا نصوص المعاهدة المبرمة بيننا وبينكم (٢) •

وفي عام ١٨٣٩ رأت بريطانيا توثيق علاقاتها بالسيد سعيد خوفا

(١) انظر تقرير هارت في وثائق حكومة بومباي •

Selection from the Records of Bombay Government,

Vol. XXIV, pp. 274-283, Bombay 1856.

Sanger : Arabian Peninsula, pp. 188-190 (٢)

من انصرافه الى غيرها من الدول وتم عقد معاهدة ١٨٣٩ بين الطرفين وهي معاهدة تجارية منحت للقناصل الانجليز امتيازات قضائية أكثر مما قد منحت المعاهدة الأمريكية للقناصل الأمريكيين •

فبينما كانت المعاهدة الامريكية تنص على أن سلطات القنصل القضائية لا تتعدى الرعايا الأمريكيين كانت المعاهدة البريطانية تعطي القنصل البريطاني سلطة الفصل في المنازعات بين الرعايا البريطانيين والعرب •

وقد أعطت هذه المعاهدة الفرصة لبريطانيا لتوسيع نشاطها في السلطنة العربية في زنجبار ، ففي عام ١٨٤١ قامت بتأسيس قنصلية لها في زنجبار وتم تعيين الكابتن اتكنز همرتون ليكون أول قنصل ووكيل لبريطانيا في زنجبار ^(١) •

وقد بلغت العلاقة بين السيد سعيد وهمرتون أقصى غاية من التوثيق والصداقة حتى أن السيد سعيد كان يعتبره ناصحه الأمين وكثيرا ما كان يعهد اليه بالاشراف على شئون الحكم في الشرق الأفريقي مع ابنه خالد وقت قيامه بتفقد شئون ممتلكاته في عمان ^(٢) •

والأمر الذي لاشك فيه أن توثق العلاقات بين بريطانيا والسلطنة العربية دفع كثيرا من الهنود الى الهجرة الى الشرق الأفريقي وربما عملت بريطانيا من ناحيتها على تشجيع تلك الهجرة •

أما في العلاقات بين فرنسا والسلطنة العربية في زنجبار فالثابت أن السيد سعيد كان يبدى قلقه من النشاط الفرنسي في مدغشقر وجزر نوسيبى لما قد ينتج عن التوسع الفرنسي في شرق إفريقيا من تهديد لممتلكاته الحيوية في شرق إفريقيا ولذلك فكر في أن يضمن صداقة فرنسا

Young husband, Glimpses of East Africa, p. 238. (١)

Lyne : op. cit. p. 34. (٢)

عن طريق عقد معاهدة بينه وبينهم وفيما يبدو أن السيد سعيد كان على استعداد لكي يمنح الفرنسيين بحكم نفوذهم في شرق إفريقيا امتيازات أكثر مما نصت عليه المعاهدتان الأمريكية والبريطانية ولكن بريطانيا أصرت ألا يعطى السيد سعيد فرنسا امتيازات تفوق الامتيازات التي منحت للرعايا البريطانيين •

ولاشك أن عقد المعاهدة الفرنسية مع سلطنة زنجبار في عام ١٨٤٤ كان يعد نصرا للسياسة الفرنسية إذ أدت هذه المعاهدة الى ازدهار العلاقات بين الامبراطورية العمانية وبين فرنسا ^(١) •

وفي عام ١٨٤٧ أسست فرنسا قنصلية لها في زنجبار ^(٢) كما تأسست الكثير من الميوت التجارية الفرنسية في الشرق الإفريقي وخاصة من مرسيليا ونشير بصدد ذلك الى بيت رابو وفيدال اللذين كان لهما نشاط تجارى واسع في شرق إفريقيا ^(٣) •

كما أخذت سفن السيد سعيد تصل الى الموانئ الفرنسية حاملة معها متاجر الشرق الإفريقي اليها كذلك شاركت بعض الولايات الألمانية تأسيس قنصليات لها في زنجبار بحكم اشتراكها في اتحاد الهنسا وذلك طبقا للمعاهدة التي عقدت بين سلطنة زنجبار واتحاد الهنسا سنة ١٨٦٠ وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة قد عقدت بعد وفاة السيد سعيد الا أن تجار همبورج كانوا يحتلون مركزا هاما في تجارة الشرق الإفريقي خلال عهد السيد سعيد ^(٤) •

(١) Firouz Kajar : La Question de Mascate et le Sultanate d'Oman, p. 98, Paris 1914.

(٢) Pankhurst : op. cit. p. 16.

(٣) Coupland : East Africa & its Invaders, p. 425.

(٤) Lyne : op. cit. pp. 365-386.

تفكك الدولة العمانية

هناك عوامل كثيرة كان لها تأثيرها على تفكك الامبراطورية العمانية وضياح ممتلكاتها في الشرق الأفريقي ولعل أكثر هذه العوامل تأثيرا ترتبط بالعوامل الخارجية ونعنى بذلك أن الامبراطورية العمانية عاصرت الموجه الامبريالية التي اجتاحت القارة الافريقية في القرن التاسع عشر ، وقد أثبتت الظروف التي مرت بها الامبراطورية العمانية في شرق افريقيا ان النشاط الأوربي الكسفي والتبشيري الذي اتخذ شكل بعثات كسفية وتبشيرية ، وما واكبه من نشاط اقتصادي للدول الأجنبية لم يكن الا مقدمة للحركة الامبريالية التي شهدت القارة الافريقية بصفة عامة والامبراطورية العمانية بصفة خاصة ، ولذلك فان الاحلام التي تراءت للسيد سعيد في الاحتفاظ بامبراطورية عمانية كبيرة لم تجد طريقها الى التنفيذ ، اذ سرعان ما اثبتت الأحداث أنه من الصعب الاحتفاظ بتلك الامبراطورية التي جاهدت عمان من أجل بنائها في غمار القرن التاسع عشر ذلك القرن الذي شهد تفوق قوة أوربا العسكرية والصناعية وشهد هذا الرتل الطويل من المستكشفين والرواد والمبشرين والتجار والمغامرين الاوروبيين الذين انتهوا الى حقيقة واقعة وهي أن هناك امكنة في افريقيا صالحة للاستغلال وانها قارة جديرة بالامتلاك والسيطرة .

وهكذا شاعت الظروف أن تصطدم رغبة السيد سعيد في تأسيس امبراطورية عربية في افريقيا مع رغبة الدول الأوروبية في السيطرة على القارة الافريقية واستعمارها واقتسامها فيها بينها ويمكننا أن نستعير بصدد ذلك ما أورده بيرس في تعليقه على الامبراطورية العمانية في شرق افريقيا بأن السيد سعيد ولد متأخرا خمسمائة عام وفي وقت غير ملائم لتحقيق تلك الآمال التي كان يحرص على تحقيقها ^(١) .

Pearce : op. cit. p. 120. (١)

وفيما يبدو أن السيد سعيد كان يدرك جيدا الأخطار التي سوف تتعرض لها الامبراطورية كما كان يدرك أيضا صعوبة الاحتفاظ بالسيطرة على الممتلكات الآسيوية والأفريقية في آن واحد ، فإن بقاءه في زنجبار كان يعنى الفوضى في عمان وكثيرا ما كان يضطر الى مغادرة زنجبار لكي يواجه الأمور في عمان التي تعرضت الى مرحلة التفكك بسبب الاطماع الإقليمية التي اجتاحتها من قبل الدول الإقليمية المجاورة لها أو بفعل الصراعات والاطماع الأسرية .

ورغم الهيبة الكبيرة التي كان يتمتع بها السيد سعيد الا أن المشاكل كانت تواجهه في الإقليمية حتى بات يدرك أن أحدهما سوف ينفصل لا محالة ، ولذلك قرر قبل وفاته توزيع ممتلكات دولته بين أبنائه ولعله كان يقدر أن بقاء عمان وزنجبار خاضعتين لأسرته حتى في حالة انفصالهما خير من أن يحدث ذلك الانفصال على أيدي قوم غرباء عن الأسرة أو معادين لها وهو أمر لم يكن بعيد الاحتمال .

ومن المؤكد أن تكون رغبة السيد سعيد في تقسيم ممتلكاته قد راودته عقب نقل عاصمته من مسقط الى زنجبار واقامته الدائمة في تلك الجزيرة ففي عام ١٨٤٠ كتب الى اللورد أبردين وزير الخارجية البريطانية رسالة يقول فيها « استقر تنظيمنا الذى وضعناه لدولتنا عند وفاتنا على تعيين ابننا السيد خالد حاكما على ممتلكاتنا في افريقيا وتعيين السيد ثويني حاكما على جميع ممتلكاتنا في عمان والخليج العربى ^(١) » .

وفي عام ١٨٥٦ ادركت السيد سعيد الوفاة في البحر وكان عائدا من مسقط الى زنجبار بعد حربه مع فارس وجيء بجثمانه الى زنجبار حيث دفن في حديقة بيته الذى كان يسكنه في زنجبار وفي تلك الجزيرة التي

(١) نقلا عن تقرير البريجادير كوجلان المقيم السياسى البريطانى في عدن وهو تقرير يبحث في اصول النزاع بين مسقط وزنجبار .

احبها وأخلص في تعهدا ورعايتها ^(١) وليس من شك في أن وفاة السيد سعيد كانت تعد نقطة التحول الخطيرة في مصير امبراطورية البوسعيد •

وقد حدث أن توفي خالد في حياة أبيه وفيما يبدو أن السيد سعيد أوصى قبل وفاته أن يخلفه ماجد الذى بايعه سكان زنجبار بعد وفاة أبيه ولكن ثوينى من مركزه في مسقط أخذ يعارض تقسيم الدولة ويعمل على استمرار اتحاد الشرق الافريقى مع عمان معتمدا على قبيله عمانية كانت قد انتقلت مع السيد سعيد واقامت في زنجبار •

كذلك وجد ثوينى تأييدا من الفرنسيين وقد اعتمد ثوينى في دعواه على أساس أنه الابن الأكبر وأنه طبقا للتعاليم الاسلامية فانه ينبغي أن تتوول اليه ممتلكات الدولة وأن والده حينما أوصى بتعيينه حاكما على مسقط والآخر حاكما على زنجبار كان يقصد من ذلك تقسيم في الادارة وليس تقسيم في الدولة نفسها اذ أن تقاليد العرب لاتعطى للحاكم اطلاقا الحق في تقسيم ممتلكاته ^(٢) •

وبينما كان من المنتظر أن يتطور هذا الخلاف بين الأخوين الى حرب بينهما رسمت بريطانيا سياستها على أساس الوقوف بصلابة ضد أى اضطراب أو حرب تنشب في ذلك الجزء من المحيط الهندى ، وفي الوقت نفسه رأت حكومة الهند أن تتوسط في حل الخلاف الذى نشب بين الشقيقين ولذلك بادرت بارسال بعثة الى كل من مسقط وزنجبار وقد رأس هذه البعثة البريجادير كوجلان المقيم السياسى البريطانى في عدن وكان من اعضائها الدكتور برسى بادجر الذى يعد واحدا من أبرز الباحثين الثقاه في تاريخ عمان • وفي عام ١٨٦١ قدمت البعثة تقريرها الذى تضمن أسباب

(١) حميد الدين بن رزق : الفتح المبين في سيرة السادة البوسعديين
ص ٤٦٠ .
(٢) Coupland : Exploitation of East Africa, p. 13.

النزاع بين مسقط وزنجبار وقد ارتكزت اللجنة في توصياتها الى ضرورة فصل الاقليمين مؤكدة أن المستوطنات العربية في شرق افريقيا أصبحت مدنا كبيرة تفوق في أهميتها بلاد عمان نفسها •

ومن الطريف ماجاء بالتقرير أنه كما استقل الانجلو ساكسون والاسبان الذين وغدوا الى العالم الجديد وكونوا مستعمرات هناك فكذا هنا يحق للشعب العربي في شرق افريقيا الانفصال عن عمان واكد التقرير أن الانفصال سيكون في مصلحة القارة الاغريقية اذ أن ذلك سيرسر جهود العرب على نشر الحضارة فيها •

وبناء على تقرير اللجنة اصدر اللورد كاننج نائب الملك في الهند تحكيمه المشهور في عام ١٨٦١ وكان ذلك التحكيم ينص على تعيين السيد ماجد حاكما على زنجبار والممتلكات الأفريقية خلفا للسيد سعيد على أن يدفع الى أخيه حاكم مسقط ٤٠.٠٠٠ ريال سنويا بالاضافة الى ٨٠.٠٠٠ ريال قيمة المتأخرات عن السنوات السابقة •

ونص قرار التحكيم على ألا يعنى هذا الدفع أية تبعية من جانب زنجبار لمسقط وانما قصد ذلك تحقيق المساواة بين الاثنين اذ كان دخل زنجبار يفوق كثيرا الدخل السنوى في مسقط • وكتب اللورد كاننج الى كل من سلطان مسقط وزنجبار يؤكد أن الذى دفع بريطانيا الى التدخل هو رغبتها في الايقع خلاف بين شقيقتين وان الشروط التي تم التوصل اليها ليس فيها ما يمس الشرف واعرب عن رغبته في أن يعمل كل من سلطان مسقط وسلطان زنجبار على تنفيذ شروط التحكيم ^(١) •

Aitchison : A collection of Treaties, Engagements and sands (١)
relating to India and neighbouring countries. vol. XI, p. 225, Calcutta
1892.

ومما تجدر الاشارة اليه هو أن انفصال الاقليمين قد عززته الحكومة البريطانية بجهودها الدبلوماسية وذلك باشتراك فرنسا في الاعتراف بالوضع الجديد وصدر نتيجة لذلك تصريح انجليزى فرنسى مشترك فى عام ١٨٦٢ تعلن فيه الدولتان استقلال كل من سلطنة مسقط وسلطنة زنجبار كما قررت حكومة الهند منح كل من الحاكمين لقب سلطان^(١) .

ومن الطبيعى بعد هذه التنظيمات التى وضعتها بريطانيا أن تقف أى معارضة لأية محاولة للإخلال بالأوضاع . فعندما تولى السيد نالم الحكم فى مسقط خلفا لأبيه ثوينى عام ١٨٦٦ وتوترت العلاقات بينه وبين عمه السيد ماجد سلطان زنجبار الذى توقف عن دفع الاعانة السنوية التى نص عليها قرار التحكيم معللا بأن هذه الاتفاقية كانت اتفاقية شخصية بينه وبين أخيه ثوينى وأنه لايمكن أن يستمر فى دفع أموال لحاكم اغتصب السلطة من أبيه ، رفضت حكومة الهند هذه الحجة ووضوح قرار التحكيم فيما يتعلق بتنظيم دفع المعونة السنوية من زنجبار الى مسقط غير أنه حققنا لماء وجهه ماجد رأت حكومة الهند أن تأخذ المعونة من سلطان زنجبار وتقدمها الى سلطان مسقط .

ولاشك أن هذا التصرف أدى الى زيادة فى تأزم العلاقات المباشرة بين السلطنتين ، كذلك امتنع ماجد عن دفع المعونة السنوية — خلال فترة حكم عزان بن قيس ١٨٦٨ — ١٨٧١ على أساس أن عزان لا ينتمى الى الفرع الأساسى الحاكم فى أسرة البوسعيد خاصة وأنه كان يعد حملة يستهدف بها ضم زنجبار الى مسقط فى عام ١٨٦٩ .

ولكن حكومة الهند تمسكت بموقفها حيث استمر وضع الاعانة السنوية الى عهد برغش بن سعيد وعلى وجه التحديد حتى عام ١٨٧٣

(١) ج . ج لورير — دليل الخليج ج ٢ ص ٧٣٢ .

اذ انه على أثر توقيع معاهدة الغاء تجارة الرقيق بين بريطانيا وزنجبار في ذلك العام ونظرا لما أدى اليه الغاء هذه التجارة من فقدان سلطة زنجبار لكثير من مواردها المالية رأت الحكومة البريطانية أن تعفى السلطنة من دفع الاعانة السنوية الى مسقط حيث تولت حكومة الهند دفعها بعد ذلك التاريخ .

ومنذ ذلك التاريخ أيضا بدأت الحواجز تقوى بين عمان وشرق افريقيا بل ان عمان نفسها أخذت تتعرض لتفكك اقليمي حاد ، وبالتالي انحصار المكانة التي كانت تتمتع بها في القرن التاسع عشر حين كانت توصف بالدولة البحرية الأولى ويعزى ذلك التدهور الى الظروف الاقتصادية السيئة التي مرت بها والى عدم استقرار الاوضاع فيها .

ومما زاد في مصاعبها فقدانها لقسم كبير من أسطولها البحرى الذى كان راسيا بمحض الصدفة في زنجبار حينما توفى السيد سعيد . كما أن استخدام الملاحة التجارية في رحلات بحرية بدأتها شركة الملاحة التجارية البريطانية بين الهند وموانئ الخليج اصابت ملاحة عمان الشراعية بضرية قاضية وفي غضون سنوات قليلة اضمحلت القوة البحرية العمانية (١) .

أما زنجبار فقد ترتب على انفصالها عن عمان أن أخذت مقاطعات شرق افريقيا تفقد مقوماتها العربية نتيجة ضعف ارتباطها بالوطن الأم الذى كانت تعتمد عليه في ابراز تلك المقومات وبدأت تخضع من ناحية أخرى للدماء الأفريقية بالإضافة الى المؤثرات الاستعمارية خاصة وأن الاستعمار كان حريصا على مسح الشخصية العربية فلم تعد اللغة العربية في

(١) جمال زكريا قاسم : اثر الاستعمار في تفكك الروابط بين الخليج وشرق افريقيا — من مجموعة اعمال مؤتمر شرق الجزيرة العربية — الدوحة ١٩٧٧ .

زنجبار الالفة الارستقراطية الحاكمة وأخذ الطابع الافريقى يعلب على السلطنة العربية فى زنجبار •

ومن ناحية اخرى كان لمعاهدات الغاء تجارة الرقيق التى عقدتها بريطانيا مع مسقط ورؤساء الخليج دور فى ذلك لأن هذه المعاهدات تضمنت تشديد القبضة والرقابة الاستعمارية على الملاحة العربية ومصادرة السفن ، هذا الى جانب القرارات التى اصدرتها السلطات الاستعمارية فى زنجبار والتى كانت تحرم على سكان زنجبار تاجير مساكنهم للتجار العرب الآتين من الخليج والجزيرة العربية كما اوقف سلطنة زنجبار الهدايا التقليدية التى كانوا يقدمونها عادة الى رؤساء القبائل العربية فى عمان •

وعلى الرغم من أن انفصال مسقط عن زنجبار كان من الممكن أن يترتب عليه زيادة المؤثرات العربية فى المقاطعات الأفريقية الا أن النتيجة كانت على العكس من ذلك تماما فبينما كان عرب زنجبار يزدون من نفوذهم الاقتصادى والسياسى فى الداخل الا أنهم كانوا فى نفس الوقت يتعرضون للذوبان اجتماعيا وجنسيا فى البيئات الافريقية يضاف الى ذلك ما اقدمت عليه السلطات الاستعمارية فى الحد من انتشار الاسلام واللغة العربية فى شرق افريقيا واتباع سياسة التفتيت اللغوى شحذا للعصبيات القبلية •

وعلى الرغم من أن العرب فى شرق افريقية أصبحت مصلحتهم مشتركة مع مصالح الأجناس الأخرى الا أن السلطات الاستعمارية البريطانية (١) شجعت الحزب الافروشيرازى الذى عرف بمناوئته للعناصر العربية فى زنجبار وقد برز ذلك الحزب فى السنوات الاخيرة وكان له دور بارز عند

(١) فرضت بريطانيا حمايتها على زنجبار فى عام ١٨٩٠ •

تتياهم ثورة زنجبار التي اصبحت بالحق العربى فى عام ١٩٦٤ م وما اعقب ذلك من اضطهادات سياسية وعنصرية شديدة وقعت على الاقلية العربية فى زنجبار التي غر معظم افرادها الى مواطنهم الاولى فى عمان وبقيّة اقطار الخليج •

وهكذا اسدل الستار على الحكم العربى فى زنجبار الذى انتهى بمأساة دامية يمكن اضافتها الى مآسى العروبة المتعددة فى الاندلس وعربستان والاسكندرونة وغلططين •

دور عُمان في بناء حضارة شرق إفريقيا

للأستاذ الدكتور رأفت غنيمى

استاذ التاريخ المعاصر المساعد

بجامعتى عين شمس وقطر

بسم الله الرحمن الرحيم

خطة البحث

* الاهداء *

* المقدمة *

* شرق أفريقيا قبل اليعاربة *

* شرق أفريقيا في عهد اليعاربة *

* شرق أفريقيا في عهد البوسعيدين :

— أولا : التأثيرات العربية في ساحل أفريقيا الشرقى *

— ثانيا : التأثيرات العربية داخل أفريقيا :

١ — المراكز العربية داخل أفريقيا *

٢ — امتداد السلطنة الى الكنعو *

٣ — مساعدة المستكشفين الأوربيين *

٤ — الدور المصرى والعمانى في شرق أفريقيا *

* كلمة ختامية *

* الهوامش *

* مصادر البحث *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لماذا عمان وشرق أفريقيا ؟ هذا سؤال أطره أولا قبل الحديث عن البناء الحضارى الذى أقامه العمانيون فى شرق أفريقيا ، وفى هذه المقدمة سأحاول الاجابة على هذا التساؤل ، ولأبدأ بالشق الأول من التساؤل وهو لماذا عمان والعمانيون !

كانت عمان فى مطلع العصور الحديثة - القرن السادس عشر الميلادى ذات مكانة متميزة وكيان بارز فى منطقة الخليج العربى والجزيرة العربية ككل ، اذ بينما كان الشاطئ العربى للخليج خلوا من أى تنظيم سياسى ، فانه يمكن استثناء عمان من هذا الوصف ، فقد كانت منذ عهد بعيد أكثر ازدهاما بالسكان ، وساعد على وجود هذا التنظيم النسبى ، وجود المذهب الاباضى الذى اشتهر بنظام الامامة على أساس البيعة ولو أن الامامة فى ذلك العصر تحولت الى ملك أساسه القوة فى ظل الأسرة النبھانية (١) .

كانت عمان اذن تخضع لتنظيم سياسى سبقت به غيرها من الاقطار الخليجية المجاورة ، وقد ساعد على ذلك موقفها الجغرافى الممتاز الذى أعطاها أهمية استراتيجية واقتصادية اذ أن عمان تحد شمالا بالخليج العربى وجنوبا ببحر العرب وشرقا بخليج عمان وغربا بصحراء الربع الخالى وهى بذلك منطقة تطل على البحر من جهة والصحراء من جهة أخرى وقد أعطى لها ذلك الموقع الجغرافى مميزات خاصة طبعت حياة أهلها بـ: (٢) خاص .

ولا نكون بعيدين عن الصواب اذا قلنا أن الطابع المميز لعمان هو الطابع البحرى الجبلى ، اذ ألقى الموقع الجغرافى الذى تتميز به أهمية خاصة على ذلك الاقليم الذى يحتل مركزا هاما بالنسبة للطرق الموصلة الى الهند وأفريقيا والبحر الأحمر ، مما أدى الى أن يكون مركزا وسيطا للتجارة خاصة تجارة المرور ، كما ساعدت الرياح الموسمية الملاحين العرب فى عمان أن يصلوا فى رحلاتهم البحرية الى مناطق بعيدة ^(٢) .

وكان لعمان منذ القدم اذن مكانة مرموقة ، غابن خلدون يصفها بأنها من ممالك جزيرة العرب ، وهى اقليم سلطانى « منفرد على بحر فارس — الخليج العربى من غربيه مسافة شهر ، شرقها بحر فارس وجنوبها بحر الهند وغربها بلاد حضرموت ، وشمالها البحرين ^(٤) » فهى اذن بلاد لها تنظيم سياسى يحكمها سلاطين منذ ذلك الوقت المبكر الذى عاش فيه ابن خلدون أى منذ القرن العاشر الميلادى .

كان لهذا الوضع المستقر المنظم فى عمان أثره الكبير فى نشاط العمانيين البحرى . وكانت الفكرة عن العرب أنهم لا يحبون البحر ويخشون مياهه ، ولكن العرب أثبتوا بجولاتهم البحرية فى المحيط الهندى وفى غيره أنهم بحارة مهرة ، وأن العربى يركب مركبا كما يركب جملا ، وقد وصف المسعودى فى رحلة له فى المحيط الهندى خبرة العرب فى الملاحة بقوله : وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشأوا من « ربابين » و « أئامته » ووكلاء وتجار ورأيت معهم دقاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها ^(٥) .

وتروى المصادر التاريخية أن « عثمان الثقفى » والى البحرين اتخذ من عمان مركزا لارسال حملات فتح اسلامية الى الهند والشرق الأقصى ، فقد أبهر بنفسه من عمان فى غارة جريئة على ساحل الهند عند « تانه » بالقرب من بومباى ، ووجه أخاه المغيرة الى « خور البيل »

عند مصب نهر السند عام ٦٣٦ م^(٦) . ووجه أخاه الآخر المسمى « الحكم » الى « بروص » التى تعرف الآن باسم بهروج — بالهند أيضا ، وتم فتح بلاد السند على يد « الحجاج » بعد عام ٧١٠ م بقليل ثاقترب العرب بذلك خطوة من الشرق الأقصى .

ومن عمان اهتم الملاحون العرب بساحل « الملبار » حيث التوابل والأخشاب التى تصنع منها السفن وغيرها ، وكانت سفن العرب تعود من ساحل « الملبار » بالسير الى جزيرة سيلان فجزيرة الياقوت التى يسميها العرب « سرنديب » وكان الملاحون العرب يذهبون الى الصين عبر « ملقا » وكانت الرحلة تبدأ من مدينة « مسقط » بعمان الى مدينة « كانتون » فى الصين وتستغرق حوالى ١٢٠ يوما عدا فترات الوقوف فى الموانى ، وتستفيد من الرياح الموسمية ذهابا وعودة^(٧) .

كانت خبرة العمانيين البحرية اذن قديمة وراسخة تؤهلهم لى يخضعوا المحيط الهندى بين عمان والهند وشرق أفريقيا لجولاتهم البحرية ، غير آبهين بأواجهه العالية التى ذكرها المسعودى فى آخر رحلة له عام ٩١٧هـ^(٨) على لسان البحارة فى قولهم : وموجه عظيم كالجبال الشواهد وأنه موج أعمرى ، يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كأخفض مايكون من الأودية ، لاينكسر موجه ولايظهر من ذلك زبد ككسر أمواج سائر البحار ويزعمون أنه موج مجنون .

ومع ذلك فقد نبغ من البحارة ملاحون عمانيون كان أشهرهم العماني شهاب الدين أحمد بن ماجد الذى صال وجال فى مياه المحيط الهندى دون أن يهتر فؤاده أو يفقد سيطرته على سفينته فى يوم ما . . . واذا كان الموقع الجغرافى لموطن أحمد بن ماجد وأعنى عمان قد تحكم فى اختيار مهنة الخليج العربى أى على طرق التجارة المنتعشة ، وان أهل عمان ارتبطوا بالبحر حيث كان بعضهم مقيدا طوال حياته بعمل شاق وهو صيد اللؤلؤ ،

وبعضهم حقق ثروة عن طريق العمل بالتجارة وأصبحوا ملاك سفن وقاموا برحلات خطيرة عن طريق المحيط الهندي الى الأراضى الغنية في شرقه (الهند) وفي غربه (أفريقيا) ، فان البعض الآخر من أهل عمان قد وهب نفسه لدراسة فن الإبحار وتفهم قواعده وأصوله الثابتة وادخال بعض التعديلات على القواعد القديمة ، ومن هنا قام كل ملاح بتأليف مجموعة كبيرة أو صغيرة من المقالات البحرية ، والى هذه المجموعة الأخيرة من أهل عمان ينتمى أحمد بن ماجد الذى ورث هذا العمل عن جده وأبيه ^(٩) .

والترجم أحمد بن ماجد بقوانين الملاحة وتعاليمها التى سجلت على السنة الملاحين فى كلمات تقول :

نحن الأخوة الملاحين مرتبطون بواجبنا وأقسمنا ألا نغادر سفننا حتى النهاية المهلكة ، ونحن الملاحين نصعد على ظهر السفينة ، وبهذا ترتبط بها حياتنا ومصيرنا فإذا نجت السفينة نجونا وإذا هلكت هلكنا معها ^(١٠) .

ونتيجة لخبرة أحمد بن ماجد البحرية لم يظهر دهشته عندما عرض عليه الملاح البرتغالى « فاسكودى جاما » أدوات الملاحة التى يستعملها البرتغاليون عندما التقيا فى مدينة مالندى بشرق أفريقيا عام ١٤٩٨ م . وأظهر ابن ماجد أجهزة أخرى صنعها بنفسه واستخدمها الملاحون العرب مما أثارت دهشة « دى جاما » مما دفعه الى التمسك بابن ماجد ليرشده الى الهند ، ولا عجب أن يسمى ابن ماجد باسم « ليث البحر » دون أى تأنيب من ضميره ^(١١) .

هذه العوامل مجتمعة مسئولة عن تطلع عمان الى القيام بدور حضارى فى شرق أفريقيا فموقع عمان الجغرافى ذو البعد الاستراتيجى والاقتصادى ، والاستقرار السياسى فى ظل تنظيم نسبى يميز عمان عن غيرها من الأقطار الخليجية المجاورة ، وحيوية أهل عمان بوجود امامة

بينهم توحدهم وخبرتهم الملاحية التي جعلتهم سادة المحيط الهندي لسنوات طويلة بل لقرون .. كل ذلك أجاب على التساؤل المطروح سابقا : لماذا عمان ؟ • لماذا شرق أفريقيا ؟ •

ان الجزء موضوع بحثنا من شرق أفريقيا هو ذلك الجزء المثل على المحيط الهندي والممتد من « رأس جردافون » شمالا الى خليج « دلجادو » جنوبا والتي أطلق العرب عليها ساحل الزنج أو زنجبار ، وبار بالفارسية تعنى الساحل ، حيث كان التجار من جنوب الجزيرة ... العربية وسواحل الخليج العربي أقدم من وطئها ، وكان قدومهم اليها للتجارة أو الاستيطان حينما آخر (١٣) •

وهذا الجزء من أفريقيا تميز بموقعه الجغرافي المتميز عن بقية الأجزاء الأفريقية حيث يواجه جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي والهند ، ويتعرض للرياح الموسمية التي تسهل عملية الاتصال مع هذه المناطق الآسيوية •

فالرياح التي تؤثر في حركة الملاحة شتاء وتمتد من شهر نوفمبر الى شهر مارس هي الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ومن ثم هذه الفترة أفضل موسم مناسب لحركة الملاحة بالسفن الشراعية من شبه جزيرة انرب وشرق أفريقيا ، والحد الجنوبي للاستفادة من هذه الرياح مدينة سفالة بينما تسود الرياح الموسمية الجنوبية والغربية في المدة من شهر مايو الى شهر سبتمبر من كل عام ، وفي هذه الفترة تقوم السفن الشراعية برحلة الصيف أو الاياب الى جنوب جزيرة العرب والخليج العربي وساحل الهند (١٣) •

وقد ساعدت ظروف شرق أفريقيا الطبيعية على ارتباط هذا الجزء بالخليج العربي والجزيرة العربية والهند ، فالى جانب سهولة الابحار

باستخدام أنرياح الموسمية فان ظروف شرق أفريقيا الطبيعية تؤهل لهذا الارتباط ، اذ يتميز شرق أفريقيا بوجود مساحات كبيرة صالحة للزراعة، وتوفر أعداد كبيرة من الحيوانات التي استطاع الانسان استئناس بعضها وصيد البعض الآخر .

كما أن الكثافة البشرية في شرق أفريقيا واضحة وتنفوق الكثافة البشرية في الجزء المقابل من غرب القارة في منطقة حوض نهر الكونغو على سبيل المثال ، وفي شرق أفريقيا استطاع سكانها التعرف على التنظيم الاجتماعي الراقى واحتكوا بالمدينيات القديرة والحديثة ، وارتبطوا بآسيا التي حملت اليهم الثقافة والنظم الاجتماعية والديانات . وقد أثرت الحضارة الاسلامية كثيرا في أهل أفريقيا الشرقية (١٤) .

تلك اذن الاجابة في رأيي عن التساؤل الثاني لماذا شرق أفريقيا ؟ ومن هذه الاجابة والاجابة التي سبقتها عن التساؤل الأول لماذا عمان والعُمانيون ؟ يأتي هذا البحث عن دور العمانيين في بناء حضارة شرق أفريقيا في الصفحات التالية التي أقدمها لندوة الدراسات العمانية في اطار احتفالات سلطنة عمان بمهرجان التراث العماني .

شرق أفريقيا قبل اليعاربة

من الثابت أن وجود العرب ومنهم العمانيون في شرق أفريقيا قديم قبل ظهور الاسلام ، حيث كان عرب جنوب الجزيرة العربية هم أقدم الشعوب العربية اتصالا بالسواحل الشرقية لأفريقية بحكم الجوار الجغرافي ، وساعدهم على قيام هذه الصلات نظام الرياح الموسمية اذ كانت الرياح الموسمية تمكن السفن الشراعية الصغيرة المعروفة باسم «الداو» من القيام برحلتين على الأقل في العام ، غفى الخريف تدفعها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية من خليج عمان وسواحل الجزيرة العربية

الجنوبية نحو الساحل الافريقى الشرقى . وفى فصل الربيع تدفعها
فى اتجاه شمال شرقى يمكنها من العودة الى قواعدها : وفى خلال دورة —
الرياح يتم التعامل التجارى ^(١٥) .

كما تان لشعوب الرافدين ووادى النيل اتصال بالساحل الشرقى
لأفريقيا ، حيث تثبت النقوش التى عثر عليها فى شرق أفريقيا أنها وافدة
من بلاد الرافدين ، وحيث سجل فراغنة مصر على معابدهم رحلات سفنهم
الى شرق أفريقيا • منذ عهد الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ — ٢٤٢٠ ق م) •
ولعل أشهر ما سجل على الآثار المصرية كانت مناظر الرحلة التى أوفدتها
الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ — ١٤٦٩ ق م) الى شرق أفريقيا والتى سجلت
على جدران معبدها بالدير البحرى « ^(١٦) •

وفى هذا الوقت المبكر من علاقات العرب بشرق أفريقيا لم يثبت أن
العرب توغلوا داخل القارة وانما اكتفوا باقامة بعض المراكز التجارية
على الساحل لتصدير تراب الذهب والعاج الى الامبراطوريتين الفارسية
والرومانية ، وتعاونت القبائل الافريقية مع العرب فى هذه التجارة حيث
كان الرؤساء وزعماء القبائل يأتون الى الساحل بالذهب والعاج فيقايضون
التجار العرب المتعاملين معهم بما يحملونه • وخاصة الخرز الذى كانوا
يجلبونه من الهند وكانت البضائع الافريقية غالبا ماتستبقى فى المراكز
التجارية التى أقامها العرب على الساحل الى أن يحين موسم الرياح حيث
ينم نقلها الى الخليج العربى وسواحل الجزيرة العربية فى رحلة
العودة ^(١٧) •

ومن هناك تنقلها القوافل الى الشام والعراق ومصر أو تنقلها السفن
الى الهند ^(١٨) •

ورغم عدم توغل العرب داخل أفريقيا فانهم اختلطوا بسكان الساحل

الشرقى لأفريقيا وتزوجوا من نساء القبائل الأفريقية ، ومن ثم وصفهم البعض بأنهم يألّفون أهل البلاد ويتزاوجون معهم ويعرّفون السّاحل واللغة ^(١٩) ، كما يرى البعض أن ازدياد اختلاط العرب بالقبائل الأفريقية — منذ هذه الفترة القديمة كان بداية لظهور ثقافة مميزة المعالم أخذت من كلّ الشعبين العربى والأفريقى ، وأصبحت السواحلية لغة قائمة بذاتها مزيجا من الذى أتى به العرب ، والذى كان ملكا خاصا للأفريقيين ، وهذا لاينفى وجود اللغة العربية فى السّاحل الشرقى لأفريقيا كلغة قائمة بذاتها باعتبارها لغة الطبقة الحاكمة فى هذا السّاحل ^(٢٠) .

وبعد ظهور الاسلام وقيام الدولة الاسلامية الكبرى لم تنقطع الصّلات بين العرب وشرق أفريقيا ، اذ استمرت الهجرة الى ساحل الزنج « كما أطلق عليه العرب وأصبح لدى العرب دوافع جديدة غير الواقع التجارى للاستقرار الدائم فى سواحل أفريقيا الشرقية واقامة أنظمة سياسية ذات هوية عربية اسلامية .

ومما زاد من الهجرات العربية الاسلامية الى شرق أفريقيا حدوث المنازعات الدينية والسياسية بين المسلمين فى عهد الدولتين الأموية والعباسية ، ومن ثم كان من الطبيعى أن تهاجر جماعات اسلامية عربية من الاحساء والبحرين وعمان وحضرموت واليمن الى شرق أفريقيا حيث الأمن والأمان ، ومن الطبيعى أيضا أن تنتقل هذه الجماعات المهاجرة معها صورا من الحضارة العربية الاسلامية الى شرق أفريقيا ، وكان أبرز هذه الصور انشاء المنازل العربية ، والمراكز التجارية ، وانتشار الدين الاسلامى والحضارة الاسلامية فى اريتريا والصومال وزنجبار والى الجنوب من خط الاستواء ^(٢١) .

ولم تثبت أن تحولت المنازل العربية والمراكز التجارية الى مدن عربية اسلامية يسكنها المهاجرون العرب ، ومن ثم أصبحت مراكز الالتقاء الحضارى والالتقاء السكافى بين العرب والأفريقيين ^(٢٢) .

فاذا تتبعنا دور الهجرات العمانية الى شرق أفريقيا فاننا نجد أن أهم هجرة عمانية الى شرق أفريقيا كانت تلك الجماعة التي قادها الأخوان « سليمان وسعيد ابنا عباد الجلندى » من قبيلة الأزرد خلال الفترة من ٧٥ — ٨٥ هـ الموافق ٦٩٤ الى ٧٠٤ م .

وكان هذان الأخوان من الشيوخ الذين حكموا عمان أيام الدولة الأموية وثاروا ضد الحكم الأموى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، وعندما فشلت ثورتهم أمام قوات الحجاج بن يوسف الثقفى عام ٧٥ هـ الموافق ٦٩٤ م هرب الأخوان مع أنصارهما الى ساحل الزنج ، وكان منذ وصولهما الى ساحل أفريقيا الشرقى رسولى سلام ودعوة الى الاسلام ، ولايعرف على وجه التحديد أين نزلوا على البر ، ومن المحتمل أن يكونوا قد نزلوا فى « بات » جزيرة « ماغيا » بأرخبيل «لامو » أو فى مدينة « حدابو » التى أسسوها شمالى ممبسة (٣٣) .

وكان النجاح الذى أصاب الأخوان سليمان وسعيد ابنا عباد الجلندى بشرق أفريقيا دافعا لمزيد من الهجرات العربية من الخليج والجزيرة العربية، كان من هذه الهجرات جماعات من الزيديين — المنتسبين لزيد بن على زين العابدين بن الحسن بن على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء — الذين تضاعفت هجراتهم قادمين من اليمن خاصة فى الفترة الممتدة من ١٤٠ — ١٤٣ هـ ٧٥٧ الى ٧٦٠ م حيث انتشروا على ساحل بنادر فى الصومال الحالية وتوغلوا الى الداخل قليلا ، واتسع ملكهم حتى ضم منطقة « مقديشيو » على المدينة التى أسسها العرب فيما بعد .

وقد تدعمت هجرة العمانيين بهجرة خليجية أخرى خرجت من اقليم الاحساء فى أوائل القرن الرابع الهجرى الموافق للقرن العاشر الميلادى . حين خرج سبعة أخوة من قبيلة الحارث العربية على رأس جماعة من انصارهم فى ثلاث سفن — نتيجة الصراع بين الخلافة العباسية والقرامطة —

وهبطوا الى ساحل أفريقيا الشرقى عند ساحل البنادر وأخذوا يمدون نفوذهم حتى وصلوا الى الجنوب من مدينة ممبسة ومن ثم اصطدموا بالزيبدين الذين اضطروا الى الانسحاب الى داخل أفريقيا بعيدا عن الساحل حيث استقروا حول أودية نهري جوبا وشبيلي (٢٤) .

وكان الوافدون الخليجيون قد اختلفوا مع الزيبدين . مما اضطر الآخرين الى التوغل داخل أفريقيا حيث اختلطوا بالسكان هناك بل تزاوجوا معهم ، وقد تكون من هذا المزيج أمة خليطة من العرب ، والزنج حيث عرفوا باسم « الأموزيدج » (٢٥) ويبدو أنها تحريف سواحلي للزيبدية أما الأولون وأعنى « الحارثيون » فاليهم يرجع الفضل فى تأسيس مشيخة « مقديشو » التى تزعمت الساحل الشرقى لافريقيا لفترة طويلة ، كما يرجع اليهم الفضل فى تأسيس مدينتى مقديشيو وبروة (٢٦) .

وكان عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان قد شهد ظهور عدة مدن أقامها المهاجرون العرب فى ساحل الزنج منها مدن : مالندي — أو مالنده ، وزنجبار ، وممبسة ولامو ، وكلوه ، وبات (٢٧) ، ولم ينته القرن الرابع الهجرى الموافق للعاشر الميلادى الا وكانت مدن الساحل قد استكملت مقوماتها وسماتها العربية ، وهذه المدن من الشمال الى الجنوب هى : مقديشيو ، براوة ، قسمايو ، بات ، لامو ، زنجبار ، موفيه — أو مافيا ، كلوة ، موزمبيق ، سفالية — أو سفالة — وانتشر الاسلام فيها جميعا ، وأصبح لكل مدينة مسجدها الخاص (٢٨) .

وشهد أول القرن السابع الهجرى (٦٠١ أو ٦٠٣ هـ) ظهور أول دولة عربية عمانية بشرق أفريقيا ، وذلك حين هاجر من عمان ونتيجة لخلافات هناك سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى الذى كان ملكا على عمان ونزل بساحل الزنج ليعيد تأسيس الملك النبهانى الذى انتهى فى عمان عام ٦٠١ هـ ، نظرا للشخصية التى كان يتمتع بها الملك النبهانى سليمان والذى كان ملكا

على عمان فقد استقبله العرب في جزيرة بات وكان معظمهم من اقليم عمان استقبالا طيبا (٢٩) . ثم تزوج سليمان من أميرة سواحلية هي ابنة اسحق حاكم الجزيرة وهو من سلالة الشيرازيين حكام كلوة ، وبعد اتمام الزواج تنازل اسحق عن الحكم في جزيرة بات لسليمان الذي أصبح أول حكام أسرة بنى نبهان في الساحل الشرقي لأفريقيا (٣٠) .

وقد استطاعت الأسرة النبهانية أن تخضع معظم ساحل الزنج تحت لوائها وأن تجعل من جزيرة بات مركزا للسلطنة النبهانية التي بلغت شأنا كبيرا في بعض فترات من تاريخها وقد ضمت السلطنة اليها كلا من قسمايو وبراوو ومقديشيو ، ومالندي وكلوة وممبسة وتلقب الملوك النبهانيون بلقب « بوانافومادى » وهو لقب سواحلى تقليدى فيما يبدو (٣١) . وقد ظلت الأسرة النبهانية تحكم من بات حتى عام ١٧٤٥ م رغم وجود البرتغاليين في شرق أفريقيا (٣٢) .

وخلال فترة حكم الأسرة النبهانية التي استمرت من القرن الثالث عشر الميلادى حتى أواسط القرن الثامن عشر في شرق أفريقيا وضعت الأسس لحضارة اسلامية عربية عمانية مزدهرة ، شملت مختلف حياة الناس في هذه الجهات الأفريقية .

غفى المجال الاقتصادى كانت التجارة في مقدمة نشاط الشرق الأفريقى، وقد ساعد نشاط الحركة التجارية في شرق أفريقيا في هذه الفترة الى توافد الكثيرين من التجار العرب والهنود على ساحل الزنج (٣٣) .

وقد عمل هؤلاء التجار بنقل حاصلات المنطقة مثل العاج والذهب وريش النعام والعسل والجلود والموز واللؤلؤ والصمغ واللبان ، الى البلدان المطلة على المحيط الهندي ، كما ظهرت هذه السلع في الاسواق العربية في الشام والعراق ومصر ولاشك أن التجارة جانب حضارى بما تؤدى اليه

من احتكاك وتفاعل بين ساحل الزنج وأجزاء أخرى من العالم أكثر تحضرا .

وكان استخراج الذهب من منطقة سفالة من الأمور التي اهتم بها العرب في ساحل الزنج حيث كانت كميات كبيرة من ذهب سفالة تذهب الى الدولة الاسلامية في بلاد العرب ^(٢٤) ، وقد شارك العرب في البحث عن الذهب والفضة والنحاس والحديد في ساحل الزنج مما يعتبر عاملا حضاريا آخر ساهم فيه العرب في تلك المبقاع التي للعمانيين — كما رأينا — قصب السبق فيها .

وفي مجال الزراعة فقد ادخلت في بقاع كثيرة من ساحل الزنج وظهرت كثير من النباتات التي زرعها العرب هناك مثل القرنفل وقصب السكر .. الخ، وارتبطت بالزراعة اهتمام العرب بالرعى ، غالى جانب عناية العرب بتربية الماشية والأغنام عناية فائقة ، فقد ادخلوا كذلك تربية الابل في تلك البلاد ، وكان من نتيجة الاهتمام بتربية هذه الحيوانات ازدهار تجارة الجلود .

فاذا انتقلنا الى جانب آخر من الحضارة العربية الاسلامية في ساحل الزنج في عهد الأسرة النبهانية العمانية فاننا نجد أن الجانب الاجتماعي ظهرت فيه ملامح التغيير بصورة واضحة ، حيث اختلط العرب بالقبائل الأفريقية كالبانتو . وغيرهم مما ساعد على انتشار الاسلام واللغة العربية بين سكان الساحل الشرقى لأفريقيا ، كما انتشر التعليم الدينى في المساجد والمدارس الدينية التي وفد اليها كثير من الوطنيين الأفارقة ليحفظوا القرآن الكريم ويتعلموا القراءة والكتابة باللغة العربية لغة القرآن الكريم ، وقد ساعد تزاوج العرب مع الأفارقة إلى ادخال العادات والتقاليد العربية في ذلك الساحل الشرقى الافريقى سواء في المسكن أو الملبس أو العلاقات الاجتماعية .

وعلى سبيل المثال فقد تجلت الحضارة العربية في شرق أفريقيا في المباني المعمارية وتخطيط المدن ، وزخارف الأبواب والشبابيك ، كما أدخل العرب فن النقش والحفر والنحت وعقود البناء العالية ، والفسيساء المتحدة مع الرخام الملون ، وقد ظهر ذلك بوضوح — مثلا — في قصور كلوة ومساجدها (٢٥) .

وكان أكثر الارتباط الحضارى بين شرق أفريقيا وعرب الخليج والجزيرة العربية وبقية الأقطار العربية ، شعور عرب ساحل الزنج بالانتماء للوطن الأم الذى قدموا منه وتطلعهم الى أخواتهم في أوقات الشدة ، وخير مثال على هذا الكلام تطلع عرب شرق أفريقيا الى عرب الخليج وجنوب الجزيرة العربية عندما قدم البرتغاليون وأخذوا في تخريب المدن العربية الاسلامية بشرق أفريقيا .

وكان التعليم في أقطار الوطن العربى في ظل الخلافة الاسلامية مطمعا للشباب من ساحل أفريقيا الشرقى الذين حرص الكثير منهم على أن يحصلوا على المعرفة الدينية في كل من مكة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد والفاهره ، وعلى سبيل المثال فقد تنقل السلطان « أبو المواهب » (١٣٠٨ — ١٣٣٤ م) قبل ارتقائه عرش السلطنة في كلوة بين عدن ومكة لطلب العلم ، وكان قد وصل الى مكة وهو لم يزل في الرابعة عشرة من عمره (٢٦) .

ولم يكن هذا البناء الحضارى العربى الاسلامى بشرق أفريقيا ليحدث لو لم يكن العرب الوافدون الى هذه الجهات قد اختلطوا بروح التسامح وعدم الاستعلاء التى يتمتع بها العرب مع القبائل الأفريقية وتراوجوا منهم وامتزجوا بهم ، وأخذت شعوب الساحل عنهم الدين الجديد والثقافة العربية التى قامت عليه ، كما أخذت عنهم الكثير من وسائل عيشهم ونماذج حياتهم ، وثمة ملاحظة جديرة بالذكر وهى أن معظم المهاجرين كانوا من اقليم عمان في الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية (٢٧) .

ومما تجدر ملاحظته أن ساحل الزنج لم يشهد قيام دولة واحدة أو لم يخضع كله على امتداده لسلطنة أو مملكة واحدة ، بل شهد كثيراً من الوحدات الإسلامية على طول الساحل من شماله الى جنوبه .

وقد زار الرحالة ابن بطوطة هذه الوحدات بمدنها وأعجب بها وقال عنها : ثم ركب البحر من مدينة « مقديشو » متوجها الى بلاد السواحل قاصدا مدينة كلوة من بلاد الزنوج فوصلنا الى جزيرة بمبا وهي جزيرة كبيرة بينها وبين السواحل مسيرة يومين في البحر ولا بر لها ، وأشجارها الموز والليمون والأترج وأكثر طعامهم الموز والسّمك ، وهم شافعية المذهب : أهل دين وعفاف وصلاح ، ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان ، وبيتنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كلوة وهي مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها من الزنوج المستحكي السواد .

ويضيف ابن بطوطة قائلا : وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوة ، ومدينة كلوة من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب . كما تحدث عن سلطان سفالة « بأنه يغير على الكفار ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله » (٣٨) .

ولكن الوحدات السياسية بشرق أفريقيا دخلت في صراع مع بعضها البعض بحيث لم تستطع مقاومة الغزو الاستعماري البرتغالي الذي استطاع أن ينفرد بكل وحدة سياسية ويخربها مما اضطر العرب الى ترك الساحل والزروح الى داخل القارة ، وان بقيت بعض هذه الوحدات خاصة تلك التي قامت في الجزر عربية الطابع اسلامية المنحى (٣٩) .

شرق أفريقيا في عهد اليعاربة

لهم دور اليعاربة العمانيين في بناء الحضارة العربية الاسلامية بشرق أفريقيا ، ينبغي أن نسجل ظروف الساحل الاريقي أثناء السيطرة البرتغالية . ذلك أن البرتغاليين وفدوا الى ساحل أفريقيا الشرقي منذ عام ١٤٩٨ هـ وبقوا هناك حتى طردهم اليعاربة من الجزء الشمالى من ساحل الزنج أواخر القرن السابع عشر . وعندما جاء البرتغاليون أثناء دورانهم حول أفريقيا في طريقهم الى الهند لأول مرة على يد الملاح « فاسكودى جاما » ونزلوا الى الساحل الشرقى لافريقيا وجدوا الساحل عامرا ومزدهرا .

وقد شعر البرتغاليون أن مدن وممالك شرق أفريقيا العربية الاسلامية أكثر تقدما ورقيا بفضل وجود العرب والمسلمين بينما كان سكان غرب أفريقيا أقل بكثير من درجة التحضر رغم وجود سلطنات اسلامية ولكنها كانت داخلية وليست ساحلية مثل سلطنات مالى وصقار وغانا فلم يصطدم بها البرتغاليون المهتمون بالسواحل دون الدواخل ، كما فعلوا في شرق أفريقيا (٤٠) .

وقد اندهش البرتغاليون من تحضر مدن شرق أفريقيا ، فيذكر الملاح البرتغالى « دورات باربوسا » أنه ما إن وصلت المراكب الصغيرة التى كان يقودها « فاسكودى جاما » الى مدينة سفالة حتى فوجئت مفاجأة لم تكن تتوقعها ، فقد لقى البحارة البرتغاليون مالم يكن في حسابهم حين خرجوا يسيرون فى البحر ، لقوا موانئ تطن كخلايا النحل ومدنا ساحلية عامرة بالناس ، وغرخوا حين وجدوا بين رجال البحر عددا من البحارة العرب الذين انتشروا فى سفن هذه المنطقة ، وكانوا يعرفون من أجل ذلك تفاصيل موانئ ، وسجلوا هذه التفاصيل فى خرائط متقنة لاتقل فائدة عما كانوا يرسمونه هم من خرائط فى أوروبا .

ويضيف الملاح البرتغالى « باربوسا » فى حديثه عن شرق أفريقيا بأن

البرتغاليين رأوا على هذا الساحل الشرقى لأفريقيا مدنا آهلة بالسكان لاقتل نشاطا عن مدنهم في البرتغال ورأوا تجارة بحرية نافعة في الذهب والحديد والعاج والخرز والجلود والأقمشة القطنية كما وجد البرتغاليون عالما تجاريا أوسع من عالمهم الذى جاءوا منه وأكثر ثراء من بلادهم وحتى السفن التى وجدها البرتغاليون كانت أكبر من سفنهم وأضخم حجما حتى لقد عجب سكان الساحل الشرقى لأفريقيا من أين أتى البرتغاليون وكل البلاد عندهم معروفة (٤١) .

لم يكن البرتغاليون اذن يتوقعون مثل هذه الحياة المتحضرة في شرق أفريقيا ومن ثم فقد بهرتهم مدن الساحل و ثروتها وسجلوا ذلك في كتبهم قبل أن يدمروا تلك المدن المزدهرة ويحرقوا مزارعها ، فقد كتب أحد البرتغاليين عن مدينة «كلوة» ما يلى : هى ذات بيوت حسنة مبنية بالحجر والجص ، كثيرة الشبابيك على مثال شبابيكنا شوارعها منتظمة حسنة ، وسطوح بيوتها مستوية ، والأبواب من خشب منحوت مزخرف وصناعتها متقنة محكمة ، وحولها أنهار وبساتين وجنات تجرى فيها قنوات ماء عذب ، وفى هذه المدينة ذهب واقر وما من سفينة تأتى من « سفالة » أو تمر عليها الا وتقف في هذه المدينة كلوة (٤٢) .

كانت سياسة البرتغاليين في شرق أفريقيا اتخاذ هذه الجهات معبرا للوصول الى الهند ومن ثم أقاموا محطات عسكرية مسلحة في ساحل أفريقيا الشرقى محل المدن العربية التى خربوها ، واكتفوا بهذه المحطات دون اقامة المستعمرات ، ولذلك فقد ظهر أثرهم في شرق أفريقيا في ناحيتين :

الأولى : اتجاهمهم الى احتلال الساحل وعزله عن الداخل الذى كان يمدده بالسلع التجارية والتى كانت تصدر بدورها الى موانئ الخليج العربى والهند والشرق الأقصى .

والثانية : اتجاه البرتغاليين الى اثاره الحروب والمنازعات الأسرية بين حكام الساحل والهدف من ذلك أضعاف الزعماء والرؤساء ليؤول للبرتغاليين السيطرة في نهاية الأمر (١٣) .

وعندما سيطر البرتغاليون على ساحل افريقيا الشرقى اضطر كثير من العرب والمسلمين الى التوغل بعيدا عن الساحل خوفا من بطش البرتغاليين بهم . ومن ثم نشروا معهم الحضارة العربية الاسلامية بين القبائل الداخلية، وهذا أمر نكاد نلاحظه أكثر مايكون وضوحا بالنسبة لاعتداء البرتغاليين على المدن الصومالية مثل « مقديشيو » و « زيلع » و « بربرة » ، واتجاه المسلمين الى الداخل حيث انتشر الاسلام بين القبائل الصومالية بصفة خاصة (١٤) .

كما أن المؤرخين يعتبرون كشف طريق رأس الرجاء الصالح كان يشكل كارثة كبيرة بالنسبة الى مدن شرق أفريقيا المزدهرة اقتصاديا وعمرا ، ولذلك غانهم يحددون نهاية القرن الخامس عشر بأنه يسجل انهيار العصر الذهبي للحضارة الاسلامية على الساحل الشرقى لأفريقيا حينما أخذ البرتغاليون يعملون فيها معاول الهدم والتخريب (١٥) .

أما الصراع بين المدن العربية الاسلامية بشرق أفريقيا والذي أسهم البرتغاليون في اشتعاله واستمراره ، فقد نشأ بين معظم مدن الساحل يحركها في هذا الصراع الدوافع الاقتصادية والتجارية فضلا عن دوافع السيادة والرغبة في السيطرة على الساحل ومن أمثلة هذه الصراعات ما حدث بين « مالندى » و « ممبسة » حيث ادعى حاكم مالندى أنه من سلالة حكام المنطقة الساحلية منذ القديم ، بينما كان حاكم ممبسة من أقوى حكام الساحل سلطة ونفوذا (١٦) .

وحقيقة أن هذا الصراع كان موجودا قبل مقدم البرتغاليين ولكن

الأخيرين استفادوا منه واستغلوه في القضاء على الزعامات والكيانات العربية الإسلامية في المنطقة من أجل بسط سيطرتهم هم ، وإن كان انصراف بين هذه المدن ما يلبث بعد أن شعر أهلها بخطر البرتغاليين أن توقف من أجل الوقوف أمام بطش البرتغاليين والاستغاثة بأهلهم في عمان وبقيّة أنحاء الجزيرة العربية •

وكان ظهور اليعاربة كقوة عربية في عمان وقفت بصلافة ضد الوجود البرتغالي في منطقة الخليج العربيّ مشجعا لسكان شرق أفريقيا العرب على أن يطلبوا مساعدة بنى دينهم ، وغعلا بعث حكام كل من زنجبار وبمبا وغيرهما الى اخوانهم عرب عمان يطلبون منهم المعاونة ، وهكذا بدأ تدخل عمان في الصراع العربي البرتغالي في شرق أفريقيا واستطاعت دولة اليعاربة أن تقضى على سيطرة البرتغاليين في الشرق الاغريقي ، كما فعلت في عمان والخليج •

ويمكن لنا القول مع القائلين بأن هناك ثلاثة ركائز اعتمدت عليها دولة اليعاربة عندما انطلقت من عمان تبسط نفوذها على أقسام من سواحل المحيط الهندي في شرق أفريقيا وغيرها وهذه الركائز هي :

الركيزة الأولى :

نجاح الدولة في تكوين قوة بحرية كبيرة قادرة استطاعت بواسطتها مد نفوذها عبر البحار من ناحية ، كما استطاعت أن تحولها الى جسر يربط بين سائر مناطق الدولة ، في الخليج وشرق أفريقيا والمحيط الهندي من ناحية أخرى •

الركيزة الثانية :

التحدي الذي ترتب على الوجود البرتغالي في مناطق امتداد اليعاربة ، ولما كانت الدولة الجديدة قد نجحت في تحدي هذا الوجود

في الخليج والقضاء عليه ، فان هذا النجاح قد أغراها بمزيد من العمل على تعقبه خارج الخليج تدفعها الى ذلك روح دينية قوية للتخلص من السيطرة الأجنبية على أراض كان يحكمها العرب .

الركيزة الثالثة :

وهي تتصل بالحقبة الثانية : ذلك أن عرب الخليج والعُمانيين بالذات كانوا موجودين في تلك المناطق منذ وقت ذُويل حتى قبل الاسلام وأن جذورهم لم تكن قد تقطعت بعد مما كان باعثا لهم على العودة إليها (٤٧) .

وخلال فترة حكم اليعاربة في عمان والتي امتدت من عام ١٦٢٤ الى عام ١٧٤١ م . شهدت مياه الخليج العربي والمحيط الهندي صراعا طويلا وعنيفا بين العُمانيين والبرتغاليين انتهى لصالح العُمانيين والعرب بصفة عامة سواء باجلاء البرتغاليين من الخليج العربي أو بانتهاء النفوذ البرتغالي في ساحل الزنج من « رأس جردافون » شمالا الى « رأس دلجادوا » في الجنوب من الساحل ، وظهور الوجود العُماني في هذا الساحل .

وقد سبق اليعاربة في صراعهم هذا على الاهتمام ببناء اسطول كبير حربيًا وتجاريًا ، فلم يكتفوا بالسفن العربية المصنوعة محليا وانما حاولوا أن يجاروا الأساطيل الحديثة سواء بشراء السفن من الدول الأوروبية أو بمحاولة تقليدها في الصنع على قدر الوسائل المتوفرة ، وبهذا صارت بحرية عمان سيده المحيط الهندي خلال فترة من الوقت امتدت من نهاية القرن السابع عشر حتى أوائل القرن الثامن عشر (٤٨) .

وقد ذكر أن الامام سلطان بن سيف ثاني حكام عمان (١٦٤٩ —

١٦٦٨ م) امتلك اربعة وعشرين مركبا — وقيل ثمانية وعشرين فالكيا
أسماءها « الملك » « والفلك » « وكعب رأس » ، « الناصري »
« والوافي » . . . الخ وأن المركب الفلك فيه ثمانون مدفعا ، وبعض المدافع
أنته من الولاية (١٩) .

وقد نجح العمانيون أواخر الخمسينات من القرن السابع عشر في
الانتصار على البرتغاليين وطردهم من مسقط على يد الامام سلطان بن
سيف ، ومن ثم شرع في تتبع البرتغاليين في الهند وفي شرق أفريقيا مستجيبا
في ذلك لاستنجد المسلمين الذين تربطهم بالعمانيين وشائج مئينة منذ
القدم (٢٠) وشجع ذلك الانتصار على البرتغاليين في الخليج سكان
شرق أفريقيا على أن يطلبوا مساعدة بني دينهم ، وبهذا بدأ تدخل
عمان في الصراع العربي البرتغالي في شرق أفريقيا ، واستطاعت دولة
اليعاربة أن تقضى على سيطرة البرتغاليين في شرق أفريقيا كما قضت على
هذه السيطرة في كل من عمان والخليج العربي (٢١) .

وليس من شك في أن اتجاء عرب عمان الى تحرير سواحل شرق
أفريقيا انما يؤكد لنا عمق الروابط التي كانت تجمع بين عرب عمان
واخوانهم من شعوب ساحل الزنج ، وقد بلغ أعظم انتصار حازه
العمانيون على البرتغاليين في عهد الامام سيف بن سلطان اليعربي
حيث نجحهم في اخضاع ممبسة في ١٤ ديسمبر ١٦٦٨ م بعد حصار
عنيف دام ثلاثة وثلاثين شهرا سقطت خلاله أقوى قلعة أقامها البرتغاليون
في ساحل شرق أفريقيا (٢٢) . وجاءت نجدة العمانيين نتيجة لطلب ممبسة
« مما دفع بالامام سلطان بن سيف الى أن يرسل أسطوله الذي نجح
في الاستيلاء على ممبسة وطرد البرتغاليين منها ونصب عليها حاكما وذلك
عام ١٦٦٥ م ، وان كان البرتغاليون قد استطاعوا استرجاع سيطرتهم
عليها ونكلوا بأهلها (٢٣) .

وإذا كان البرتغاليون قد استعادوا سيطرتهم على ممبسة بعد عام ١٦٦٥ م وأسأوا معاملة سكان المدينة ، فقد استعادها منهم الامام سيف بن سلطان كما رأينا ١٦٩٨ م ، فان والده الامام سلطان بن سيف اتجه بعد حصاره لمدينة ممبسة الى جزيرتي زنجبار وبمبا وتمكن من تخليصهما من أيدي البرتغاليين الذين استبد بهم الغضب ، فقام القائد البرتغالي « كابريرا » بمهاجمة سكان هاتين الجزيرتين لمساعدتهم العمانيين ولكنه لم يستطع مواجهة العمانيين أنفسهم الذين استطاعوا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر من اقضاء البرتغاليين عن مستعمراتهم في شرق أفريقيا والتي كانت تمتد من جزيرة سقطره شمالا الى خليج دلجادو « جنوبا » (٥٤) •

وكان للتعصب الشديد والقسوة غير الانسانية التي لجأ اليها البرتغاليون في معاملة العرب والمسلمين في شرق أفريقيا دافع لهؤلاء العرب والمسلمين للثورة ضد البرتغاليين والاستغاثة باخوتهم العمانيين ، مما جعل الصراع مستمرا بين العمانيين والبرتغاليين حتى حسمه الامام سيف بن سلطان بالسيطرة على تلك الجهات بالاستيلاء على بات عام ١٦٧٩ م • وزنجبار وبمبا ، ثم ممبسة •

وترتبط ثورة ممبسة على البرتغاليين بالعلاقات التي قامت بينها وبين دولة اليعاربة في عمان ، فقد أدرك أهالي ممبسة أنه من الأفضل ان يحموا أنفسهم من البرتغاليين وذلك بالتجائهم الى قوة كبيرة يعتمدون عليها ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يلتجئوا الى عمان نظرا للعلاقات الوثيقة التي قامت بينهما وأن يطلبوا من امامها وضع بلادهم تحت حمايته . وكانت هذه خير فرصة انتهزها الامام سيف بن سلطان فبعث بأحد رجاله ويدعى محمد بن بسعيد العموري في عام ١٧٢٨ ليكون نائبا عنه في حكم ممبسة ، ونجح ذلك الرجل في اخضاع زنجبار وغيرها من مدن وجزر الساحل فأصبحت من توابع عمان اذ كانت تقوم بدفع الجزية

السنوية اليها ، ولم تلبث أن ظهرت السيادة العمانية بصورة واضحة على الساحل الشرقي لأفريقيا حيث امتدت من مقديشيو شمالا الى خليج دلجادو جنوبا (٥٥) .

وتعد شخصية الأمام سيف بن سلطان من أقوى شخصيات الأسرة اليعربية واليه يرجع الفضل في استقرار الوجود العماني بشرق أفريقيا ، وقد قال عنه السالمى : حارب النصارى في جميع الأقطار وعمل لهم مراكز عظيمة في البحر وعظم جيشه وقوى سلطانه ، وأخذ من النصارى ممبسة والجزيرة الخضراء وكلوة وباتا وغيرها من البلدان التي بها الزنج ومن البلاد التي بالهند (٥٦) .

وبهذا اتضح أن شرق أفريقيا أو ساحل الزنج كما كان يسمى يشكل عند اليعاربة العمانيين أهمية كبرى في بناء دولتهم سواء في الخليج العربى أو خارجه ، وترجع هذه الأهمية الى عاملين هما :

أولا : استقرار الوجود البرتغالى وتشكيله لتحديد سافر للوجود العربى الاسلامى على السواحل الشرقية الأفريقية .

ثانيا : الروابط الوثيقة التي ظلت تربط العرب المسلمين في شرق أفريقيا باخوانهم في عمان والتي لم تنقطع في أى وقت سواء قبل مجيء البرتغاليين الى هذه البلاد أو بعد مد نفوذهم عليها (٥٧) .

ومن ثم ماكادت السيطرة البرتغالية تنتهى في ساحل الزنج حتى أخذت السيطرة العمانية تتوطد ، فقد عين الأمام سيف بن سلطان على هذه الجهات بعض الأسرى العربى للحكم باسمه ، فعين أسرة الحارث على جزيرة زنجبار ، وأسرة النبهانى لحكم بات ، « وأسرة العمورى » لحكم ممبسة وتلتها أسرة المزروعى (٥٨) .

ويعتقد المؤرخون ان سقوط ممبسة بصفة خاصة في يد العمانيين عام ١٦٩٨ م باستخلاصها من البرتغاليين كان من الممكن أن يؤدي بالامام سيف بن سلطان الذي تولى الامامة عام ١٦٩٢ م الى تأسيس امبراطورية عربية عمانية على أنقاض امبراطورية البرتغاليين ، ويبدو أن تلك الفكرة قد دأبت خياله في يوم من الايام ، ولكن ضعف مركزه في الداخل — داخل السلطنة جعله يهمل تنفيذ ذلك المشروع ، وبذلك تأخر تأسيس الامبراطورية العربية الى نيف ومائة عام حينما قام بها سعيد بن سلطان البوسعيدى الذى حكم من عام ١٨٠٦ الى عام ١٨٥٦ م ^(٥٩) .

ولكن سيطرة عمان في عهد اليعاربة على ساحل شرق أفريقيا كانت سيطرة اسمية اذ أن المشكلات التى واجهتها الدولة في عمان نفسها ، وهى الصراع على السلطة ، جعل سيادة اليعاربة على ساحل الزنج « اسمية » . حيث لم يكن لدى الائمة الوقت الذى يتمكنون فيه من تفقد المدن الخاضعة لهم في شرق أفريقيا ، وكان الصراع على الحكم سببا من أسباب تفكك الدولة اليعربية وانهارها في عمان وشرق أفريقيا أيضا ، هذا الى جانب صراع اليعاربة مع البرتغاليين في الخليج العربى والشرق الأفرقى ، مما أنهك قواها وأضعف نفوذها وأنهى سيادتها في شرق أفريقيا ^(٦٠) .

وقد اعتبر الكثير من المؤرخين أنه كان في تولى محمد بن عثمان المزروعى الحكم في ممبسة تحت السيادة اليعربية العمانية ، بداية النهاية للسيطرة اليعربية في شرق أفريقيا ذلك أن الخلاف اشتد في عمان نفسها بعد وفاة الامام سلطان بن سيف عام ١٧٤١ م . مما أدى الى نشوب الحرب الأهلية بين قبائل الهناوية والغافرية ، أى بين عرب الجنوب وعرب الشمال مما أدى بالامام الى الاستعانة بالفرس ضد منافسيه على الامامة ، ولكن المفرض كانت لهم أطماع أخرى غير انقاذ الامامة ، وقد أدرك الامام تلك الأطماع مما دعاه الى الانزواء في الرستاق « عاصمته الدينية الى أن مات ، وبقيت « صحار » فقط تقاوم

الحكم الفارسي ، واستطاع حاكمها فيما بعد أن يؤسس دولة تعتبر من أقوى الدول التي حكمت عمان وشرق أفريقيا وهي دولة البوسعيد (٦١) .

وقد استفاد محمد بن عثمان المزروعى من سقوط حكم اليعاربة في عمان لكي يعلن انفصاله عن عمان بدعوى بأنه مازال على ولائه لليعاربة ويرفض التبعية لأحمد بن سعيد البوسعيدى ، وقد نجح المزروعى في إثارة العديد من المدن الإفريقية وأقنعها برفض تبعيتها للحكم الجديد في عمان، إلا أنه فشل مع مدن وجزر أخرى ظلت على ولائها لعمان تحت حكم البوسعيديين مثل زنجبار « وبات » « وكلوة » « وبركة » (٦٢) .

ونتساءل عن التأثير الحضارى لليعاربة العمانيين في شرق أفريقيا ؟

نستطيع أن نقول أن التأثير الحضارى العربى الاسلامى في الساحل الأفريقى الشرقى في عهد اليعاربة العمانيين قد تضاعف لعوامل سبقت الإشارة إليها كانشغال اليعاربة بالقضايا الداخلية في عمان ذاتها ، وصراع اليعاربة مع البرتغاليين سواء في الخليج أو في المحيط الهندى أو في ساحل أفريقيا الشرقى ، الى جانب سيطرة البرتغاليين على ساحل شرق أفريقيا ، مما يؤدى الى عدم ازدهار الحضارة العربية الاسلامية بشرق أفريقيا في عهد اليعاربة .

إلا أن احلال السيادة العمانية بدلا من السيطرة البرتغالية في عهد اليعاربة في ساحل أفريقيا الشرقى قد أسهم في عودة الازدهار الحضارى العربى الاسلامى ، ذلك أن تدخل عرب عمان في شرق أفريقيا لم يكن عاملا هاما في القضاء على السيطرة البرتغالية في ساحل شرق أفريقيا فحسب ، بل ان أهمية هذا التدخل تكمن في أنه أتاح للدين الاسلامى المناخ الصالح للانتشار دون عقبات (٦٣) .

إذا كان البرتغاليون قد تمكنوا في خلال المائتى عام التي قضوها

بنسرق أفريقيا في نشر العقيدة المسيحية على المذهب الكاثوليكي الذي يدينون به ، فان سقوط قلعة المسيح البرتغالية في مدينة « ممبسة » في ١٤ ديسمبر ١٦٩٨ م في رأى الكثيرين يعد عاملا هاما لا من حيث القضاء على السيطرة البرتغالية في شرق أفريقيا فقط وانما في اتاحة فرصة ملائمة لانتشار الاسلام هناك كذلك (٦٤) .

ورغم هذه الظروف التي أحاطت بساحل شرق أفريقيا في عهد اليعاربة العمانيين فقد امتدت مظاهر الحضارة العربية التي وضعت أسسها قبل مجيء البرتغاليين ، فالى جانب التجارة — وان صارت محدودة في نشاطها — استمر العرب يزرعون ويعلمون الأفارقة الزراعة فغرسوا عددا لا يحصى من أشجار جزيرة العرب وفارس مثل المانجو والرمان والاترج وقصب السكر وأدخلوا زراعة القطن والسهم الهندى والبهارات الهندية والأرز وأنوا بكثير من حيوانات بلدانهم كالإبل ، ومن ثم بقيت المدنية الاسلامية قرونا طويلة في هذه السواحل حتى أدخلها العرب الى الداخل في القرن التاسع عشر (٦٥) .

وخلاصة القول ان الحضارة العربية الاسلامية استمرت في ساحل شرق أفريقيا رغم محاولات البرتغال طمسها ، وكان لهذه الحضارة سند قوى في العمانيين سواء قبل اليعاربة أو أثناء حكمهم لعمان وشرق أفريقيا .

ولا يمكن التقليل مثلا من تعويد الأفارقة على الزراعة والاستقرار وبناء المساكن الحديثة وتعلم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم واعتناق الدين الاسلامى لأن ذلك التعود قد خلق تماسكا عربيا أفريقيا ظهر بوضوح حينما خاض العرب والأفارقة كفاحا مشتركا لتحرير سواحل هذه المنطقة من شرق أفريقيا ، وأعنى بها ساحل الزنج ، من الغزو البرتغالى ، ونتيجة للمحاولات الدائبة التي بذلها البرتغاليون لاستعادة سيطرتهم على المنطقة قدر سكان الساحل الشرقى من أفريقيا أهمية

انتجائهم الى عمان لحمايتهم من البرتغاليين ، حيث تم وضع الاساس لحكم عربى امتد على جزء كبير من سواحل شرق أفريقيا ^(٦١) .

شرق أفريقيا فى عهد البوسعيديين

بدأ حكم السادة البوسعيديين بأولهم أحمد بن سعيد فى عام ١١٥٤ هـ الموافق ١٧٤١ م والذى اتخذ من مدينة الرستاق « باقليم عمان عاصمة له » ، وخلفه ابنه « سعيد بن أحمد » منذ عام ١١٩٨ هـ الموافق ١٧٨٣ م — وهو عام وفاة الامام أحمد — وقد بقيت مدينة « الرستاق » عاصمة الدولة فى عهده أيضا ، وعند وفاته عام ١٢٠٣ هـ الموافق ١٧٨٩ م • — خلفه ابنه السيد حمد بن سعيد « حيث نقل العاصمة إلى مدينة مسقط » وعقبه تولى السيد « سلطان بن أحمد » من عام ١٢٠٦ هـ الموافق ١٧٩٢ م ، ثم خلفه السيد « بدر بن سيف » عام ١٢١٩ هـ الموافق ١٨٠٤ م ، ثم كان أعظمهم السيد « سعيد بن سلطان » الذى حكم من عام ١٢٢٢ هـ الموافق ١٨٠٦ م ^(٦٢) .

وقد واجهت دولة البوسعيد منذ نشأتها عدة صعوبات سواء فى عمان أو فى شرق أفريقيا ، فبينما ظهرت بعض المنازعات القبلية فى عمان واستمرت فى عهد الامام « أحمد بن سعيد » وفى عهد أبنائه ظهرت حركات انفصالية فى ممتلكات عمان الأفريقية فى (ممبسة) « وبات » و « مقديشو » ، وبقية المدن الواقعة فى الجنوب ، بينما بقيت كل من « زنجبار » « ومركة » و « كلوة » على ولائها لعمان وللسادة البوسعديين ^(٦٣) ، ومن هنا دار صراع طويل مرير من أجل تأكيد السيطرة العمانية فى ساحل الزنج وقد تم ذلك على يد السيد « سعيد بن سلطان »

ورغم ضعف السيادة العمانية على شرق أفريقيا قبل عهد السيد

سعيد بن سلطان « فقد حرص السادة البوسعيديون على انعاش علاقات التجارة بين عمان وشرق أفريقيا ومن ذلك أن الامام أحمد بن سعيد اكتفى بالعمل على تشجيع التجارة واستمرارها بين عمان وشرق أفريقيا ، فكان يرسل كل عام مجموعة من سفنه لتأتى له بالموارد الأفريقية من المقاطعات التي كانت تعترف له بالسيادة ، أما المقاطعات التي لم تعترف بسيادته فقد حرص على ألا يفرض سيادته عليها بالقوة خوفا من انقطاع انصالات التجارة بينها وبين عمان (٦٩) .

وعندما تولى سلطان بن أحمد اتجه الى تركيز السيطرة والسيادة العمانية الفعلية على مدن وجزر الساحل الافريقى بما كان يمتلكه من قوة بحرية تكونت من ٥٠٠ (خمسمائة) سفينة تتراوح حمولتها بين ٢٥٠ (مائتان وخمسين) الى ١٠٠٠ (ألف) طن عدا مائة ١٠٠ سفينة أخرى يمتلكها أهل « صور » . أما السفن الكبيرة المخصصة للحرب فلم ترد عن ثلاث ، ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن تنمو العلاقات بين مسقط وبين العالم الخارجى (٧٠) .

وعندما تولى السلطنة السيد سعيد بن سلطان من عام ١٨٠٦ — ١٨٥٦ م الموافق ١٢٢٢ الى ١٢٧٣ هـ (٧١) ، شهد المحيط الهندى قيام دولة عربية أفريقية كبرى امتدت من عمان الى شرق أفريقيا فى زنجبار أو ساحل أنزنج ، وإلى شخصية سعيد يرجع الفضل فى ذلك ، حيث كان حاكما عظيما فرض شخصيته على مسرح الحكم ، ووصفه أحد مترجميه بأنه استطاع بفضل العون الربانى الذى تفضل الله به عليه أن يخضع ملوك عصره ، وأن ينال العزة فى حروب خاضها ضد أعدائه ، ففتح بالسيف بلادا لم تكن معروفة وشق الطريق فوق هامات العصاه المقطوعة (٧٢) .

وكانت له مطامح كبيرة تمتد من منطقة الخليج العربى وجنوب ايران الى ساحل أفريقيا الشرقى وجزيرة مدغشقر ، فهو لم يكن شخصية

عادية ومن ثم استحق ما أطلقه عليه المؤرخون من صفات تصفه وتصف عصره في عمان وشرق أفريقيا بأن عصره يعتبر من أزهى العصور التي مرت بعمان وشرق أفريقيا خلال القرن التاسع عشر ان لم يكن أكثرها ازدهارا رغم الصعوبات الكثيرة التي واجهته في بناء الدولة .

وأما صفاته في رأى المؤرخين فانه اعتبر بلا شك أبرز الشخصيات في أسرة البوسعيد التي لعبت دورا بارزا في تاريخ عمان وشرق أفريقيا ، ولا نكون مبالغين اذا اعتبرناه من الشخصيات الهامة جدا في تاريخ العرب الحديث والمعاصر (٧٣) .

وقد اشتهر السيد سعيد بأنه « السيد البحار » اذ سافر مسافات كبيرة في البحر وكانت لديه شخصيا حوالى عشرين سفينة يستخدمها في تجارته الخاصة ، وكان يشعر بسعادة كبيرة وهو يقود سفينته التي تتقدم الأسطول والتي كانت تسمى « شاه علم » فلاعجب أن يولى اهتمامه بقوات السلطنة البحرية الكبيرة (٧٤) .

ونظرا لقوة السيد سعيد وقوة سلطنته في عهده فقد اهتم بشرق أفريقيا، بل انه نقل عاصمة حكمه من مسقط الى جزيرة زنجبار عام ١٨٣٢ م ، وان جاءت اقامته الدائمة في زنجبار العاصمة الجديدة في عام ١٨٤٠ م ، اذ ظل من عام ١٨٣٢ الى عام ١٨٤٠ م . منتقلا بين مسقط وزنجبار . ولاشك أن هناك دوافع كثيرة دفعت به الى الانتقال من مسقط الى زنجبار ، من ذلك أهمية جزيرة زنجبار باعتبارها مركزا وسيطا للتجارة وعمليات التبادل التجارى لمقاطعات الشرق الأفريقى هذا فضلا عما تتمتع به جزيرة زنجبار وغيرها من جزر ومقاطعات شرق أفريقيا من موارد كثيرة (٧٥) .

كانت هناك دوافع أخرى وراء انتقال السيد سعيد الى زنجبار ، منها أن جزيرة زنجبار تمتلئ بالتجار العرب الذين ينقلون منتجات شرق أفريقيا الى بلادهم وألى البلاد التي تطلبها ، كما أن السيد سعيد أراد أن يؤكد

نفوذه على منطقة الشرق الأفريقي وهذا أمر سهل له بعد العناء الذى واجهه
فى توطيد نفوذه فى عمان ، وقد نجح فى تأكيد نفوذه على ساحل الزنج بأكمله
بالقضاء دون كبير عناء على كل المناوئين لمشروعاته ، وبانتقاله الى زنجبار
نبدأ المؤثرات الفعالة فى تاريخ زنجبار وشرق أفريقيا بصفة عامة ، ووضع
الأسس السياسية والاقتصادية التى سترتب عليها مركز السلطنة (٧١) •

وقد وفد مع السيد سعيد الى زنجبار مئات من عرب عمان والجزيرة
العربية وبهم وبمن سبقهم من عرب وضحت المؤثرات الحضارية التى لم
تتوقف على أرض جزيرة زنجبار أو — ساحل الزنج فقط بل وضحت فى
داخل القارة وامتدت الى حوض نهر الكنگو • وقد تزايد عدد السكان العرب
تزايداً مطرداً خلال عهد السلطنة العربية • وكان عرب زنجبار يشكّلون
الطبقة الارستقراطية ، اذ كانت تقع فى أيديهم ملكية أكثر الأراضى • ويبدو
أن السيد سعيد حرص على أن يكون للعرب ذلك المركز الممتاز اذ تعتمد أن
يأخذ معه عند انتقاله الى زنجبار أغنياء العرب وأثرياء التجار (٧٢) •

وكان تزايد السكان العرب فى زنجبار مرتبطاً أشد الارتباط بموسم
هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية • حيث تصبح جزيرة زنجبار ملائمة
بالتجارة العرب الذين كانوا يفدون إليها من سواحل الخليج والجزيرة
العربية ، وكان يستتبع ذلك انتعاش الحركة التجارية ، اذ تصبح كثير من
مقاطعات الشرق الأفريقي فى موسم رائع من الحياة والمعاملات ، وكان أكثر
هؤلاء العرب هم عرب عمان الذين ازدهرت بهم السلطنة العربية فى زنجبار
بعد قدومهم إليها (٧٣) •

والآن نتساءل عما فعلته السلطنة العربية العمانية البوسعيدية بالنسبة
للبناء الحضارى فى شرق أفريقيا ؟

للإجابة على هذا التساؤل سوف نتناول النقطتين التاليتين •

١ — التأثيرات العربية فى ساحل أفريقيا الشرقى •

٢ — التأثيرات العربية فى الداخل •

أولا : التأثيرات العربية في ساحل أفريقيا الشرقى :

يرجع الى السلطنة العربية بشرق أفريقيا في عهد السيد سعيد وخلفائه من بعده الفضل في النهوض بالزراعة ، والمعروف أن تعويد الأفارقة على العمل بالزراعة تعويد لهم على الاستقرار ، والاستقرار أساس هام للبناء الحضارى ، وقد ازدهرت الزراعة في ساحل الزنج وجزره خاصة جزيرتى « زنجبار » و « بمبا » واشتهر من المزروعات القرنفل وقصب السكر ، حتى أن الجزيرتين المشار اليهما لاتزالان تقومان حتى الوقت الحاضر بامداد العالم بالجزء الأكبر من احتياجاته من القرنفل ، إذ يقدر ما تنتجه الجزيرتان من القرنفل بحوالى ٩٠٪ من الانتاج العالمى من هذا المحصول .

وحظيت التجارة بالاهتمام الاكبر للسلطنة العربية بشرق أفريقيا ، ولا عجب في ذلك فان سلاطين البوسعيد اعتمدوا الاعتماد الاكبر على التجارة في بناء السلطنة اقتصاديا بل وسياسيا وسيطروا بذلك على المحيط الهندى وساحل أفريقيا الشرقى بل وداخل القارة الافريقية حتى حوض نهر الكونغو ، وقد عمل العرب في عمليات النقل البحرى وتسيير القوافل التجارية على الساحل وانشاء المراكز التجارية على الأرض الأفريقية وهذه كلها وسائل حضارية تشجع على أن يرتبط بها ويحتك بها .

وفي هذا المقام فقد حرصت السلطنة العربية العمانية البوسعيدية على تحقيق اتصال بين اقتصاد شرق أفريقيا والاقتصاد العالمى عن طريق مجموعة من المعاهدات والاتفاقيات التجارية التى عقدها بعض السلاطين مع كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأوروبية مثل انجلترا وفرنسا وبعض الامارات الألمانية (٧٩) ، وكل هذه — المعاهدات قامت على أساس اعطاء الافضلية الأولى للدولة الأخرى .

وكان تطوير الشق الأفريقى من سلطنة عمان في عهد السيد سعيد

بن سلطان عامل جذب للقوى الأجنبية في العالم لحي تسعى الى تقوية علاقاتها بالسلطنة ككل تحصل على متجر في شرق أفريقيا بصفة خاصة ، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية أهم القوى الأجنبية وأكثرها الى فتح أسواق زنجبار أمام التجار الأمريكيين لبيع المنتجات والسلع الأمريكية من ناحية ولشراء المنتجات والسلع المنتجة في الشق الأفريقي من سلطنة عمان من ناحية أخرى •

وقد تم توقيع الاتفاقية التجارية بين سلطنة عمان والولايات المتحدة الأمريكية في ٢١ سبتمبر ١٨٣٣ م ، وكانت أول اتفاقية تجارية يعقدها السيد سعيد بن سلطان مع دولة كبرى ، وقد صارت تلك الاتفاقية المثل الذي سارت على منواله معاهدات السلطنة مع كل من بريطانيا عام ١٨٣٩ م ومع فرنسا ١٨٤٤ م • وقد ظلت الاتفاقية الأمريكية العمانية سارية المفعول حتى عام ١٩٥٨ م حين أبطل مفعولها واستبدلت بمعاهدة جديدة للصدقة الاقتصادية والحقوق القنصلية بين الطرفين •

وقد جعلت الاتفاقية التجارية العمانية الأمريكية السيد « سعيد بن سلطان » يشعر بأهميته وبقدرته على الدخول في اتفاقية كبرى ، وبأنه قادر على عقد اتفاقية مع دولة تشعره بالندية ويستند اليها في مواجهة القوى الكبرى خاصة إنجلترا وفرنسا في تحقيق نفع له ولسلطنته تكسبه مكانة دولية وتكسب السلطنة اعترافا دوليا •

وعلى الجانب الأمريكي فقد كان وقع الاتفاقية عند الرئيس أندرو جاكسون والمسؤولين الأمريكيين طيبا ، حيث أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية مرتبطة بصدقة إحدى القوى — الآسيوية الأفريقية التي تفخر بامتلاكها أسطولا أكبر من الأسطول الأمريكي ، اذ كان أسطول السلطنة مكونا من حوالي ٧٥ سفينة مختلفة الأحجام كل منها مزودة بعدد من المدافع بين أربعة وستة وخمسون مدفعا ، كما أن السفن

العمانية التجارية — وكما لاحظها المبعوث الأمريكى الى زنجبار « روبرتس »
تبحر شرف الى الهند وسيلان وجاوة الى جانب موانى شرق أفريقيا •

وقد أدت الاتفاقية الأمريكية العمانية التجارية الى ازدهار التجارة
الأمريكية فى ممتلكات السلطنة الأفريقية أكثر من ازدهارها فى مقر السلطنة
بمسقط ، اذ تزايد عدد السفن الأمريكية التى ترسو فى زنجبار والتى تحمل
تماشيا قطنيا أمريكيا متينا سرعان ما تناع استعماله فى شرق أفريقيا والخليج
العربى والجزيرة العربية • الى جانب الملاءات والشراشف القطنية والآنية
المنزلية والبنادق والبارود ومخزونات السفن والساعات والأحذية . وفى
المقابل تحمل من زنجبار القرنفل والمعاج وحمغ الكوبال الراتينجى الذى
يستخدم فى تحضير الطلاء ولب جوز الهند المجفف والتوابل (٨٠) •

وكان هدف السيد سعيد بن سلطان من عقد معاهدات مع الدول
الأجنبية الى جانب ما سبق أن ذكرناه هو تنمية موارد شرق أفريقيا
واستغلال امكانيات هذه المناطق ، ومن ثم إنشاء امبراطورية عربية بشرق
أفريقيا ، وان حال دون ذلك ظهور المطامع الأوروبية لاستغلال وامتلاك
أراض فى أفريقيا وخاصة فى الجانب الشرقى منها ، ومن ثم زحف على
هذا الجانب رجال الاستعمار الأوروبى من مستكشفين ومبشرين وتجار •

ومهما يكن فقد نجح السيد سعيد بن سلطان فى أن يترك بصماته
الحضارية فى زنجبار ، ومعروف أن شهرة السيد سعيد فى العالم الخارجى
انما ترجع الى حكمه فى زنجبار أكثر مما ترجع الى حكمه فى عمان ،
ولاشك أن النواحي الاقتصادية وما يتبعها من حركة مرور القوافل بين
الداخل والساحل كانت من أبرز ما تميزت به سلطنة زنجبار ، كما كانت
سلطنة زنجبار فى عهده ، وفى عهد خلفائه من بعده عاملا هاما فى ادخال
المؤثرات الحضارية الى مجاهل القارة الأفريقية (٨١) •

ثانيا : التأثيرات العربية داخل أفريقيا :

. لبيان التأثيرات العربية والاسلامية التي كان للعمانيين وسلطنتهم البوسعيدية في زنجبار الدور الأكبر في وجودها ، ولتفصيل ذلك علينا أن نتناول النقاط التالية :

- ١ — المراكز العربية داخل أفريقيا .
- ٢ — امتداد السلطنة حتى الكنفو .
- ٣ — مساعدة المستكشفين الأوروبيين .
- ٤ — الدور المصري والدور العماني في شرق أفريقيا .

١ — المراكز العربية داخل أفريقيا :

رغم وجود السلطنة العربية العمانية البوسعيدية في شرق أفريقيا فان العرب الذين توغلوا داخل القارة التجارة وكونوا جاليات متناثرة في هذه المناطق حتى حوض نهر الكنفو لم يعتنوا باقامة كيانات سياسية تخضع تلك البلاد وأهلها لتنظيمات سياسية أو تلحقها بالسلطنة العربية على الساحل ، وقد اختلف العرب في ذلك عن الأوروبيين الذين كان رجالهم يضعون أيديهم على مساحات كبيرة من الأراضي يحكمونها ويضعون فيها حاميات عسكرية وينشئون فيها قلاعاً مسلحة ، ويستغلون الأهالي والأراضي ويحتكرون تجارتها وهم يستندون في نشاطهم هذا الى تأييد دولهم القوية وحمايتهم (٨٢) .

واذا كانت الجماعات العربية داخل أفريقيا قد أهملت اقامة نظم سياسية — امارات أو سلطنات أو ممالك — فانها نجحت في اقامة تنظيمات تجارية بايجاد خطوط منتظمة من القوافل تصل بين ساحل أفريقيا الشرقي والداخل وأصبحت زنجبار بمثابة المركز الرئيسي للتجارة . وعن طريق رحلات العرب الى الداخل وتأمين طرق القوافل بين الساحل والداخل

والعكس ظهرت محطات ومستوطنات عربية عديدة على طول الخطوط التجارية التي كانت تطرقها قوافل التجارة العربية •

وقد نجحت القوافل التجارية أن تمتد نشاطها من الساحل باتجاه الداخل حيث وصلت الى وسط وغرب أفريقيا ، اذا وصلت هذه القوافل الى المناطق التي بها بحيرات وسط أفريقيا مثل « نياسا » و « تنجانيقا » و « فيكتوريا نيانزا » كما وصلت الى أعالي نهري النيل والكنغو بحثا عن العاج ، وكانت هذه الصفة التجارية التي طبعت العرب في الساحل والداخل امتدادا من سلطنة زنجبار قد حالت دون قيام غواصل حادة تحدد مدى اتساع السلطنة في الداخل •

كانت المراكز والمستوطنات العربية داخل افريقيا اذن تخضع بصورة أو بأخرى أو مباشرة أو غير مباشرة للسلطنة العمانية البوسعيدية ، وقد سجل لنا التاريخ أن سلطان زنجبار كان يعين حكاما محليين من أهالي البلاد • يدينون له بالتبعية والولاء ، وفي بعض الأحيان يرسل بحكام من العرب أو السواحليين مع حامية قليلة العدد يعمل الحكام على زيادة عددها باستخدام السكان المحليين بحيث يتم حفظ نفوذ السلطان وسيطرته •

وقد ساعدت تلك المراكز والمستوطنات في عملية التبادل التجاري ، ومن ثم نشطت حركة القوافل وازدهرت المراكز والمستوطنات من النواحي الاقتصادية والعمرانية أو بمعنى أكبر من الناحية الحضارية بصورة لفتت انتباه المستكشفين الأوروبيين ، وقد شجع على ذلك استقرار الأمر في هذه المناطق الداخلية المرتبطة بنفوذ سلطنة زنجبار ، كما ساعد عليه أيضا أن السلطنة لم تفرض مكوسا عالية على التجارة بين الساحل والداخل وانما جعلت هذه المكوس قليلة جدا ، وذلك ايمانا من السلطنة بأهمية التبادل التجاري في البناء الحضارى لتلك المنطقة •

وقد ارتبط بالنشاط الاقتصادي داخل أفريقيا اتساع نفوذ سلطنة زنجبار العربية العمانية البوسعيدية في تلك الأصقاع سواء على الساحل أو في الداخل ، فنجد السلطنة في عهد السيد سعيد بن سلطان على سبيل المثال تسيطر على الساحل الشرقي لأفريقيا لمسافة قدرت بأكثر من (١٦٠٠ كم) ألف وستمائة كيلو متر ممتدة من مدينة « مقديشيو » شمالا الى مدينة « سفالة » جنوبا ، كما امتد نفوذها أيضا داخل القارة حتى وصل الى حوض نهر الكنگو والى أوغندة والى روديسيا .

وقد انتشرت في كل ممتلكات السلطنة بين الساحل والداخل شبكة من خطوط القوافل التجارية وقد شملت هذه الخطوط كلا من شواطئ بحيرات « نياسا » و « تنجانيقا » و « فيكتوريا » وتحمل معها نفوذ السلطنة السياسى ، بل وشملت أيضا الأجزاء الشرقية من الكنگو ، والمنطقة المحيطة بالبحيرات العظمى بوسط أفريقيا ، حتى قيل : انه حينما يلعب أحد على المزمار في زنجبار يرقص الناس طربا على البحيرات (٨٣) .

وعلى الرغم من أن سيطرة سلطنة زنجبار العربية العمانية البوسعيدية لم تكن لها سوى سيطرة اسمية داخل أفريقيا خاصة كلما بعدت المستوطنات والمراكز العربية وتوغلت في الداخل ، الا أن التقارير التى كان يبعث بها الرواد والمبشرون الأوروبيون الى الجمعيات التبشيرية أو الجغرافية الموقدون من قبلها أشارت الى أهمية خطابات التوصية التى كانوا يحرصون على الحصول عليها من سلطان زنجبار لأن عرب الداخل وغيرهم من رؤساء الولايات الأفريقية كانوا يحترمون الأوامر والتعليمات التى تصدر اليهم من حكام السلطنة العربية في زنجبار (٨٤) .

ومما تجدر ملاحظته أن العرب في توغلهم داخل أفريقيا صادفوا مجتمعات بدائية كما صادفوا مجتمعات منظمة ، ورغم ذلك فإن العرب اهتموا بالنواحى الاقتصادية وإن كان بعضهم قد تقلد بعض المناصب

السياسية في البلاد الداخلية إلا أن السيطرة بقيت في معظم الأحوال بيد
انزعماء الأفارقة • كما نلاحظ أن العرب كانوا عنصرا هاما من العناصر
التي حملت لواء الحضارة الى أواسط القارة الأفريقية •

ولأن العرب اهتموا بالتجارة فقد نظموا قوافل لتبادل السلع
التجارية بين الداخل والساحل ، وأقاموا مستودعات لخزن بضائعهم ،
ولم يحاولوا في كثير من الأحيان إخضاع القبائل الأفريقية بالقوة أو التسلط
عليهم عن طريق السيطرة على أراضيهم وإنما حرص العرب على توثيق
العلاقات التجارية بينهم وبين زعماء القبائل الأفريقية — والتعامل معهم في
حدود هذه العلاقات • وإن كان العرب قد أسهموا عن طريق التجارة
والزراعة التي أدخلوها الى أواسط أفريقيا ، في أحلال الأمن بدلا من الفوضى
والاضطراب وأن كثيرا من قبائل البانتو قنعت بالعيش حول المراكز التي
أنشأها العرب وتحت حمايتهم (٨٥) •

وقد سجل المستكشفون الأوروبيون وغيرهم من المؤرخين الذين اهتموا
بشرق أفريقيا كيف أن العرب كانوا أول من حاول استكشاف مناطق شرق
وأواسط أفريقيا ، وأن المستكشفين ساروا في الخطوط التي خطها العرب
لقوافلهم بالأمن الذي ضمنه العرب على طول هذه الخطوط وفي المحطات
والمراكز والمستوطنات سواء في « أوجيجي » أو في بجمايو « أو أوزانجا »
أو « طابورة » أو « جازنجا » بل أن أحد التجار العرب المولدين من أب
عربي وأم أفريقية عرف باسم « سنائ بن عامر » سيطر في عام ١٨٥٢ م
على المنطقة الممتدة من « طابورة » الى « كمبالا » في اقليم « بوغندة »
ومما يذكر أن ملك بوغندة قد رحب بالعرب ترحيبا كبيرا واستعان بهم في
التغلب على خصومه ومنافسيه في مملكة أونورو (٨٦) •

٢ — امتداد السلطنة الى الكنفو :

ارتبط الوجود العربي في الكنفو بالمراكز والمستوطنات العربية التي
امتدت من ساحل أفريقيا الى الداخل كما ارتبط بسلطنة زنجبار العربية

العمانية البوسعيدية ، وارتبط أيضا بشخصية عربية عمانية أكدت هذا الوجود العربى العمانى ودعمته وحققت دورا فى البناء الحضارى العربى فى تلك الجهات . هذه الشخصية عرفها المستكشفون الأوروبيون وعرفها الزعماء الأفارقة فى وسط أفريقيا هو « حميد الدين المرجبى » الذى عرف باسم آخر واشتهر به هو « تيموتيب » .

وينتمى « حميد الدين » الى قبيلة « المراجعة » العمانية التى رحلت إلى شرق أفريقيا أثناء حكم اليعاربة وساهمت فى تصفية الوجود البرتغالى بساحل الزنج ، وقد ولد حميد الدين أثناء سلطنة السيد سعيد بن سلطان البوسعيدى (بين سنتى ١٨٣٠ : ١٨٤٠ م) ومن ثم ظهر نشاطه الاقتصادى والسياسى فى عهد خلفاء السيد سعيد وهما « ماجد » و « برغش » ابنى سعيد .

ورغم أن حميد الدين نشط اقتصاديا وسياسيا فى مناطق « أوجيجى » تحت سيادة سلطنة زنجبار العربية ، فإن نشاطه فى الكنفو كان أكثر ظهورا وأطول أمدا . اذ شهد عام ١٨٧٠ قيام حميد الدين بقيادة حملة لضم المناطق الواقعة بين فرعين من غرور الكنفو فى مقاطعة « أوتيرا » حيث أخذ يمارس سيطرة سياسية وتجارية مباشرة وضحت فى فرضه الضرائب وقيامه بدور التحكيم فى المنازعات التى تنشب بين القبائل ، كما أعطى لنفسه حق عزل الرؤساء وتعيين الأوصياء ، ومن ثم صارت قوته يحسب لها حسابها فى مقاطعات كثيرة من أواسط أفريقيا (٨٧) .

وقد استعان السيد « برغش بن سعيد » أثناء حكمه للسلطنة فى زنجبار بحميد الدين فى تأكيد نفوذ السلطنة داخل القارة ، خاصة عندما بدأ ملك بلجيكا « ليوبولد الثانى » القيام ببناء مستعمرة شخصية فى حوض نهر الكنفو كعملية فردية أكثر منها عملية قومية يشرف عليها هو كرجل ماهر محب للمغامرة ورأغب فى تأسيس تلك المستعمرة الشخصية فى حوض نهر الكنفو تحقق مطامحه الاستعمارية بأسلوب هادئ لا يثير ضجيجا .

(م ١٢ — ندوة الدراسات ج ٣)

وقد استعان ليوبولد بالمستكشف الأمريكى الأصل الانجليزى النهوية (ستانلى) لكشف حوض نهر الكنفو تحت ستار جمعية الكنفو الدولية التى أسسها ليوبولد عام ١٨٧٨ م . ، والتى أعقبت ما سميت بالجمعية الدولية لكشف وتمدين أفريقيا . وكانت الجمعية الدولية للكنفو تحت رئاسة وتمويل الملك ليوبولد نفسه ووكيلها فى أفريقيا ستانلى . الذى كان عليه عقد معاهدات مع زعماء المنطقة يعترفون غيها بحماية الجمعية الدولية للكنفو حتى تستطيع الجمعية أن تثبت أمام مؤتمر برلين عامى ١٨٨٤ / ١٨٨٥ م أنها مهيمنة بالفعل على حوض نهر الكنفو كله (٨٨) .

نتيجة لنشاط « ستانلى » فى الكنفو خشي السيد « برغش » أن تتحول التجارة فى أواسط أفريقيا من الساحل الشرقى حيث تسيطر سلطنته العربية الى الساحل الغربى حيث سيطرة الملك ليوبولد ، وقد طلب من حميد الدين التوسع فى الكنفو ووسط أفريقيا باسم سلطنة زنجبار العربية ، وقد نجح حميد الدين بالفعل خاصة بين عامى ١٨٨٣ و ١٨٨٦ م حيث أكد نفوذ السلطنة فى الكنفو وحاول أن يقرن النفوذ الاقتصادى للعرب فى تلك الجهات بتنظيم سياسى يتبع السلطنة فى زنجبار ويدين لها بالولاء ونتيجة لمحاولاته هذه نجح فى السيطرة على معظم مقاطعات الكنفو وعين وكلاء للعمل فى هذه المناطق لاقرار الامن وتحصيل الضرائب من القبائل التى تدين له وللسلطنة بالولاء (٨٩) .

ولكن حميد الدين تعرض للمؤامرات الاستعمارية كما تعرضت سلطنة زنجبار لها فبينما اعترف مؤتمر برلين فى قراراته التى صدرت فى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ م بحياذ الكنفو وسلطة بلجيكا عليه ، واطرار مبدأ حرية التجارة والملاحة — للأوروبيين بالطبع فى حوض نهر الكنفو الواقع تحت المطامع البلجيكية (٩٠) ، بدأت انجلترا تضغط على سلطنة زنجبار العربية من أجل تقليص الوجود والسلطة العربية بشرق أفريقيا واقتسام

ممتلكات السلطنة على الساحل وفي الداخل ، تلك العملية التي حدثت بالتعاون بين انجلترا وألمانيا عام ١٨٨٦ م .

وقد أدرك السلطان « برغش » قرب وقوع مؤامرة اقتسام ممتلكات السلطنة في شرق أفريقيا قبل وقوعها بعشر سنوات (عام ١٨٧٦ م) حيث عرف القوى التي تسعى للوثوب على شرق أفريقيا ، وعرف أن عبارات (الانفتاح) « والتمدين » « والتنمية » التي يطلقها الأوروبيون ، كهدف يسعون اليه بالنسبة لتلك المناطق الأفريقية . عن طريق رجالهم من علماء ومستكشفين ورجال أعمال ، انما هي ادعاءات تقوم على أن « تمدين » تلك المناطق الأفريقية المتخلفة أمر واجب نحو أهلها ، وأنه اذا لم يكن السلطان العربي — برغش — قادرا على حماية تلك المناطق فان دولة أوروبية أو أخرى على استعداد لبذل التضحيات لتحقيق ذلك الادعاء .

ونتيجة للمؤامرات الاستعمارية في الكونغو وفي شرق أفريقيا على حساب سلطنة زنجبار العربية تقلص نشاط حميد الدين المرجبي في الكونغو ووسط أفريقيا ، بل انه قد فقد سنده الأكبر ، وأعنى به سلطنة زنجبار ، التي تقلص نفوذها منذ عام ١٨٨٦ م . ومع ذلك فقد حاول الاحتفاظ بالوجود العربى في الكونغو أمام ضغط دولة الكونغو الحرة ، وقد اضطر للتعاون مع هذه الدولة عام ١٨٨٧ م وقبل وظيفة حاكم عام على الكونغو بمرتب ثلاثين جنيها شهريا على أن يرفع علما خاصا وأن يوافق على قبول موظف بلجيكي يعاونه في مباشرة اتصالاته الخارجية^(٩١) ، وفي مقابل ذلك يقدم حميد الدين مساعداته لحملة ستانلى المتوجهة لانقاذ أمين باشا حاكم مديرية خط الاستواء السودانية .

ورغم أن البلجيكي مالبيثوا أن عزلوا حميد الدين من وظيفته وقضوا على حركة أنصاره واستولوا على تجارته ومراكزه ، فانهم أى البلجيكي استفادوا من سياسة حميد الدين في تلك المناطق . حيث أخضع القبائل

العربية والأفريقية والمناوئة ، كما استفادوا من سياسته في انشاء كثير من الأعمال العمرانية كمد السكك الحديدية وانشاء الطرق . واتباع نظام دقيق للنقل النهري . والاستفادة من التقدم المادى الذى أحرزه العرب . وان كان العرب قد فقدوا بعزل حميد الدين وانتقاله الى زنجبار حيث توفى ودفن هناك ، دورهم المجيد الذى غاموا به فى الكنفو ليحل محله دور الاستعمار الأوروبى ببعثاته التبشيرية ورجال أعماله المستغلين .

ولا ينتهى حديثنا عن دور العرب والعلمانيين منهم بصفة خاصة فى الكنفو دون أن نبرز تأثيراتهم الحضارية فى تلك الجهات . فيذكر الأمير شكيب أرسلان على لسان أحد الكتاب البلجيكيين الذين زاروا الكنفو وأحسوا بالتأثيرات العربية هناك حتى بعد انتهاء دولة حميد الدين . أن التجار العرب مازالوا أكبر التجار هناك ولهم علاقات مع عرب زنجبار وعرب أوغندة وعرب المستعمرات الألمانية بشرق أفريقيا ، وأن العنصر العربى لايزال عظيما فى جهات « كاسونجو » حيث ترى العرب يلبسون جببا بيضاء ويتلفعون بكوفيات مطرزة تطريزا بديعا ، سيماهم تدل على الكرامة والوقار ، وحركاتهم وسكناتهم مقرونة بالأدب التام والكياسة المتناهية والرصانة الفائقة (٩٢) .

ويضيف الأمير شكيب أرسلان مسجلا تقرير الكاتب البلجيكى عن الحضارة العربية فى الكنفو بأن أبواب المنازل وشبابيكها كلها منقوشة وعلى الأبواب كتابات عربية هى آيات من القرآن الكريم ، والمدن جميلة ونظيفة والمسحة العربية بادية عليها . وعادات العرب فى الكرم واضحة ويقدمون القهوة العربية ، وقد لاحظ الكاتب البلجيكى أن هناك عربا خلص ومستعربين وهناك أيضا سواحليون سماهم زنجباريين (٩٣) .

وسجل الأمير شكيب أرسلان أيضا رواية سجلها رحالة سويدي زار الكنفو عام ١٨٨٦ م . وتقول فى مدينة « يانجوا » : فذكر أنها مقر

العرب الأصلى وبها أفخر المزارع وجميع الأشجار المثمرة مجلوبة من
أفريقية الشرقية ، واتخذ العرب فيها كذلك المواشى والحمير الفارسة
للركوب .

وأضاف أن هناك نهرا يتفرع من نهر الكنفو ويمتد نحو ٣١٥ كيلو مترا
وعلى جانبه توجد قرى يسكنها عرب ومستعربون : ووصف العرب
بالنظافة والالتقان في العمل . وأن المستعربين والعبيد الذين يخدومونهم
يشكلون قرى نظيفة تحيط بها مزارع أرز . واسعة : وهناك (كتاتيب) تعلم
الصبية القرآن الكريم ، والأهالى العرب عنصر جيد في الكنفو لأنهم قائمون
بالزراعة مدنيون (متحضرون) بطبعهم ولديهم ميل إلى التعامل مع
الجنس الأبيض أى الأوروبيين ، ويبيعون سلعهم في الأسواق التى تنتشر في
المدن الكونجولية ، وقد تعامل معهم في مدن « ستانلى فيل » « وبونتيارفييل »
و « لوكاندوا » و « كيرونندو » : وغيرها (٩٤) .

٣ — مساعدة المستكشفين الأوروبيين :

يمثل الاتجاه لاستكشاف أفريقيا مرحلة هامة في استعمار القارة
الأفريقية ، وقد استفاد المستكشفون الأوروبيون من التقدم العلمى
والطبقى والأوروبى في اتمام عملية الكشف التى استغرقت حوالى قرن من
الزمان تقريبا من عام ١٧٧٠ م الى ١٨٧٥ م حيث تم في هذا العام الأخير
اكتشاف جميع أحواض أنهار أفريقيا : ومن ثم تمهد الطريق أمام الدول
الأوروبية لاستعمار القارة .

وكانت الدول الأوروبية والشركات التجارية الأوروبية والكنيسة
المسيحية وراء المستكشفين الذين ارتادوا أفريقيا لاستجلاء الغموض المحيط
بهذه القارة ، ولمعرفة مسالكها ودروبها ومصادر خيراتها ولنشر الديانة
المسيحية بين أهلها ، ولكن يجب أن ندرك أن هذه المعرفة قد أفادت في
المقام الألى قوى الاستعمار الأوروبى (٩٥) .

وقد حظى الجانب الشرقى من أفريقيا باهتمام المستكشفين والمبشرين الذين كان غالبيتهم من الانجليز ، وذلك منذ أن نزل « جيمس بروس » الانجليزى فى الحبشة عام ١٧٧٠ م واكتشف بحيرة تانا وخروج النيل الأزرق منها .

ولقد لقي هؤلاء المستكشفون والمبشرون الأوروبيون من السلطنة العربية العمانية البوسعيدية كل عناية ومساعدة ، فكان السيد سعيد على سبيل المثال يبعث هؤلاء الأوروبيين بخطابات توصية للرؤساء التابعين له فى الداخل لكى يعاملوهم أحسن المعاملة ويساعدوهم فى تحويل الوثنيين الى معرفة الله .

وقد نجح العديد من المبشرين فى تأسيس مراكز تبشيرية فى الداخل ، كذلك نجحت إحدى البعثات التبشيرية الفرنسية فى تأسيس مستشفى ومدرستين لتعليم أبناء الزوج من المقاطعات التابعة لسلطنة زنجبار ، كما حذا الانجليز حذو الفرنسيين فى ممارسة بعض أنواع من النشاط التبشيري (٩٦) .

كما أن كلا من « رينشارد بيرتون » و « سبيك » وهما بريطانيان ، أشادوا بمعاملة السيد سعيد بن سلطان لهما وتقديره المساعدات التى كفلت لهما بدء رحلتهما الاستكشافية فى شرق أفريقيا عام ١٨٥٦ م حيث بدأ رحلتهما من ساحل أفريقيا الشرقى المواجه لزنجبار باتجاه منابع نهر النيل العليا (٩٧) ، وفى مدينة ممبسة وغيرها من المدن التى تخضع لنفوذ العرب وقد جمعا معلومات عن جبال كينيا المعروفة بالقمم الثلجية وعن البحيرة العظمى التى أطلق عليها فيما بعد بحيرة فيكتوريا نيانزا ، وغيرها من بحيرات وسط أفريقيا مثل « تنجانيقا » و « نياسا » .

وقد عاد المستكشفان البريطانيان « بيرتون وسبيك » مرة أخرى الى شرق أفريقيا عام ١٨٦٠ م ، حيث أمدتها السلطنة العربية العمانية

البوسعيدية في زنجبار بقوة عسكرية لحمايتهما كما أمدتها ببعض الأدلاء ان عرب الذين يعرفون مسالك ودروب مناطق شرق أفريقيا ، وقد وصلا الى « أوجيجي » على بحيرة « تنجانيقا » التي كانت من أعظم المستوطنات العربية حيث كانت تنتهي عندها احدى طرق القوافل الرئيسية (٩٨) .

وقد تحدث سبيك بخفة خاصة عن المحطات التجارية التي أنشأها العرب هناك ، وذكر أنه قضى بضعة أيام في منزل عربي وتمتع بالكرم العربي الأصل ، وأكد أنه بوجوده وسط جماعات عربية شعر أنه يعيش في بلاد متحضرة .

وكان المستكشف الانجليزي « لفنجستون » أكثر تقديرا لدور العرب وسلطنة زنجبار العمانية البوسعيدية في بناء حضارة شرق أفريقيا : واعترف بالمساعدات الكبيرة التي قدمت له من قبل السيد ماجد بن سعيد سلطان زنجبار في عام ١٨٦٥ م ، وكان السيد ماجد قد استقبل لفنجستون استقبالا طيبا ، وزوده بكثير من خطابات التوصية الى الرؤساء العرب التابعين له في الداخل (٩٩) .

وكان « لفنجستون » قد بدأ نشاطه الكشفي منذ عام ١٨٤١ م من مدينة الرأس بجنوب أفريقيا ، وقد اتبع سياسة مصادقة الأهالي الأفاقة وكسب ودهم بما كان يقدمه لهم من خدمات بتعليمهم الحرف والقراءة والكتابة بل ودعوتهم لاعتناق المسيحية ، والوقوف الى جانبهم ضد استغلال البيض الأوروبيين لهم . وقد استمر نشاط لفنجستون حيث اكتشف نهر الزمبيزي وعبر القارة عام ١٨٥٤ م من الغرب الى الشرق عن طريق نهر الزمبيزي .

وقد عاد لفنجستون الى أفريقيا مرتين ، الأولى بين عامي ١٨٥٨

و ١٨٦٤ م بتكليف من قبل الحكومة الانجليزية بصفته قنصلا لها في الساحل الشرقي لأفريقيا ، بأن يترأس بعثة كشفية يكون نشاطها شرق ووسط

أفريقيا وفي المرة الثانية التي عاد فيها لفنجستون كانت بين عامي ١٨٦٦ و ١٨٧٣ م على تكليف من الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية حيث وصل الى بحيرة « نياسا » فبحيرة تنجانيقا ثم الى أوجيجي حيث توفي هناك عام ١٨٧٣ م (١٠٠) .

وقد استفاد لفنجستون من سلطنة زنجبار ونقوذا في شرق ووسط أفريقيا بل وفي الكنفو ، كما استفاد من الأدلاء العرب في كشف المناطق والأراضى التي كشفها ، وأشاد بكل هذه المساعدات : كما أشاد بما قدمه له حميد الدين المرجبي في الكنفو من مساعدات ومعلومات عن الطرق الآمنة والمسالك المأهولة بالسكان المتحضرين والمحطات العربية في هذه الجهات .

كما أن الرحالة الأمريكي المولد « ستانلى » البريطانى الهوية قد اشترك مع لفنجستون في استكمال كشف بحيرة تنجانيقا عام ١٨٧١ م ، وكان ستانلى قد أرسل من قبل صحيفتى « النيويورك هيرالد » ، « والدبلى تجراف » لكشف مابقى في أواسط أفريقيا من أراض لم تكتشف بعد .

وعندما اخترق ستانلى القارة الأفريقية من الشرق الى الكنفو وعندما عاد مرة أخرى للعمل باسم الملك ليوبولد ملك الكنفو : أشاد بالمساعدات التى قدمت له من قبل السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار ، الذى أمدّه بقوة عسكرية لحمايته أثناء رحلاته داخل القارة كما أشاد بالمساعدات التى قدمها له حميد الدين المرجبي في الكنفو .

وحتى أثناء تكليف ستانلى بقيادة حملة انقاذ أمين باشا حاكم مديرية خط الاستواء السودانية منذ عام ١٨٨٧ م استفاد من مساعدات حميد الدين المرجبي واستفاد من الأدلاء العرب في الكنفو وأواسط أفريقيا للوصول الى هدفه ، وشعر بالوجود العربى في كل الطرق التى سلكها ، وفي كل جانب من حياة تلك المجتمعات .

٤ - الدور المصرى والعمانى فى شرق أفريقيا :

كانت الصعوبات التى واجهت السيد سعيد بن سلطان فى بداية حكمه بعمان دافعا له للبحث عن حلفاء أو أصدقاء للمساعدة فى التغلب على هذه الصعوبات ، ومن ثم اتجه الى أقطار أجنبية مثل إنجلترا والأملايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ، كما اتجهت أنظاره الى أقطار عربية مثل مصر . وقد تصادف أن حكم مصر فى نفس الوقت الذى تولى فيه السيد سعيد بن سلطان حكم عمان ، محمد على باشا الذى تبوأ كرسى الولاية فى مصر عام ١٨٠٥ م بينما تبوأ السيد سعيد بن سلطان كرسى السلطنة فى عمان عام ١٨٠٦ م .

وقد اتصفت العلاقة بين السيد سعيد بن سلطان ومحمد على باشا بالتقدير المشترك غير المنقطع ، وزاد من هذا التقدير فى الجزيرة العربية . ومع ذلك كانت الرسائل المتبادلة بينهما قليلة : ومع قلة الرسائل الا أنها عبرت عن اعجاب السيد سعيد بن سلطان بالبناء الحديث الذى أقامه محمد على فى مصر ، كما عبرت عن وجود رغبة لدى السيد سعيد فى إقامة علاقات أوثق مع محمد على باشا مصر (١٠١) .

وتمشيا مع هذه العلاقة الودية بين الرجلين ، وانطلاقا من تقدير محمد على للدور الذى قام به السيد سعيد بن سلطان فى عمان فى الفترة من عام ١٨٠٦ الى عام ١٨١٨ م ، فقد أحسن محمد على استقبال السيد سعيد عندما ذهب للحج عام ١٨٢٤ م . اذ أرسل محمد على مجموعة من كبار ضباطه لاستقبال السيد سعيد وتحيته ، كما أطلقت المدافع فى جدة حينما اقتربت السفينة العمانية « ليفربول » الملفة للسيد سعيد من الميناء ، وعند عودته من الحج الى مسقط حمل معه هدايا كثيرة من محمد على .

واستمرت الصلات بين مصر وعمان ودية رغم موقف بريطانيا العظمى المعادى للنشاط المصرى فى الجزيرة العربية وفى الخليج العربى

بصفة خاصة في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ، ذلك الموقف الذي لم يكن باستطاعة السيد سعيد تجاهله نظرا للعلاقة الخاصة التي ربطت بينه وبين البريطانيين الذين ساعدوه ضد أعدائه والخارجين عليه . ومع ذلك لم يأخذ السيد سعيد من محمد على موقفا عدائيا : بل أن الوثائق المصرية تشير الى أن السيد سعيد بعث برسالة الى محمد على في عام ١٢٥٥ هـ الموافق ١٨٤٠ م ، وطلب فيها بالحاح سرعة إرسال أحد المدفعيين - أى أحد الجنود المصريين العاملين على المدافع الحربية - لأن المدفعي الوحيد الذي كان عنده في مسقط قد مات (١٠٢) .

وحتى بعد وفاة السيد سعيد عام ١٨٥٦ م وانقسام سلطنته الى قسمين مسقط ويحكمها ابنه « ثويني » وزنجبار ويحكمها ابنه الثاني « ماجد » استمرت العلاقات الودية بين مصر والسلطنة العربية العمانية البوسعيدية بشرق أفريقيا .

واذا كان السيد ماجد بن سعيد قد حكم في الفترة من ١٨٥٦ الى عام ١٨٧٠ م ، ثم خلفه أخوه « برغش » من عام ١٨٧٠ الى عام ١٨٨٨ م ، فقد ظهرت علامات المودة بين مصر وزنجبار .

وقد شهد حكم الخديو اسماعيل لمصر من ١٨٦٣ الى ١٨٧٩ م مع ماله من مشروعات للوصول الى أواسط وشرق أفريقيا واقامة علاقات ودية مع سلطنة زنجبار بصورة كان من الممكن للدولتين أن تأخذا على عاتقهما نشر الحضارة العربية الاسلامية في ربوع القارة الأفريقية ، كما كان من المتوقع أيضا أن تنجح هاتان القوتان في حالة تحالفهما في انقاذ القارة الأفريقية من المؤامرات الاستعمارية .

ولكن الاستعمار الأوروبي لم تكن لتخفى عليه الجهود التي كانت تقوم بها كل من مصر وزنجبار ، ومن ثم كانت الخطة الاستعمارية تتجه الى ناحيتين :

الأولى : منع هاتين القوتين العربيتين الأفريقيتين من الاتحاد فيما بينهما ، اذ لو تم ذلك لأدى الأمر الى ظهور جبهة عربية أفريقية قوية تستطيع أن تستقطب اليها القوة الأفريقية ، وبالتالي الوقوف بصلابة أمام الأنطام الاستعمارية التي بدأت تظهر بصورة واضحة من أجل السيطرة على مقدرات القارة الأفريقية .

والثانية : العمل على اضعاف هاتين القوتين . وقد حدث ذلك بالفعل حينما عملت بريطانيا على تفكيك واضعاف سلطنة زنجبار خاصة بعد وفاة السيد سعيد أقوى حكام تلك السلطنة : كذلك نجحت بريطانيا في هدم الامبراطورية المصرية في سواحل البحر الأحمر والسودان ومناطق أعالي النيل وساحل أفريقيا الشرقى تمكينا للحركة الاستعمارية (١٠٣) .

ومن علامات الود بين سلطنة زنجبار ومصر خلال الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر ، وصول رسالة الى الخديو اسماعيل من السلطان ماجد بن سعيد مؤرخة في شهر محرم ١٢٨٢ هـ الموافق ١٨٦٦ م حملها قائد سفينتين مصريتين هما « الابراهيمية » و « سمود » ، اشترتهما مصر من انجلترا وكانتا في طريقهما الى ميناء السويس بالدوران حول رأس الرجاء الصالح حيث لم تكن قناة السويس قد افتتحت بعد للملاحة العالمية .

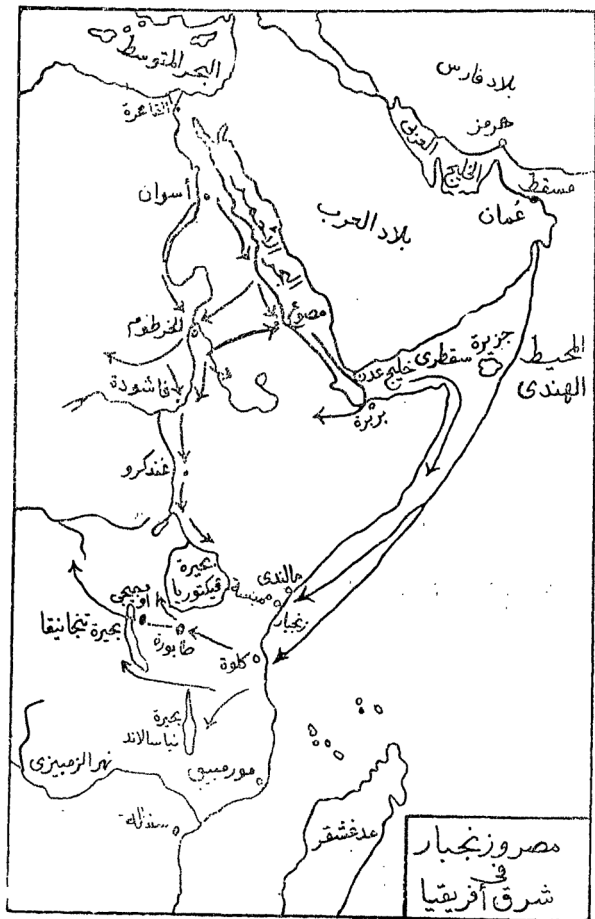
وأثناء توقف السفينتين في زنجبار استقبل السلطان ماجد بن سعيد قبطان السفينتين ورجاله وأكرم وغادتهم ، وأهدى القبطان سيفاً مرصعاً وهدايا أخرى وسلمة رسالة ودية للخديو اسماعيل الذى بادر بالرد عليها برسالة ودية أيضاً (١٠٤) .

وفى عام ١٨٧٢ م استقبل السلطان برغش بن سعيد بعثة مصرية وصلت الى زنجبار عن طريق أوغنده ، وقد لقيت البعثة قبل وصولها الى زنجبار كل حفاوة وترحيب من زعماء القبائل الأفريقية فى الجهات التى مرت بها .

وعندما وصلت الى زنجبار لقيت الترحيب الكبير من السلطان برغش الذى أبدى استعدادة للتعاون مع الحكومة المصرية واتفق مع قائد البعثة المصرية على عقد معاهدة صداقة وتحالف تستعين فيها السلطنة بمصر فى تنظيم الشؤون المالية والسياسية والادارية والعسكرية والاقتصادية ، ولكن هذه المعاهدة لم يتم التصديق عليها لأن السياسة البريطانية كانت تعمل على عدم تلاقى مصر مع زنجبار ، ومن ثم عمل جنرال غوردون الانجليزى (وكان حينذاك حاكما لمديرية خط الاستواء ١٨٧٤ ، و ١٨٧٦ م) . على عرقلة الاتصالات بين مصر وزنجبار فكتب الى السلطان برغش بن سعيد يحذره من وقوع سلطنته فى تحالف مع الحكومة المصرية . وفى نفس الوقت أوفد الى الخديو اسماعيل من يخبره بأن سلطان زنجبار يسيء معاملة التجار المصريين (١٠٥) .

ومع ذلك فعند مرور السلطان برغش بن سعيد من قناة السويس عام ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م فى طريقه الى انجلترا بدعوة من الملكة فيكتوريا ، وعند عودته من انجلترا حرص على البقاء بمصر عدة أيام . حيث قدمت له بعض الهدايا تضمنت مجموعة من الأسلحة والكتب ، كما أنه حضر مع الخديو اسماعيل مهرجان جبر النيل فى نفس الفترة (١٠٦) .

ورغم نجاح الانجليز فى توتر العلاقات بين مصر وزنجبار ، فان نجاح الخديو اسماعيل فى تكوين امبراطورية بشرق أفريقيا قد حفز الحكومة البريطانية الى تقلص هذه الامبراطورية بادعائهم المحافظة على حقوق سلطان زنجبار على ساحل الصومال ، رغم أن هدف البريطانيين السياسى الوحيد كان ممارسة النفوذ والسيطرة على أملاك سلطان زنجبار ، وقد استفادوا من مشروعات محر الرامية الى فتح طريق للمواصلات بين المنطقة الاستوائية والمحيط الهندى من أجل استثمار موارد هذه المنطقة التى يتم استثمارها (١٠٧) .



أثر مصر وعُمان في حضارة شرق أفريقية :

ورغم ذلك فقد كان لمصر وزنجبار تأثير حضارى بشرق أفريقيا ، حيث استطاعت البعثات المصرية في شرق أفريقيا بادخال زراعات جديدة وتنميتها وبناء بيوت من الحجر قام بها بناءون ونجارون وغيرهم من الحرفيين المصريين ، كما أشاعت الادارة المصرية في سواحل الصومال وفي منطقة نهر الجوبا الذى اكتشفه المصريون الأمن ويدل على ذلك خضوع مشايخ « قسمايو » « وبراو » وترحيبهم بالادارة المصرية .

أما الدور الذى لعبته كل من مصر وزنجبار في بناء حضارة شرق أفريقيا فهو يحتاج الى مزيد من الإيضاح ، اذ كان هدف الدولتين واحد ويعنى نشر الحضارة العربية الاسلامية في أواسط وشرق افريقيا والأخذ بيد الأفارقة والوقوف ضد المطامع الاستعمارية . واذا كان هدف الدولتين مصر وزنجبار واحداً فإن مصيرهما كان متشابها الى حد كبير : فمصر خضعت للاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ م ، وفرضت عليها سياسة التخلي عن السودان وممتلكاتها في أواسط وشرق أفريقيا عام ١٨٨٥ م ، بينما حرمت زنجبار باتفاقية عام ١٨٨٦ م من معظم أراضيها في شرق أفريقيا لصالح كل من انجلترا وألمانيا .

وكان من المتوقع أن تحمل كل من مصر وسلطنة زنجبار منذ توسع البلدين داخل أفريقيا في عهد الخديو اسماعيل حاكم مصر في عهد ابنى السيد سعيد بن سلطان ، « ماجد » و « برغش » تحمل على عاتقهما مهمة نشر الحضارة العربية الاسلامية في المناطق التى صار للدولتين وجود فيها وهى مناطق كبيرة تمتد من شرق القارة الأفريقية الى غربها عبر وسطها كما كان من المتوقع أن تنجح هاتان الدولتان في انقاذ القارة الأفريقية من تربص الحركة الاستعمارية بها ، ولذلك كان الأمر سابقاً بين الدول الاستعمارية وبين الدول الأفريقية المحلية وفي مقدمتها مصر وسلطنة زنجبار العربيتين نحو السيطرة على ما تستطيع كل منها من

مقاطعات أفريقية (١٠٨) ، ومما يؤسف له أن القوى الاستعمارية نجحت في بسط سيطرتها في هذه الأجزاء من شرق أفريقيا ولم تنج أراضى سلطنة زنجبار نفسها ومصر وممتلكاتها الأفريقية من السيطرة الأجنبية •

كلمة ختامية :

بعد أن استعرضنا دور العمانيين على مدى التاريخ الحديث من القرن الخامس عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي في شرق أفريقيا ، لابد لنا من الإشارة الى الآثار الحضارية التي بقيت حتى اليوم في شرق أفريقيا والتي صمدت أمام الغزو الاستعماري الأوروبي بكل أدواته من بعثات تبشيرية ومؤسسات تجارية وكشفية وغيرها بما يؤكد أصالة التراث العربي الاسلامي •

ان الهجرات العربية التي وفدت الى شرق أفريقيا كانت هجرة تكاد تكون مقصورة على عنصر الرجال دون النساء ، وهؤلاء الرجال لم تكن تحكمهم أية عقدة عنصرية فتزوجوا من النساء الأفريقيات ، وقام مجتمع جديد بعد جيل أو جيلين لم يعد من السهل تمييزه عن السكان المحليين •

وانعكس ذلك على تكوين سكان شرق أفريقيا من الناحيتين الثقافية والاجتماعية ، فثقافيا ظهرت اللغة السواحيلية ، وهي مزيج من اللغة العربية ولغات الأمازيغ المحلية ، وأصبحت كمفهوم لغوي وثقافي أوسع انشारा بكثير من المفهوم العنصري • وامتدت من « مقديشيو » شمالا حتى موزمبيق » جنوبا • وأصبحت أداة الحديث في دائرة مركزها زنجبار وتمتد الى الجزر المتاخمة حتى جزر القمر وهي أداة التفاهم بين القبائل المختلفة ومتصلة حتى اوعددة والكنغو وجزيرة مدغشقر •

كما أن اتصال اللغة السواحيلية وثيق باللغة العربية حتى أن العربي يستطيع أن يتابع الحديث ولو لم يفهم كل مفرداته •

ويقدر الباحثون في أصل اللغة السواحيلية عدد المفردات العربية التي تدخل في تركيب اللغة السواحيلية بما يزيد عن ربع ألفاظها . وكانت اللغة السواحيلية تكتب في زنجبار بالحروف العربية قبل الهجمة الاستعمارية ، وان كانت الآن تكتب بالحروف اللاتينية .

واما التكوين الاجتماعي لسكان شرق افريقيا بنزوح العرب وفي مقدمتهم العمانيون ، فقد ظهر هناك نتيجة امتزاج العرب المهاجرين بالأفارقة خاصة على الساحل وما صار يعرف باسم السكان السواحيليين . وصار من الصعوبة بمكان تعريف من هو السواحيلي ومن هو العربي في منطقة الساحل الشرقي لافريقيا وان ظهر خلاف بين سكان هذا الساحل فانما يرجع الى الحاجز والتفرقة التي حاول الاستعمار وضعها للتمييز بينهم ، وقد نجح الاستعمار في فرض لغته الانجليزية ومحاربة اللغة العربية .

ومما تجدر الاشارة اليه أن المذهب الديني الذي غلب في ساحل افريقيا الشرقي الأباضي وهو مذهب العمانيين . ولكن لم تلبث الغلبة أن صارت للمذهب السني « الشافعي » نتيجة هجرة الحضارة « الذين أنشأوا المدارس الدينية واستطاعوا تحويل كثير من السواحيليين الى المذهب السني « الشافعي » .

وقد تميز العمانيون عن الحضارة في تلك المنطقة بكونهم قد تمكنوا من الاستفادة من مكانتهم التجارية وسيطروا على المنطقة اقتصاديا واجتماعيا وتمكنوا أيضا من أن يكونوا عاملا مؤثرا في تسيير الأمور فامتلكوا الأراضي الشاسعة وأقاموا المزارع الواسعة وملكوا زمام السلطة السياسية ولهذا صارت لهم مكانة اجتماعية أكبر .

وكان الأثر الاسلامي واضحا في كل مرافق حياة السواحيليين طوال مراحل تاريخهم منذ نزح العرب المسلمين الى شرق افريقيا . وكان هذا الأثر الاسلامي أظهر ما يكون في التعليم حيث كان السواحيليين في القرى يبعثون بأطفالهم الى المدارس الدينية التي يتولى التدريس فيها قضاة : (م ١٣ - ندوة الدراسات ج ٣)

ومدة الدراسة تتراوح بين سنة وثلاث سنوات تنتهى بحفظهم القرآن الكريم ومن ثم يعودون الى بيوتهم ^(١٩) وفى عام ١٨٢٠ كان هناك حوالى أربع مدارس تقوم بتدريس القرآن الكريم والدين الاسلامى فى جزيرة « لامو » فى شمال كينيا الحالية وثلاث مدارس فى زنجبار وفى خلال ثلاث سنوات ارتفع العدد الى ١٥ مدرسة •

وعندما سيطر الانجليز على شرق افريقيا فرضوا اللغة الانجليزية على التعليم وأهملت اللغة العربية رغم احتجاج العرب وأهملت أيضا اللغة السواحيلية مما دفع بالعرب والسواحيليين الى الاهتمام بالتعليم الدينى تمسكا باللغة القرآن الكريم وبالتراث الاسلامى جملة وتفصيلا وان كانت السلطات البريطانية قد اضطرت فى أواخر العشرينات من القرن العشرين الى ادخال تحفيظ القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية فى مناهج الدراسة بالمدارس الحكومية ، وعلى الرغم من هذا فمازال التصبغ المميزة للتعليم بين أبناء المجموعة العربية والسواحيلية هى غلبة التعليم الدينى وحتى الذين اتاحت لهم الفرصة بدخول المدارس الحكومية فان أهم شيء كان ارسالهم الى المساجد والمدارس الدينية فى الأمسيات لتلقى التعليم الدينى •

الهوامش

- ١ — د. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج ص ١٢ — ١٣ .
- ٢ — عائشة السيار : دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا ص ١٥ .
- ٣ — نفس المصدر ص ١٧ .
- ٤ — نور الدين السالمى : تحفة الأعيان بسيرة اهل عمان ج ١ ص ٦ .
- ٥ — المسعودى : مروج الذهب ، معادن الجواهر .
- ٦ — د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ص ٦٢٧ .
- ٧ — جورج فضلو جورانى : العرب والملاحه في المحيط الهندى ص ١٨ .
- ٨ — المسعودى : المرجع السابق .
- ٩ — يرتجزون : اى يقولون شعرا من بحر الرجز . بربر : ميناء صولى على خليج عدن . وجفونى : هى رأس جانفون المطله على المحيط الهندى فى الساحل الصومالى أيضا .
- ١٠ — أحمد بن ماجد : ثلاث ازهار فى معرفة البحار ص ٧٨ — ٧٩ .
- ١١ — نفس المصدر ص ٧٩ .
- ١٢ — نفس المصدر ص ٨٤ .
- ١٣ — د. جمال زكريا : الاصول التاريخية للعلاقات العربية الامريكية ص ٤٩ .
- ١٤ — معهد البحوث والحراسات العربية : العلاقات العربية الامريكية ص ٢٦ .
- ١٥ — محمود شاكى : تانزانيا ص ٤٧ .
- ١٦ — جورانى : العرب والملاحه فى المحيط الهندى ص ٢٤ .
- ١٧ — الموسوعة المصرية : تاريخ مصر القديمة وآثارها — مجلد اول ج ١ ص ٢٤٠ .

- ١٨ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٥٤ .
- ١٩ — د. جمال زكريا : استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا . مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس ص ٢٨١ .
- ٢٠ — حوراني : المرجع السابق ص ٨٥ .
- ٢١ — برمنجهام : الاسلام في شرق افريقيا ص ٤٠ .
- ٢٢ — د. عبد الرحمن زكي : الاسلام والمسلمون في شرق افريقيا ص ٧ .
- ٢٣ — معهد البحوث والدراسات العربية : العلاقات العربية الافريقية ص ٤٦ .
- ٢٤ — د. عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ص ٧٧ .
- ٢٥ — المرجع السابق .
- ٢٦ — د. حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ص ٣٥٩ .
- ٢٧ — د. جمال زكريا : دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ص ٤ .
- ٢٨ — د. جمال زكريا : الاصول التاريخية ص ٥٩ .
- ٢٩ — نفس المرجع ص ٦١ .
- ٣٠ — د. حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٠ .
- ٣١ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٦١ .
- ٣٢ — د. عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ص ١١٩ .
- ٣٣ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٦٢ .
- ٣٤ — معهد البحوث والدراسات العربية د. محمد أمين : العلاقات العربية الافريقية ص ٥٠ .
- ٣٥ — د. جمال زكريا : المرجع السابق .
- ٣٦ — المرجع السابق .

- ٢٧ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٧٦ .
- ٢٨ — د. عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٧٩ وما بعدها .
- ٢٩ — معهد البحوث والدراسات العربية د. محمد امين : المرجع السابق ص ٥٢ .
- ٤٠ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٨٣ .
- ٤١ — محمود شاكر : المرجع السابق ص ١٧ — ١٨ عن ابن بطوطة .
- ٤٢ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٨٢ .
- ٤٣ — د. رافت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية ص ٤٨ .
- ٤٤ — بازيل دافيد سون : افريقيا تحت أضواء جديدة ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .
- ٤٥ — محمود شاكر : المرجع السابق ص ١٨ .
- ٤٦ — بازيل دافيد سون : المرجع السابق ص ٤١٦ .
- ٤٧ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٩٥ .
- ٤٨ — نفس المرجع ص ٩٥ .
- ٤٩ — نفس المرجع ص ٩٤ .
- ٥٠ — عائشة السيار : دولة البعارة ص ٦٤ — ٦٥ .
- ٥١ — نفس المصدر ص ٦٥ .
- ٥٢ — نور الدين السالى : تحفة الأعيان بسيرة اهل عمان ج ٢ ص ١٠٠ .
- ٥٣ — د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٤٦ .
- ٥٤ — د. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ١٠٥ .
- ٥٥ — معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ص ٨٠ .
- ٥٦ — د. عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٨٩ .

- ٥٧ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ١٠٩ .
- ٥٨ — المرجع السابق .
- ٥٩ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ١١١ .
- ٦٠ — السالمى : المرجع السابق ص ٩٨ .
- ٦١ — عائشة السيار : المرجع السابق ص ٨١ .
- ٦٢ — د. احمد شلبى : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٤٠٨ .
- ٦٣ — د. جمال زكريا : دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ص ٢٣ .
- ٦٤ — عائشة السيار : المرجع السابق ص ١٠٣ — ١٠٤ ، د. جمال زكريا :
الاصول التاريخية ص ١١٢ — ١١٣ .
- ٦٥ — د. جمال زكريا : الاصول التاريخية ص ١١٣ .
- ٦٦ — نفس المصدر ص ١١٥ .
- ٦٧ — نفس المصدر ص ١١٢ .
- ٦٨ — نفس المصدر ص ١١٢ .
- ٦٩ — لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى مجلد ٢ ج ٣ ص ٧٣ .
- ٧٠ — معهد البحوث والدراسات العربية : العلاقات العربية الامريكية
ص ٨٥ .
- ٧١ — د. محمد مرسى عبد الله : امارات الساحل و عمان ص ٧١ — ٧٢ .
- ٧٢ — د. جمال زكريا : الاصول التاريخية ص ١١٥ .
- ٧٣ — د. جمال زكريا : دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ص ٩٥ .
- ٧٤ — د. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربى ص ٥٣ .
- ٧٥ — تذكر بغض المصادر انه تولى السلطنة عام ١٢١٩ هـ الموافق ١٨٠٤م .
- ٧٦ — دونالد هولى : عمان ونهضتها الحديثة ص ٤٧ .

- ٧٧ — د. صلاح العقاد : المرجع السابق ص ١١٦ .
- ٧٨ — دونالد هولى : المرجع السابق ص ٤٨ .
- ٧٩ — المرجع السابق .
- ٨٠ — د. جمال زكريا الأصول التاريخية ص ٢٠٥ .
- ٨١ — المرجع السابق .
- ٨٢ — د. جمال زكريا : دولة بوسعيد ص ٢١٨ .
- ٨٣ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .
- ٨٤ — المرجع السابق .
- ٨٥ — معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ص ٩٧ .
- ٨٦ — دونالد هولى : المرجع السابق ص ١٨٧ .
- ٨٧ — د. جمال زكريا : الأصول التاريخية ص ٢١٥ .
- ٨٨ — معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ص ٩٨ .
- ٨٩ — المرجع السابق .
- ٩٠ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٠٦ .
- ٩١ — المرجع السابق .
- ٩٢ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .
- ٩٣ — معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ص ١٠٠ .
- ٩٤ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٤٢ .
- ٩٥ — المرجع السابق .
- ٩٦ — المرجع السابق .
- ٩٧ — بازيل دافيد سون : صحوة اثريقتيا ص ٧٥ .

- ٩٨ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٤٣ .
- ٩٩ — د. رافت الشيخ : افريقيا في العلاقات الدولية ص ٩٧ .
- ١٠٠ — المرجع السابق .
- ١٠١ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٤٤ .
- ١٠٢ — لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ص ٥٩ .
- ١٠٣ — نفس المرجع ص ٦٠ .
- ١٠٤ — نفس المرجع ص ٦١ .
- ١٠٥ — د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٨٧ .
- ١٠٦ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢١٣ .
- ١٠٧ — د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٩١ .
- ١٠٨ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٣٨ .
- ١٠٩ — المرجع السابق .
- ١١٠ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٣٩ .
- ١١١ — د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٠ .
- ١١٢ —
- ١١٣ — د. صلاح العقاد : المرجع السابق ص ١٣٩ .
- ١١٤ — دار المحفوظات التاريخية المصرية — محافظ الحجاز . محفوظة رقم ٢٦٩ وثيقة رقم ٢٨ بتاريخ ١١ ذى القعدة ١٢٥٥ هـ .
- ١١٥ — معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ص ١٠١ .
- ١١٦ — اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٣١٨ .
- ١١٧ — نفس المرجع ص ٣١٩ .
- ١١٨ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٢٢ .
- ١١٩ — د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ١١٠ .
- ١٢٠ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢١٥ .
- ١٢١ — المرجع السابق .

مصادر البحث

أولا : الوثائق :

دار المحفوظات التاريخية المصرية • محافظ الحجاز •

ثانيا : المصادر العربية :

١ — أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى : مروج الذهب
ومعادن الجواهر ٢ جزء — القاهرة — بدون تاريخ •

٢ — أحمد بن ماجد : تحقيق تيودور شوموفسكى — ترجمة وتعليق
د • محمد منير مرسى وثلاث أزهار فى معرفة البحار — القاهرة ١٩٦٩م

٣ — د • أحمد شلبى : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية — القاهرة
١٩٦٠ م •

٤ — اسماعيل سرهنك : دقائق الأخبار عن دول البحار — ٣ أجزاء —
القاهرة ١٩٢٣ م •

٥ — السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية — تاريخ العرب
منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية — بيروت ١٩٧١ م •

٦ — الموسوعة المصرية : تاريخ مصر القديمة وآثارها •

٧ — بازيل دافيد سون : ترجمة جمال أحمد : أفريقيا تحت أضواء
جديدة — بيروت ١٩٦٥ م •

٨ — بازيل دافيد سون : ترجمة عبد القادر حمزة — صحوة أفريقيا —
القاهرة ١٩٥٦ م •

٩ — ترمنجهام : ترجمة محمد عاطف النواوى — الاسلام فى شرق
أفريقيا — القاهرة ١٩٧٣ م •

- ١٠ — د • جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية — منشورات معهد البحوث والدراسات العربية — القاهرة ١٩٧٥ م •
- ١١ — د • جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ١٧٤١ — ١٨٦١ — القاهرة ١٩٦٢ م •
- ١٢ — جورج فضلو حوراني : ترجمة د • يعقوب بكر — العرب والملاحه في المحيط الهندي — القاهرة ١٩٥٨ م •
- ١٣ — د • حسن محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية في أفريقيا — القاهرة ١٩٥٧ م •
- ١٤ — دونالد هولي : عمان ونهضتها الحديثة — لندن ١٩٧٦ م •
- ١٥ — د • رأفت الشيخ : أفريقيا في العلاقات الدولية — القاهرة ١٩٧٥ م •
- ١٦ — د • صلاح العقاد التيارات السياسية في الخليج العربي — القاهرة ١٩٧٤ م •
- ١٧ — عائشة السيار : دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا في الفترة من ١٦٢٤ — ١٧٤١ م بيروت ١٩٧٥ م •
- ١٨ — د • عبد الرحمن زكي : الاسلام والثقافة العربية في شرق افريقيا — القاهرة ١٩٧٠ م •
- ١٩ — لوثرروب ستودارد — تعليق الأمير شكيب ارسلان : حاضر العالم الاسلامي ٢ مجلد — ٤ أجزاء — بيروت ١٩٧٣ م •
- ٢٠ — د • محمد مرسى عبد الله : امارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ١٧٩٣ — ١٨١٨ م — جزء أول — القاهرة ١٩٧٨ م •

٢١ — محمود شاكر : تنزانيا : العدد ٧ من سلسلة الشعوب الاسلامية
في افريقيا بيروت ١٩٧١ م •

٢٢ — معهد البحوث والدراسات العربية : العلاقات العربية الافريقية —
دراسة تحليلية في أبعادها المختلفة — القاهرة ١٩٧٨ م •

٢٣ — نور الدين السالمى : تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان — ٢ جزء —
الطبعة الخامسة ١٩٧٤ م •

ثالثا : الدوريات :

— استقرار العرب في ساحل افريقيا — بقلم د • جمال زكريا قاسم —
حولية كلية الآداب — جامعة عين شمس — العدد رقم ١٠ لعام ١٩٦٧ م •

رابعاً ،

صلوات عُثمان بالمغرب العربي

الصَّلاتُ التَّارِيخِيَّةُ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَعُثْمَانَ

لِلأستاذ الدكتور عبد الهادي النازي

(*) محاضرة ألقاها الأستاذ الدكتور عبد الهادي النازي بالنادي الأهلي
بمستط يوم الفاتح من مايو سنة ١٩٧٨ . وقد رأت الوزارة ضم
هذه المحاضرة الى بحوث ندوة الدراسات العمانية لاتصال
موضوعها بموضوعات الندوة .

١. د. شلبي

تحدث الناس عن صلات المغرب ، عبر التاريخ ، بممالك أوروبا وآسيا وأفريقيا ... ولكنهم كانوا مقصرين في حديثهم عن علاقات المغرب بمنطقة الخليج ، وخاصةً بلادَ عُمان ولم يكن مردّ هذا فقط ناشئاً عن البعد بين المحيط الأطلسي وخليج عُمان ، ولكنه كان أيضاً ناشئاً عن قلة اهتمام بالمصدر الأمر الذي كان له ما يبرره في الماضي .

واليوم وقد استيقظ الوعي بأهمية كتابة التاريخ ، وأصبحت المسافات البعيدة ساعات ، أمسى من الواجب أن يتفكّد بعضنا البعض الآخر ، وأن نصل رحماً عمل الزمن باستمرار على تلاحمه وتواصله بالرغم من أفاعيل الأيدي الخفية والظاهرة التي كانت تبذل قصارى الجهد لفصل هذا الطرف عن ذاك ، أو تشكيك هذا الجانب في انتسابه للجانب الآخر .

وإنه لمن المؤسف حقّاً أن يظل زاد تلامذتنا وطلبتنا وأكثر مثقفينا ، قليلاً في باب التعريف بتلك العلاقات وتلك الصلات ، على كثرتها واستمرارها ، ومن المؤسف حقاً أن لا تحمل معاهدنا ومؤسّساتنا وشوارعنا كذلك أسماء لبعض الشخصيات وبعض الوقائع التاريخية التي كانت جسوراً ربطت المغرب بعُمان وربطت عُمان بالمغرب .. إن ذلك سيقوى دون شك من حاسة المواطنين هنا وهناك ، ويجعلهم يرجعون إلى التاريخ ليسألوا عن هوية تلك الشخصيات وحقيقة تلك الوقائع ...

ولابدّ أن نذكر في صدر تلك الجسور المغربية ، العلامة الجغرافي الشهير بالشريف الأدريسى الحمودي السبتي الذي أعطى وصفاً دقيقاً لهذه المنطقة ظلّ إلى الآن مرجعاً صادقاً لكلّ الذين يهمهم أن يتحدّثوا عن جغرافية البلاد ومساكنها ..

لم تكن « هجرة الأدمغة » وليدة اليوم فقد عرفها التاريخ قبل هذا العصر ، وقد كان الشريف الأدريسى أحد هؤلاء الذين تركوا بلادهم

فى عهد الموحدين وهكذا وجدناه فى صقلية أثناء القرن السادس الهجرى ،
ببلاط روجى الثانى الذى قرّبه اليه وطلب منه تأليف كتاب عن الآفاق
المعروفة على ذلك المعهد ، وقد كانت المرحلة الأولى من أعمال الادريسي
إعداد لوح الترسيم بينما كانت المرحلة الثانية صنع كرة فضية للعالم ،
وكانت المرحلة الثالثة اعداد (كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق)
الذى ألفه سنة ٥٤٨ — ١١٥٣ ، وكانت المرحلة الرابعة من أعماله اعداد
ملحقة بكتاب نزهة المشتاق •

وقد بلغ وزن كرة الأدريسى أربعمائة رطل بالرومى (حوالى ١٥٠
كيلو غرام) ، رسم فيها جميع أقاليم وأقطار المعمورة رسماً مشروحاً
بالاستيفاء ، وقد استعان فى تصنيف كتابه هذا بمصنفات من تقدمه
من علماء الهيئة والجغرافية ، وبما استقاه من أخبار التجار والملاحين .
ولا تختلف خرائطه فى ترتيبها ووضعها عن الخرائط التى نعرفها اليوم
الا من حيث ان الادريسي يرسم الجنوب شمالا والشرق غربا ...

لقد نالت عثمان من خريطة الجغرافى المغربى ومن كتابه نزهة
المشتاق وبخاصة الجزء السادس من الاقليم الثانى ، نالت حظا وافرا
يررر — فى نظرى — أن تكون أساسا للحديث عن تاريخ عثمان فى العصور
المنقذمة •

فهنا فى خريطة الأدريسى ذكر « لظفار وصور وقلهات ومسقط ونزوى
وصحار وجلفارة إلى آخر المواقع التى ذكرها باسمائها التاريخية مدناً
وقرى وجبالاً وأودية ونباتات وهوام وحشرات كذلك ، ومن المهم أن
نعرف أن بعض المعلومات التى كتبها الأدريسى عن عثمان كانت تصله أثناء
تأليفه للكتاب ، وهكذا سمعنا عن عددٍ من مناصات اللؤلؤ فى صور وقلهات
ودمّا ورأس الكباش •

ورأينا صورة كاملة لقطع الأسطول الذى كانت تتوفر عليه عثمان

والذى كان يخيف الهند وافريقيا بما كان يحتوى عليه من (مشيعات)
و (أغربة) وسفن متنوعة ...

وقد قصدت باستعراض تلك المدن على ذلك الترتيب أن الفت نظر
المهتمين الى ضرورة العودة إلى أصل الخريطة والى كتاب نزهة المشتاق ...
ليقفوا بأنفسهم على ما قد يكون لحق عمل الادريسي من تساهل من طرف
الباحثين الذين اهتموا بنشر الخريطة المذكورة وتمكنوا من نشر بعض
أجزاء النزهة الى الآن : وأذكر على سبيل المثال وجود صحار فوق مسقط
مع أن موقعها حسب نظام الأدريسى في مكان آخر ...

ان دراسة خاصة لما قاله الشريف الأدريسى عن عمان تطل
دينا في طوق السادة علماء عمان الذين عودونا على طول نَفَسهم
في البحث والتنقيب ، إن عليهم تقع تبعة التحقيق فيما كتبه الأدريسى
عن أرضهم وشعبهم ...

ودعونا ننقل بعد الأدريسى السبتي ، الى ابن بطوطة الطنجي الذى
كان من بين الذين اعتمدوا على الأدريسى في هذه المنطقة (١) .

لقد عرف المغاربة من قديم برغبتهم في الرحلات الطويلة وقد كان
ذلك يرجع الى عدة أغراض ، أبرزها شيئان اثنان :

أولهما : هيام المغاربة بالشرق : خاصة وقد ظلوا يعتقدون ان هذه
الامكنة كانت منطلق سعادتهم ولهذا فانه لم تكد تخلو سنة واحدة دون أن
تشد الرحال من أقصى بلاد المغرب الى الحرمين والقدس أنقذه الله من
الرجس .

(١) راجع مثلاً ما قاله ابن بطوطة حول جبل كسير وعوير اللذين يوجدان
داخل أعماق الخليج على مقربة من البحرين ويحتاج الملاح الى معرفة موقعهما
حتى لا تتكسر مراكبه ولا تتعمور !

ثانيهما : الباعث السياسى فان المغرب الأقصى يعتبر الدولة الاسلامية الوحيدة التى يبتدىء تاريخها الدولى منذ بداية القرن الثانى الهجرى ولهذا نجد فى تاريخ الأمم ذكرا لا يبلى للمبعوثين الذين كان المغرب يرسلهم الى الخلفاء والأئمة والسلاطين والملوك فى آسيا وافريقيا وممالك أوربا . وذكرنا لا يبلى للرسائل التى كان يبعثها الى الولايات المتحدة الأمريكية كذلك .

وقد تصافرت المصادر التاريخية على أن الرحالة المغربى ابنَ بَنُوطَة لم يكن مجرد رحالة يرضى هوايته فى التجول والاستطلاع ولكنه كان بمثابة سفير متنقل لدولة بنى مرين المغربية . يجمع المعلومات الجغرافية ويقف على الظروف المعيشية والمظاهر الحضارية والحياة الاجتماعية للبلاد التى يزورها بل انه كان خاضعا لولاء العاهل المغربى : كما تدل عليه بعض المقاطع من رحلته وخاصة منها الفقرات التى تذكر أنه تلقى « أمرا كريما » ذات يومٍ بالالتحاق ببلاط فاس العاصمة ...

ويظل ابن بطوطة الشخصية العربية العملاقة التى فرضت وجودها على كل الذين كتبوا عن تاريخ البلاد والشعوب فجميعهم يبحث عما قال ابن بطوطة حول ما به يشتغلون ، يعتمدونه قبل غيره من المصادر والمراجع على أنه شاهد عيان ! •

وكان الأمر كذلك بالنسبة لمن حاولوا أن يؤرخوا لعمان والبحرين ... فقد زار ابن بطوطة المنطقتين على التوالى وسجل معلومات فريدة فى بابها بالرغم مما احتوته أحيانا من تساهل واسترواح لم يكن ابن بطوطة مسؤولا عنه .

أولا : التراجمة الذين كان يعتمدهم ممن كانوا دون مستوى الأسئلة التى كان يطرحها ، وقد مر بآبن بطوطة متاعب من جهة الترجمة نقشت على ذاكرته ، فلم ينسها بمرور الأعوام ، وهكذا غبعد أن يذكر تورطه فى بعض جهات آسيا الصغرى حيث استحضروا فقيها من مكان بعيد ادعى

انه يعرف اللغة العربية ، ليقوم بدور الترجمة ، ولما طلبوا اليه تأدية ما قاله الرحالة اعتذر بان ابن بطوطة يتكلم باللغة العربية القديمة بينما هو . أى الترجمان ، لا يعرف الا اللسان العربى الجديد .. !

وهكذا أيضا يعرب ابن بطوطة عن خيئته وقد قدم اليه ترجمان آخر ، خُف الغيب أنه لا يعرف من اللسان العربى الا كلمة « نعم » خاصة ! وقد تحدث عن ترجمان ثالث بعثه ليشتري له سمنا فاحضر له عوض انسمن حنطة من التبن ، وتبين ان للسمن كلمة اخرى غير ما اعتاده الرحالة ! وقد قدم له ذات يوم كوب شراب من طرف أمير أحد البلدان . فسأل ابن بطوطة عن كنهه فأجابه الأمير إنه (ماء الدهن) فتناوله رحالتنا قبل ان يتضح له أنه نبيذ البوزة ، وان المجيب عوض ان يقول : انه ماء الدخن بالخاء تحرف النطق على نحو ما يحصل عند المتلقين للسان الآخر !!

وكلنا يعرف أنه فى هذه المنطقة تعرض أحد الزوار الغرباء لعملية كسر موجعة عندما طلب اليه أمير حميرى كان يوجد على سطح بيت ، طلب اليه أن يثب غامثتل الزائر اظهارا للطاعة فوقع على الأرض قبل أن يعرف ان كلمة (ثب) تعنى بالحميرية أجلس وليس أقفز .. الأمر الذى كان مضرب المثل المشهور : من دخل ظفار حمر أى تكلم باللغة الحميرية !

ويعزى أمر تساهل ابن بطوطة بعد هذا فيما قد يؤاخذ عليه الى عملية السطو التى تعرض لها الرجل أثناء احدى تنقلاته فقد فقد مبيضاته المكتوبة ، وهكذا لم يكن غريبا أن تخونه ذاكرته عندما كان يملئ مشاهداته — بعد أزيد من عشرين سنة على تدوينها وأمر التفريط فى المذكرات حديث معضل رده عدد من رحالتنا المغاربة من أمثال السفير ابن عثمان ...

تعمدت ذكر كل هذا ، لأضع الرحالة المغربى فى الصورة الحقيقية حتى لا نسمح لنفوسنا بمناقشته الحساب فى البعض القليل من فجواته وغفواته !

والآن لنأخذ مركبا مع ابن بطوطة من ميناء كلوا (Kalwa) جنوب

دار السلام عاصمة (تانزانيا) الحالية لنصل الى ساحل جنوب الجزيرة العربية لنزور للمرة الأولى ظفار في ٢٣ رمضان ٧٣١ — (٣٠ يونية ١٣٣١) حيث يتحدث الرحالة المغربي عن الثروة الحيوانية التي تنعم بها البلاد وبخاصة عتاق الخيل التي تزود منها القارة الهندية . . . كما يتحدث عن الثروة السمكية وخاصة نوعية السردين ، والثروة الزراعية وبخاصة الذرة والعدس ويتحدث عن النشاط التجارى واجتهاد المزارعين فى استخراج مياه السقى مما لاتزال آثاره بادية الى اليوم فى الآبار والأفلاج مما يدل على وجود الهندسة الهيدروليكية فى المنطقة . . ولا يفوت ابن بطوطة ان يصف موز ظفار التي كانت حديث مجالس الخليفة هارون الرشيد باعتبارها كبيرة الحجم طيبة الطعم شديدة الحلاوة . . . ! كما يصف ازدهار زراعة التنبول (الراك) والنارجيل (جوز الهند) اللذين قدم عنهما كلاما مسهباً فى منتهى الجودة والطرافة وخاصة بالنسبة للمغاربة الذين حرموا من هذا النوع من النبات الذى ذكر له خاصيات طبية تمس علاقات الزوج بزوجته !

وقد تحدث ابن بطوطة عن عادة غريدة فى باب تحبيب زيارة ظفار وهى تعبر — الى جانب ما تدل عليه من بعد نظر — على خلق سام رفيع يعد ترديده اليوم من قبيل الأساطير الممعة فى الغرابة . . .

وبعد أن يتحدث الرحالة المغربي عن الخلال الحميدة التى يتميز بها سكان ظفار وعن تعودهم على النظافة وارتدائهم لآخف الثياب اتقاء للحر . . وبهذه المناسبة يقدم المدينة على أنها مركز هام لصناعة الحرير والقطن والكتان ، وينتقل ابن بطوطة لعادة المواطنين فى مصافحة بعضهم بعضاً فى أعقاب صلاة الصبح والعصر والجمعة ويستنتج الرحالة من هذه الاستقامة فى السلوك والاستغلال بما يعنى أن ذلك كان وراء حماية الله للمنطقة من عدوان الجائرين والمجاورين !!

ولنبقى مع ابن بطوطة المتصوف • لنجده يقدم إلينا بعض مشاهد

ظفار على ذلك العهد وهكذا نسمع عن زاوية ابي محمد بن ابي بكر بن عيسى التي يستجير بها بعض المتابعين على نحو ما كان عليه الحال في المغرب بالنسبة لبعض المشاهد ، هنا في هذه الزاوية قضى ابن بطوطة ليلته مكرما من ابني ضجيع الزاوية الشيوخين أحمد ومحمد . .

ويعطى الرحالة المغربي صورة جميلة لقاضي المدينة ابي هاشم عبد الملك الزيدي الذي كان مثالا في الصلاح والتواضع والكرم . . .

واذا كان الرواة قد ذكروا أن قبر نبي الله هود بن عابر يوجد بالجدار القبلي من المسجد الأموي بدمشق الشام فإن ابن بطوطة يعقب على هذه الرواية بأنه وقف في ظفار ، في الأحقاف منها على زاوية تحتضن قبرا كتب عليه « هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل السلام » . . .

وقد أفرد حديثا عن تقاليد ظهور السلطان على ذلك العهد وعن العادات المتبعة في ممارسة الحكم مما يدل على الأصالة في ضبط الأمر واحكام السياسة . . .

ويتأكد ان الرحالة المغربي أخذ طريقه البحري من (صلالة) عاصمة ظفار ٢٧ ذى القعدة ٧٣١ - (١ سبتمبر ١٣٣١) غفقد نزل في اليوم الثاني في مرسى (حاسك) بمعية صاحب المركب على بن ادريس حيث قضى بعض الوقت ليقدم لنا صورة جديدة عن نوعية السمك المتوفرة في هذه الناحية ، وعمما نسميه في المغرب بحصى اللبان الذي لا يخلو منه متجر في أسواق العطارين بالمدن المغربية ، ومن حاسك عاد المركب في اتجاه جبل لمعان حيث وصله بعد أربعة أيام واجتمع بشيخ متبتل هناك ، ومن لمعان الى (جزيرة سماها جزيرة الطير لانها لا تحتوى الا على أنواع من الطيور ، كنت أتصورها على نحو (جزيرة الطيور) في مدينة (الصويرة) المغربية .

وهنا أيضا يتحدث عن نوع السمك ويقارنه بما يوجد في المغرب ، ويعتمد ابن بطوطة كلمة الحوت في نظير كلمة السمك ليشعر أن الاستعمال المغربي

لا يخصص الخوت للنوع الضخم على ما هو عند المشاركة ، وهو الاستعمال الذى تؤيده المعاجم اللغوية ^(١) . ولم ينس ابن بطوطة أن عيد الأضحى لعام ٧٣١ - ١٤ سبتمبر ١٣٣١ صادفه وهو على متن البحر العربى ...

وقد تبنى المطبخ الأمريكى صحن طعام يقدمه فى المناسبات الكبرى ، كان يشبه تماما الصحن الذى حضره بعض تجار عمان فى المركب ، وهو عبارة عن ذرة مسلوقة مضافاً إليها عسل التمر ... لم يفت ابن بطوطة نسبة الصحن الى عمان ، ولم يتردد فى القول بأنه لم يتناول هذه الوجبة فى السابق واللاحق ... !

ويصل الرحالة الى جزيرة مصيرة ، حيث انتظر زيارة صاحب المركب لأهله، ثم اتجه الى مرسى (صور) حيث خطر بباله أن يزور بطريق البر مدينة (قلعات) صحبة مولانا خضر الهندى وبمساعدة دليل أغلق ابن بطوطة بمراوغاته وموارباته ، وهنا نقف على حكاية ملذة للمتاعب التى تعرض لها الرحالة العربى فى سبيل الوصول الى قلعات التى كانت تستحق أن تسمى بالنسبة لما حصل له « مس كد » ! لأنه لم يصلها الا بعد أن مسه انكد ونال منه الجهد ! (ولدون مسكد مس كد) !

وهنا فى قلعات يقدم ابن بطوطة مظهراً جديداً من مظاهر الحضارة الأصيلية والحفاظ على الأمن فى البلاد ، وهكذا وجدنا الرحالة يتصد صحبة حارس باب المدينة الى قصر الأمير ليتأكد من هويته ووجهته ومقدمه وأسباب زيارته على نحو ما نملاه اليوم على متن الطائرة عندما نقرب من النزول على أرض أمة من الأمم ...

ولم يفت ابن بطوطة ان ينعت حاكم المدينة بالفضل ودماثة الخلق

(١) لابن بطوطة لفته الحاضرة التى خصص لها الباحثون معجماً على حدة ، على ما نرى فى نحو كلمة الفرجية لنوع من اللباس و (المصرية) لمشتمل البيت أو جناح منه ...

وكرم الضيافة وجميل المواساة التى كان فى حاجة ماسة اليها طيلة الأيام
النسة التى قضاهما فى قلها٢ ...

ولا شك أن فترة الاستجمام هذه كان لها أثر على استعادة ابن
بطوٲة لمتابعة وصفه لقواعد عمان وأن ما قاله عن قلها٢ وأسواقها
ومسجدها الأعظم ليشوق بحق الى أداء زيارة لهذه المدينة الجميلة !!

فلقد أخذ بلبه تطريز جدار الجامع بالقاشانى الذى شبهه بما نسميه
فى المغرب بالزليج ، وليس الزالـج كما رسمته بعض المصادر المعمانية ،
وصناعة الزليج أو القاشانى من أهم وأتقن وأجمل الصناعات التقليدية
الدقيقة التى يحتفظ بها المغرب الى الآن ، والصانع يحمل وصف (الزلايجى)
ويجمع على (زلايجية) •

وقد ظل ابن بطوٲة يتحسس النكهة الطيبة لسمك قلها٢ الذى لم
يذق مثله فى اقليم من الأقاليم والذى كان يفضلـه على جميع اللحوم ...
ويذكرنى وصف ابن بطوٲة لطريقة اعداد السمك بقلها٢ فيما كنت
أراه فى بغداد مما يعرف باسم (المسقوف) ، لكن وصفه كان أكثر دلالة
فهو يتحدث عن شى السمك على ورق الشجر (الطرفاء) الذى يكسبه
أيضا رائحة عطرة ، وهو يتحدث عن جعل السمك على الأرض ... وهو
صحن لذيق ومطلوب فى البلاد المغربية •

وكما حكى عن عادة ظفار فى الاستقبال الكريم للمراكب ، كانت العادة
أيضا متبعة فى قلها٢ الأمر الذى يدل على تماسك أخلاق السكان ووحدة
أرومتهم جنوبا وشمالا ...

وقد فات ابن بطوٲة عندما لاحظ على أهل البلاد انهم عندما يسألون
عن شىء يضيفون كلمة : لا .. فاته أن أهل المغرب أيضا يرتكبون
نفس الأسلوب فيقولون تفعل كذا والا لا ؟

وقد رسم ابن بطوطة لوحة فنية بالغة الجمال لقرية طيوى التى نطق بها الرحالة المغربى (طيوى) ربما لخطأ وقع له فى التقاط الكلمة من الدليل . هذه القرية التى نعتها بأنها من أجمل القرى وأبدعها حسنا بما تضمه من أنهار وأشجار وبساتين وغواكه ...

ومن قلعات قصد عبر الصحراء (نزوى) قاعدة عمان على ذلك العهد ... وتظل قاعدة عمان القديمة مدينة لابن بطوطة غيما وصف به العاصمة السابقة من وفرة البساتين وغازرة الأنهار وترتيب الأسواق ونظافة المساجد ... وقد كشف ابن بطوطة عن عادة بالغة الغاية فى تصوير الخلق الاسلامى والكرم العربى فى أروع حقائقه حيث نجد تعود النزويين على تناول الطعام فى صحن المساجد حيث يأتى كل مواطن بما ينوفر لديه من قوت ويجتمع الناس للأكل فى صحن المسجد ، يشاركون الواردون والصادرون ..

هذا الى اصفاء صفات النجدة والشجاعة على أصحاب البلاد ، وهى الصفات التى تظل مميزة للإنسان العربى على مر الزمن .

وقد تمكن ابن بطوطة من الاتصال بسهولة بسلطان عمان أبى محمد بن نبهان الذى وصفه الرحالة المغربى بعدم التكلف والاستئثار بالحكم وفتح بابه للجميع وبسط السفارة والعناية بالغريب ...

وإذا كان ابن بطوطة لم يتعرض للمذهب الدينى المتبع فى ظفار ... فإنه لم يفته ان يتحدث عن المذهب الاباضى المتبع فى نزوى ، وهنا نستفيد من خلال كلامه ان حرية اختيار المذهب كانت مؤمنة للناس ، وفى معرض حديثه عن المذهب السائد نقل عما شاهده وسمعه . وكنا نتمنى أن لو قام بحوار هادف لتبادل وجهات النظر حول ما يأتية الناس وما يذرون ، لكنه اكتفى بمجرد الحكاية التى لم يكن غريبا علينا أن نسمع عنها من ابن بطوطة ما دأبنا على سماعه ممن يختلفون مذهبا عن الآخرين ،

وخاصة في العصور الغابرة اعتدنا هذا في رحلاتنا - منذ التاريخ المبكر
ممن كانوا يملكون في طريق حجهم بميزاب وجربة والزوارات اعتدنا من
(التيجاني) الى (الاسحاقى) كما اعتدنا أيضا التصدى لهؤلاء من
عدد من العلماء الأباضية من أمثال على يحيى معمر ومحمد بن دبور ...
الأمر الذى أثرى من جهة أخرى المكتبة الاسلامية وأغنى ميدان الحوار
الفقهى ... ومع هذا لابد أن نلاحظ أن ابن بطوطة كان يرتفع عن الغرض
والا فبماذا نفسر انتقاده لابن نبهان ، مع أنه لا يخالفه في المذهب ؟

وهكذا وجدناه يروى حادثة اعتمد في شطرها الأول على ما قال :
أنه حضره بنفسه بينما اعتمد في شطرها الثانى على ما ذكر له من طرف
مجهول ، ويتعلق الأمر بفتاة تطارحت على ابن نبهان ، تستجير به في أن
يمنحها حرية الاستجابة لنزوات الشباب !

وهى رواية لا ينبغي أن نتجاهل معها أولا درجة حظوظ ابن بطوطة
من فهم ما قاله ابن نبهان سيما والرخالة لم يخف شكواه قبل سطور معدودة
من لهجة مخاطبيه على ذلك العهد ... ومن جهة أخرى فإن الذين أخبروه
بذلك كانوا على ما يبدو ممن يهدفون الى تقصى سمعة (النباهة) الذين عرفنا
عن تشكى بعض الناس من تصرفاتهم ، وهكذا فإذا كنا سمعنا شاعرهم
يقول عنهم :

وأنتم بنى نبهان أما نجاركم نراك وأما فعلكم فجميل
أضاعت لكم في كل شرق ومغرب مصابيح فضل مالهن أشول

إذا كنا سمعنا ذلك فقد حفظنا من الشعر الذى أوردته مخطوطة
« الشعاع للشائع باللمعان » والذى يتوجه فيه الى عمر بن الخطاب
الخروصى قائلا :

فانت إمام عدل تدر ممما ابو نبهان حازوه اغتصابا
هم ظلموا العباد فرد ممما هم ظلموا ، وفيه غدوا صحابا
فقسمه — فتي الخطاب — عدلا على الفقراء قريبا واعترابا !

ويودع ابن بطوطة بلاد عمان عن طريق هرمز في ٢٧ ذى الحجة ٧٣١ —
(١ أكتوبر ١٣٣١) ولكن ليعود اليها بعد نحو من سبع عشرة سنة .
وفي هذه المرة يقصدها عن القارة الهندية . من قاليقوت (١)
في محرم سنة ٧٤٨ — أبريل ١٣٤٧ لقد زار ظفار مرة ثانية ونزل عند
سلطانها قبل أن يأخذ الطريق البحرى الى مدينة مسقط حيث أعطى فكرة
عن ثروتها السمكية . . . ذاكرا النوع المعروف بقلب الماس ، لقد كان
أخذ فكرة جيدة عن كرم عمان وخلق أهل عمان ولذلك فانه فضل ان يصل
معاها الرحم مرة أخرى . وأظنه ممن كان ينطبق عليهم بعض الشيء بيت
الشعر الذى أورده صاحب (الامتاع والمؤانسة) والذى سأل هشام
عليه بن خالد الهجيمى عن قائله :

لو يسمعون بأكله أو شربه بعمان أصبح جمعهم بعمان !!

وبعد ان استمتع بمجالس مسقط نزل جنوبا الى مرسى القربات ثم
الى مرسى (شبة) أو (الشبابة) ثم الى مرسى كلية ليلتحق بقلهات ويبحر
منها الى هرمز مرة أخرى .

وهكذا أسهم ابن بطوطة الطنجى فى كتابه تاريخ عمان على نحو ما
كان من سابقه الشريف الأدريسى الذى قدم عن عمان معلومات جغرافية
أصيلة على ما أسلفنا .

(١) تقع فى الجنوب الغربى من الساحل الهندى وهى غير كالكتا
التي تقع فى الشمال وقد التبس الامر على بعض الكتاب العرب بين البلدين .

ومن جفتنا ان نتساءل عن انطباعات ابن بطوطة حول المنطقة وعن
صلات مواطنيها بالمواطنين المغاربة •

لقد شعر ابن بطوطة : في هذه البلاد بشبه قوى بين أهلها وبين أهل
المغرب ، وهذه القولة التى مضى عليها زهاء سبعة قرون تؤكد نفسها اليوم
بصفة ملحّة وتجعل الزائر العماني للمغرب لا يشعر هو الآخر بفرق بين
هاتيك الديار وهذه الديار ، وهذه حقيقة أخرى تجعلنا نقف طويلا أمام
ما رواه المؤرخون عن أصول المغاربة من أن صنهاجة وسواهم من
قبائل المغرب أصلهم من حمير على حصد تعبیر ابن بطوطة •• وأحب أن
أفتح قوسين هنا لأتساءل عن الصلة بين القوم الذى يعرفون هنا باسم
(الشحوح) وبين القوم الذى يحملون في المغرب اسم (الشلوح) ، كل
له لغة لا يفهمها غيرهم وكل له سحنة تختلف في الغالب عن سحنة الآخرين •

لقد قوى من انطباع ابن بطوطة ذلك أنه لاحظ وهو في ضيافة خبيب
المسجد الأعظم أن أسماء خدمه أيضا أسماء مستعملة في المغرب •• كذلك
لاحظ أن أكثر أهل ظفار حاسرو الرأس ، وهى عادة مغربية تخفى حتى على
بعض المغاربة من الذين لا يعرفون أن جل الشخصيات الأندلسية المغربية
كانت تكتفى بوغراتها الكثيفة المضمخة ! وأخيرا فإن كل بيت كان يحتوى
في أبرز ما يحتوى عليه سجادة يفترشها عند الصلاة وهى عادة مغربية
صميمية ، هذا الى ميل الناس هنا لتناول السذرة وهى المزروع المحب
لدى أهل المغرب •

ان هذه الاستنتاجات من ابن بطوطة لا ينبغي ان تؤخذ على أنها مجرد
افتراض ولكنها افادة تاريخية هامة عثرت أقدام الباحثين الأوروبيين الذين
كانوا — وما يزالون — يحاولون ان يلحقوا الإنسان المغربى بالإنسان
الأوروبى ، ومن ثمت سمعنا عن التفريق بين بربر المغرب وعربه مع أن
الكل وارد أصلا من هذه الجزيرة ••

وانه لما يلفت النظر الملاحظ أن يسمع في المغرب عن أسرة العزفى

ولاية مدينة (سبتة) المغربية في العصر الوسيط ، ومنتشرة عادة الاحتفال بعيد المولد في الديار المغربية .. وقد كانوا منحدرين أصلاً من قابوس ابن النعمان بن المنذر ! وأن يسمع عن أسرة (الغساني) وأسرة (الحارثي) وأسرة الزيبيدي وأسرة الزواوي والسالمى والرشدى وأسرة السراج الحميرية ! بل وأن نسمع عن أسرة (العماني) التي نزحت كسبقاتها من هذه المنطقة إلى المغرب عن طريق الأندلس .. ثم أن نسمع عن عادة حمل الخنجر في الجنب .

لقد أسدى ابن بطوطة لثلثي سكان المعمور جميلاً لا ينسى بما كتبه من سائر وجهات النظر وما يزال — بالرغم من الاهتمام الذي اختفى بمذكراته — بحاجة الى عناية أكثر . واعتقد انه لو كان ابن بطوطة من مواليد أمريكا لأطلقوا اسمه على المطارات والموانئ ومحطات الفضاء . تقديرأ لما مقدمة للمجموعة الدولية من عطاء



ولندود فترة بنى نهان الى فترة اليعاربة لنشهد تلاهما لا نظير له في علاقات أمة بأمة ، لنشهد تجاوباً بين المحيط والخليج ظل محل اهمال من المؤرخين المشاركة والمعاربة على السواء ، ويتعلق الأمر بالتشابه القوى بين وضع هنا ووضع هناك وبالتضافر من طرف الجانبين على التخلص من الوضعين ..

وهكذا فكما سنتقع في يد البرتغال هنا مسقط وصحار وجلفار وصور وقريات وقعت هناك في المغرب مدينة سبتة والقصر الصغير وأصيلة وطنجة وأكادير ، وكما بنيت القلاع والحصون البرتغالية هنا في مسقط (الميراني والجلالي) شاهدنا في المغرب عدداً من الحصون والقلاع تحمل أسماء مثل سانطاكروز أى الصليب المقدس .. وكما باع البرتغاليون أسرارنا من (دكالة) في ليشبونة أوائل القرن . القرن السادس عشر كانوا أيضاً هنا يخطفون قومكم . وكما حاول الاستعمار ان يفرق بين أبناء البلد الواحد

هنا رأينا نفس المحاولة هناك ، وكما اغرت هذه المنطقة جيرانها من الاعجام فانها لولا عليها فقد حركت بلادنا من شهية من جاورها من الأتراك فحاولوا أن يلتهموها ...

وكما سمعنا عن صدام العثمانيين مع البرتغاليين هنا ، شاهدنا مضايقتهم للأسبان هناك ولكن على حساب المغرب وعمان .. لقد كان الهدف الأول على ما أثبت التاريخ حماية المصالح الخاصة ! وكما بيعت منكم أراض وثغور ، شاهدنا نحن تفويت مثل ذلك !! وكما ابتليتكم بسماسرة الفتن ابتليتنا نحن المتخصصين في ابرام الصفقات !

وكما كانت الخلافات الشخصية بين أبناء البلاد ممهدة للتدخل الأجنبي هناك ، رأينا الأمر كذلك بالنسبة للمنطقة هناك ، فقد كان بعض القادة تجاوز الله عنهم يعتقدون أنهم بالاستعانة بالأجنبي سيتغلبون على خصومهم السياسيين ويعود الاستعمار من حيث أتى وبدون أن نستفيد من ثمرات تدخله !

لقد كان الهدف البعيد للصليبية قص جناحى العالم الاسلامى فى محاولة مأكرة للأجهاز على المقومات الروحية والقضاء على لغة القرآن ، وذلك قبل أن تجذبهم البهارات التى كانت بمثابة البترول اليوم .

لقد وجدت طلائع اليعاربة فى عمان كما وجدت الدولة السعدية نفسها أمام جيوش حاكمة تهدد أراضيهم وتستغل ثرواتهم .

ولعل من الامانة للتاريخ أن أرغع ظلما غير مقصود وقع على أحد العمانيين الأعلام ممن يفتخر بهم تاريخ الملاحة البحرية العربية ، ويتعلق الأمر بالمعلم حمد بن ماجد الذى ذكر النهروانى عنه أنه هو الذى هدى (دى كاما) الى هذه المنطقة . هذه الرواية التى وجد فيها المستشرق الفرنسى غيران مجالا للحديث ، ونقلها بعض المؤرخين

العرب عن حسن نية باعتبارها تبرز ابن ماجد على أنه يتفوق الملاحين الأوروبيين معرفة وخبرة ! الأمر الذى كان مصداق المثل القائل : « من معرفته بالصحابة صلى على عنتر » !

وقد غفل هؤلاء عن حقائق ثلاثة تبعد مساعدة ابن ماجد للبرتغال :
أولها أن ابن ماجد كان يكره البرتغاليين كرها بالغا ، وقد ظهر ذلك في شعره الذى يقول فيه عن البرتغال :

وهو الذى قد قهر المغاربة واندلس فى حكمه مناسبة !

ثانيها : ان نص النهروانى يذكر أن دى كاما انتزع الأسرار من ابن ماجد عن طريق كؤوس الخمر التى قدمها للملاح العربى المسلم ، وهو أمر تأباه طبيعة هذا الرجل العظيم •

ثالثها أن ابن ماجد لم يتحدث اطلاقا فى كتبه العديدة التى ظهرت . عن تقديم مساعدة من هذا النوع • وهو مما يشكك — إن لم ييطل — فى رواية النهروانى •

وهكذا فإذا ثبت عن استفادة دى كاما من قراءة كتاب الشريف الأدريسى ورحلة ابن بطوطة ، فإنه لن يثبت ما نقله النهروانى فى (برقه) ما دام لم يعزز بمصدر ثان كيفما كان لونه عربيا أو برتغاليا !



لقد ظهر ناصر بن مرشد هنا فى عمان وظهر أحمد المنصور هناك فى المغرب كلاهما حكم نفس عدد السنين التى حكمها الآخر ، تسعا وعشرين سنة كلاهما قطع الطريق على البرتغال والمناوئين فى الداخل ، كلاهما عاش فترة ذهبية فى تاريخ الفضال الشريف من أجل تحرير الثغور ...

وأرجو ان تسمحوا لى — بعد أن عرفنا عن دور الأدريسى وابن بطوطة

في التعريف بالمنطقة — أن أنتقل توأ الى موقعة حربية ينبغي في نظري أن تحمل الشوارع في قواعد عمان اسمها لما كان لها من أثر قوى على التعجيل بكسر شوكة البرتغال في هذه المنطقة وأعنى بها المعركة التي ثمت بمكان قرب مدينة القصر الكبير يحمل اسم (وادى المخازن) فحملت بذلك اسم الموقع ونعتتها المصادر التاريخية بأنها (غزوة بدر) . لقد كان البرتغاليون يطمحون الى أن يستحوذا على الساحل المغربى كله وقد كان هذا الطموح منهم بعد أن حصلوا على مساعدات دولية وتركيات ومباركات من زعماء المسيحية آنذاك ...

وشاء الله أن ينزل الضربة القاصمة بالأحلام البرتغالية عندما رمى بجيشهم الى الدخول مع المغرب في المعركة ... وقد اصم القدر آذان ملك البرتغال (دون سباستيان) فلم يصح بسمعه بحال الى النصائح التي قدمت اليه من قبل وزرائه ، بل ومن قبل ملوك أوروبا وعلى رأسهم ملك قشتالة ، وهكذا صحب ملك البرتغال مائة وعشرون ألف مقاتل معهم بمساعدة البابا من سائر الممالك المسيحية ، هذا الى ما كانوا يجرونه من المدافع وآلات الدمار .. وقد تم التجمع البرتغالى في مدينة (أصيلة) . نتى يردد أهلها الى اليوم المثل القائل : « أصيلة صغيرة ومحاينها كبار » يعنى أن متاعبها عظيمة .

كان آخر يوم من شهر جمادى الأولى من عام ٩٨٦ — ٤ أغسطس ١٥٧٨ عندما عبر طاغية البرتغال جسر الوادى المعروف بوادى المخازن ، وأمر العاهل المغربى المولى عبد الملك بهدم الجسر ليلة الصدام المنتظر .. وكان اللقاء ... وركب المغاربة اكتاف العدو يقتلون ويأسرون غولى البرتغاليون الأدبار وحاول الحرس الملكى ان ينفذ العاهل من الهلاك فنصحه بأن يعود من حيث أتى لكنهم لم يجدوا جسراً كان هنا بالأمس ! وألقى الملك بنفسه في الوادى مفضلاً الانتحار بالغرق لكن أحد المغاربة أهوى عليه بخنجره فجمع بين القتلين !

ولقد لقي نفس المصير أحد الذين أصروا على الاحتفاظ بلقب الملك بالرغم من عزل الشعب له وحكم الفقهاء عليه بالمروق لاستنجاهه بملك البرتغال على أخوانه ...

وشاعت الأقدار أن يلتحق بالرفيق الأعلى السلطان المولى عبد الملك في أعقاب مرض أشد عليه في نفس اليوم ، ومن ثمت سميت الغزوة عند المؤرخين الأوروبيين بمعركة الملوك الثلاثة وربما سميت أيضا معركة القصر لأن مدينة القصر على ما قلناه كانت أقرب مدينة إليها . وهى المعركة التى نعتها الأوروبيون بالمعركة الحاسمة فى تاريخ الصراع بين المسيحية والاسلام .

وهكذا بايع المغرب السلطان أحمد المنصور الذى كان العضد الأيمن لأخيه الراحل المولى عبد الملك ، وقد هز هذا الحدث العظيم ملوك أوروبا وسلاطين القسطنطينية العظمى فبعثوا بسفرائهم يزفون التهاني ويعربون عن الأمانى ويحملون معهم التحف والهدايا طالبين المسالة ، راغبين فى إبرام عقود الصداقة والاسلام .

ورأينا من جهة أخرى اليهود المقيمين بالمغرب يحفظون تاريخ هذا اليوم لأداء صلوات الشكر لله على نجاتهم من احتلال كان سيعيد عليهم عهد المحارق التى عرفوها فى قشتالة !

لقد وصلت لأخواننا أهل عمان دون شك أخبار الهزيمة المنكرة التى الحققتها الجيوش المغربية بالرأس المدبر لحركة الغزو التى تترصدهم فى الهند وتترصد الفرصة للانقضاض عليهم ، تلك الحركات التى ستبلغ الغاية فى العدو عندما صمت فيها الآذان وجذعت الأنوف ! ..

فهل انتهى حسابنا مع الاستعمار ؟ لقد وجد المغرب نفسه وجهاً لوجه مع غلييب الثانى الذى ألف دور سباستيان ، وقد مات دون أن يخلف وارثا حيث اندمجت البرتغال فى أسبانيا أزيد من ستين سنة ...

ومن سخرية القدر أن تتوسط اليزابيث الأولى للمطالب بعرش البرتغال ونجده يلتجئ الى المغرب ليطلب مساعدة العاهل على استرجاع ملكه الدائر علما منهم بأن عرشهم الذى ثلمته سيوفنا لا يتأتى جبره الا على يدنا» كما ينقلون اليها عنا : لنقف على التقرير الذى رفعه القنصل البرتغالى آنذاك ...

لقد وجد المنصور نفسه أمام قوة جديدة تحاول أن تركز قواها فى الصحراء المغربية لتضمن عبر الرجاء الصالح أو « المدخل » كما تسميه المصادر القديمة ، لتضمنه للوصول الى الهند و عمان ، ولتستعد بذلك لتطويق المغرب من ناحية الجنوب حتى لا يستطيع الحراك ...

وهناك كانت حركة المغرب الثانية فى الجنوب المغربى عندما قام السلطان أحمد المنصور بمسيرته الحمراء بعد أن استنفذ كل وسائله لاقناع المسؤولين هناك بضرورة توحيد الكلمة ... لقد ذهل العالم لتلك المسيرة التى قصت على أحلام فيليب الثانى فى السيطرة على المواقع الساحلية المؤدية الى (المدخل) والتى كانت فى الواقع امتداداً لأهداف معركة وادى المخازن ... وقد تنفس أخواننا فى عمان الصعداء أيضاً من هذه الأخبار التى وصلتهم عن طريق بريذنا الدائم مع الشرق : عن طريق السفراء المغاربة الذين ما انفكوا يتقاطرون على اسطنبول وقادة المشرق من أمثال سفير الخلفاء التامجروتى أخى صاحب كتاب (النفحة المسكية) ، عن طريق الحجاج ، على الأقل ، ممن كانت تجذبهم المنطقة فينقلون لنا عنها كما ينقلون اليها عنا : لنقف على التقرير الذى رفع القنصل البرتغالى فى فاس بتاريخ ٣٠ مارس ١٥٤٢ انى دولته يخبرها بأن الحجاج المغاربة الواردين من المشرق نقلوا أخبار تحرك البرتغال أخيراً فى البحر الأحمر ، فعلاً لقد كان دوفاسكو حاكم الهند قد توجه بتاريخ ١٧ أبريل ١٥٤١ من كوا على رأس قوة لمهاجمة السويس ... كما لنقف على تقرير آخر بتاريخ ٨ أبريل من السنة يتحدث عن المسلمين المغاربة من

الأخبار الواردة على فاس حول انتصار حقه البرتغاليون في المشرق •
ألا يدل هذا على المتجاوب العميق بين المغرب والمشرق ؟

ولنحضر جميعا مجلس السلطان أحمد المنصور الذى عقده في
أعقاب تلك الانتصارات لتلقى تهانى الوزراء والكتاب والشعراء ، لقد
تحركت أريحية الشاعر أبى عبد الله محمد بن على الهوزالى المعروف
بالنابغة ، وقد كان من قوله في سينية طويلة •

وحسبك من (وادى المخازن) وقعة	بها الشرك حتى آخر الدهر ناعس
وضاقت على (بستان) كل عويصة	وذلت لنا منه الأنوف الغطارس
خجهر ما تحوى ذخائر ملكه	يزود بها عن نفسه ويداعس

وقال أبو محمد عبد الواحد المدعو الشريف الحسنى السجلماسى في
عينيته :

إمام حمى الاسلام قائم سيفه	وروع أرض الشرك فهى بلاقع
سقاهم بكأس ما سقوا قط مثله	هو السم فى أمعائهم وهو ناقع
فكم مركب فى كيدهم ركبوا لنا	فغيق وصدوا وانثنى وهو ضائع !

ويقول أبو الحسن على بن منصور الشيشظلى من همزية طويلة ، يشير
فيها لمدينة القصر الكبير التى تقع على مقربة من وادى المخازن ، كما
يشير لنهر النيجر بالسودان وتسمية المصادر المغربية بنهر النيل :

لكن جنى فتح كمثل المجتنى	بالقصر ، أو بالنيل دون إباء
القصر جرقليصر الحنف الذى	أبقاه منقطع العرى بعراء
والنيل نال به الخليفة فتح ما	قد كان قبله أصم فى عمياء !

وله من قصيدة ثانية دالية بالمناسبة :

شامت بوارقها القتام وأرعدت هنداً مع السند البعيد بأوعد
وقبيلهم تركت عساكر قيصر بالقصر هلكى كالرماد الأرمد !

ويقول أبو عبد الله محمد بن علي القشتالي :

وطويت في السودان مملكة لها بين المشارق والمغرب محثم
فأمدت الأملاك من أقطارها راح الضراعة زنجها والديلم !

وقال أبو علي المسفيوي :

كما غل غرب الروم سيف انتقامه وطاف عليهم طائف القتل والأسر !

لقد قصدت الى استعراض بعض ما قيل في هذه الملاحم الفريدة لأنها
كما أشرت غيرت من خريطة العالم واقبرت مطامح الدول الاستعمارية الى
الأبد وكان لها بعد هذا دور في المهاب الحركة الوطنية هنا في عمان
ضد القوات البرتغالية الغازية ...

وهل اكتفى الشعر بالاشتغال بالمغرب دون أن يلتفت الى عمان ؟
تعالوا بنا لنقرأ نونية طويلة لأبي فارس عبد العزيز الفستالي ملمحاً
لوقعة وادى المخازن وللمسيرة المغربية في تخوم بلاد السودان : جاء
فيها ذكر عمان على أنه يبتهج بتلك الانتصارات التي كان يعتبرها
انتصاراته ... قال في مطلعها :

هم سلبوني الصبر والصبر من شأنى

وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني

الى أن يقول متحدثاً عن كتائب أحمد المنصور :

وقتمن أقطار البلاد فأصبحت

تؤدي الخراج الجزل أملاك سودان

أيما ناظر الاسلام شم بارق المنى

وبكر لروض في ذرا المجد هينان

* * *

فكم هنأت أرض العراق بك العلا

ووافيت بك البشرى لأرض عمان !

فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم

أتاك استلابا تاج كسرى وخاقان !

ان ذكر عمان هنا لم يكن من أبى فارس لتسديد وزن أوقافية ولكنه كان وليد معرفة ودراية بأحوال منطقة عمان على ذلك العهد كيف وهو كاتب أسرار الدولة المنصورية وهو المكلف بعلاقاته الخارجية ؟ ، وهكذا فإن ذكر عمان له من الأهمية في الذكر ما لا يقل عن ذكر كسرى وخابقتيان ...

وهل كان نصيب (عمان) من الشعر المغربي فقط عندما حقق نصره على البرتغال ؟ لنزر أعظم وأقدم مؤسسة علمية ثقافية في (فاس) : العاصمة الأولى للإسلام بديار المغرب الأقصى ، فهنا أنشأ السلطان عبد الله بن الشيخ ابن المنصور السعدي قبة عظيمة من الجهة الغربية من صحن المسجد على نحو ما فعل جده المنصور في الجهة الشرقية ، تذكر القبتان المتقابلتان فيما يوجد

بقصر الحمراء في غرناطة ، قال أبو العباس القاضى ، مما يوجد الى الآن
منقوشا بداخل القبة المذكورة .

حزت المفخر بالمنصور أجمعها ومن علاه سناء المجد أوطانى
فخر الخلائف والاقبال من مضر أشباع صيتى في أطراف عمان !

وهكذا كنا نعيش مع عمان في مواقعنا الحاسمة وفي أيامنا الباسمة
وفي مجامعنا وجوامعنا ... ومن ثمت ظلم يكن غريبا على السعديين أن
يتلقوا أخبار تصدى أمام عمان وتلج اليعاربة ناصر بن مرشد للغزو
البرتغالى ١٥٢٤ - ١٦١٥ بقلوب ملئها المسرة والبهجة فلقد برهن على
أنه في مستوى الأحداث وأنه فعلا جدير بالقيادة الرائدة :

أباد المشركين بسيف عدل وأهل البغى غاقتضبوا اقتضابا
سقى أسيافه علق الأعادى فما ضربوا بدورهم قبابا

إن دولة اليعاربة في الخليج ودولة السعديين في المحيط كلتاهما دقت
المسمار الأول في نعش الاستعمار بالمنطقتين فهل من حقنا أن لا نحفظ
في الخليج دور المنصور في كسر شوكة البرتغال في مسكد . وهل من حقنا
ان لا نحفظ في المغرب دور ناصر بن مرشد في صمودنا لتحرير الثغور
الباقية من بلادنا ، أنه لولا أمثال هذين القائدين العظيمين لكانا نتكلم اليوم
بالبرتغالية على نحو بعض الدول الاغريقية وأمريكا اللاتينية !

لقد كان المؤرخ البريطانى روبرت ليندن منصفاً عندما ربط انهزام
البرتغال في الخليج بالضربة القاصمة التى لحقته في المحيط ! وان الذين
يغفلون عن هذه الحقيقة لمقصرون جدا في ربط أحداث التاريخ بعضها

ببعض ! وهكذا فعندما نردد ميمية الشيخ خلف سنان الغافري في فتوحات
الامام سلطان بن يوسف ابن عم الامام ناصر ! التي يقول فيها :

فغدت من عمان كف بنى الأصفر صفراً قد هزها الانهزام !

عندما نتذكرها أن نجعل نصب آعيننا بيت أبي فارس القشتالي :

فعم هنات أرض العراق بك العلا . واوافت بك البشرى لأرض عمان !

ويتذكر المغاربة قاطبة أنه عندما كان السلطان محمد بن عبد الله
يرمى بآخر جندي برتغالي من ثغر مدينة الجديدة في المحيط كان الامام
أحمد بن سعيد يقذف بالاحتلين العجم في عرض الخليج ... وهكذا
أيضا فكانما كان هناك هاتف أحمر بين الملكين تعاهدا من خلاله على
الاحتفاظ ببلادهما عربية القلب واللسان !

وهل ننفل بعد هذه الاشارة للبعثة التي راحت من عمان الى بلاد
المغرب تحمل رسالة الى الأخوان من أهل المغرب بمناسبة عقد البيعة للامام
عزان بن قيس بن الامام أحمد بن سعيد سنة ١٢ ذى القعدة ١٢٨٥ —
٢٦ فبراير ١٨٦٩ فاعتمدا على ما أورده الامام السالمى صاحب تحفة
الاعيان فقد أرسل بخطاب كان من انشاء العلامة سعيد بن خلفان
الخليلى يذكر فيه أن الباعث لتحرير الكتاب الإعلام بأن أهل عمان
وقد قدموا لهم إماما ذا ثقة ودين وعقل وشهامة وبطش شديد في المهتدين
وهو الامام عزان بن قيس بن الامام ... ولما كانت هذه من أكمل النعم
الدينية .. وجب ان نعرفكم بها لأنكم شركاء في كل مكان من الأمور
الدينية المحمدية .. » .

لكن الأبواب كانت قد أوصدت دون رسالة عمان فقد احكمت القوى

الاستعمارية قبضتها على المغرب الأدنى والأوسط ... وكان المغرب الأقصى
يصارع لصد الاطماع الأوروبية عن ترابه ...

وبهذا نفسر عدم وجود صدى للرسالة العمانية فيما عدى لامي
الشيخ أطفيش التي تحدث عنها صاحب التحفة والتي قال أنها كتبت للإمام ،
وقد جاء منها قوله :

على ماء بحر الروم آتيتك مسرعا إذا شاء ربى أو ببر كرثبال

وبعد فان هناك لغترات من تاريخنا البعيد ما تزال في حاجة الى البحث
والتنقيب ، وان في صدر تلك الفترات هو ما عشناه في تلك الظروف
العصيبة التي استهدفت فيها بلاد المشرق والمغرب للغزو الأجنبي .

وانه اذا كان من حق الذين غزونا وهاجمونا في عقر ديارنا أن يطمسوا
معالم قوتنا وأن يكتموا جوانب تضامننا ومظاهر تجاوبنا مشرقا ومغربا ،
فانه لا يحق بحال لمؤرخينا أن يغفلوا عن أى آصرة من الأواصر التي جعلت
منامنا ضلّين متمرسين على أرض متباعدة الأطراف ، وجعلت منا متناصرين
هنا وهناك ...

ولعلمهم يجدون في هذه المواسم الثقافية عكاظهم الجديدة للتعريف
بمخطوطاتهم وتسجيل الإفاذات من الشيوخ الطاعنين ، ومن الرواة
المهتمين ... لعلمهم يجدون في هذه المواسم الثقافية مجالا لنشر ما يترجم
عن الوثائق المكتوبة باللغات الأجنبية عن عمان التي كانت ترهب ذات مرة
باسطولها العتيد كلا من القارتين الهندية والافريقية وباقى ساحل الخليج ...
لعلمهم يرحلون الى ليشبونة ومدريد واسطانبول وطهران ، والى كل جهة
تكون مظنة للبحث ، إن تاريخ عمان أكبر من أن تظمه كتب معدودة ذات
مواضيع محدودة ، أنه أكثر من أن يكتفى فيه بالتعريفات السطحية

العائمة ... انه تاريخ للحمة ساخنة أسهمت في تكوين الرجال ، وفي اعداد العلماء ، وفي إثراء المذاهب واغناء المعرفة ، وازدهار الملاحظة وتطور الفلاحة وتدرج الصناعة ...

أيها السادة :

لعله من قبيل الصدف الجميلة بالنسبة الى ، أن أقدم هذه المسامرة في نفس اليوم الذي سعدت فيه بزيارة السلطنة قبل سنتين ضمن الوفد الرسمي الذي قدم لهذه الديار برئاسة الوزير الأول معال السيد أحمد عصمان وانه لمن حسن الطالع حقاً ان نشهد ثمار ذلك الاجتماع الذي تم بين الوفدين العماني والمغربي والذي كان يهدف بحث امكانيات توسيع التعاون بين البلدين الشقيقين في شتى المجالات بما فيها الثقافة والتعليم تحقيقاً للرغبة الصادقة المتبادلة بين جلالة الملك الحسن الثاني وأخيه جلالة السلطان قابوس بن سعيد •

لقد شهدت السنتان الماضيتان فعلاً عدداً من مظاهر اللقاء على كل صعيد على كل مستوى ، وقد شاركتكم هنا فرقنا الفنية الفرحة بأعيادكم الوطنية ، وعما قريب ستسعد الملكة المغربية بالاسبوع الثقافي العماني على أرضها حيث سترحلون بتقاليدكم وأمجادكم الى المغرب الأقصى وهناك سيتأكد المواطن المغربي عن هدية هذا الشعب العماني العريق الذي استأسد على مسالك البحار ، الذي نراه اليوم يفجر الطاقات ويتحدى الصخور والجبال •

ان كل ذلك يعتبر مؤشراً دالاً على ما ستشهده بلادنا من تعاون مجدى مثمر في سائر الميادين الأخرى من اقتصادية وتجارية وفنية وغيرها •
أدام الله علينا جميعاً نعمة الاستقرار والاستمرار الكفيلين وحدهما بتحقيق التقدم والازدهار وضمن العدل والسلام •

د • عبد الهادي التازي

اباضية عُمان
ونسر الإسلام في بلاد المغرب
للاستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف

١ — انتشار الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية :

امتدت الفتوح العربية الإسلامية الكبرى منذ وفاة النبي عليه الصلاة والسلام في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢ م) حتى أواخر العصر الأموي ، أي مدة قرن وبعض القرن . وأصبحت الأراضي التي يسيطر عليها العرب تمتد الى الهند والصين شرقا ، وإلى المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات غربا ، ومن البصر الأسود والبحر الأبيض المتوسط وجبال البرانس شمالا إلى بحر العرب وصقارى السودان جنوبا .

ونلاحظ أن حركة الفتوح الكبرى بدأت منذ أيام الرسول عليه الصلاة والسلام حين أراد توحيد شبه جزيرة العرب في ظل الإسلام . إذ واجه الإسلام اندفاع بعض العرب في العداء للإسلام ، كما واجه عداء بعض أهل الكتاب ، فكان لابد من تحرير شبه الجزيرة العربية من هؤلاء وهؤلاء . وكان الجهاد فرضا واجبا لحماية الدين الإسلامي ولحماية الدولة الإسلامية الناشئة .

ومالبث الفرس والروم أن تدخلوا في الأرض العربية ضد المسلمين ، فكان لابد من رد اعتداءاتهم وتأييدهم وتأمين الدين الإسلامي والدولة الإسلامية ولم تكن الفتوح الإسلامية العظيمة للأسباب التي ذكرها المستشرقون ومن لف لفهم من الكتاب المسلمين والعرب ، أي لأسباب اقتصادية أو سياسية ، أو لفتش الدين الإسلامي بحد السيف ، وإنما بدأت الفتوح الإسلامية لرد اعتداء المعتدين ، وتأمين الدعوة الإسلامية ، ولتحرير عرب شبه الجزيرة الذين كان يسيطر عليهم الفرس والروم .

ومع ذلك فنحن لاننكر أنه كان للفتوحات العربية أثر ملحوظ في سرعة انتشار الدين الإسلامي في كافة البلدان التي فتحتها العرب خارج شبه الجزيرة العربية ، فدخل الدين الإسلامي في هذه البلاد بدخول العرب فيها ، ومالبث أن تغلب على الأديان التي كانت موجودة

وساد الإسلام • ومع ذلك فالثابت أن الدولة العربية التي قامت على أساس الإسلام والتي كان شعارها حماية ذلك الدين والقيام لنصرته ، لم تضطهد أحدا من أهل الذمة أو ترغمه على ترك دينه مترسمين في ذلك أوامر الدين الحنيف •

فيقول الله تعالى : (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (١) ، ويقول سبحانه وتعالى مخاطبا الرسول عليه الصلاة والسلام : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض .كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) (٢) •

وقد رأينا العرب في كافة البلاد التي فتحوها يخبرون أهلها بين ثلاثة أمور : الإسلام أو الجزية أو الحرب • ولم يشنط المسلمون في تقدير الجزية ، بل راعوا في تقديرها ثروة الفرد وأعفوا منها الفقير والمسكين ومن لا عمل له ، ومن لم يبلغ الحلم ، والعاجز عن الكسب •

ولم ينكر أحد تسامح العرب الديني في البلاد التي فتحوها • وليس من شك في أن جوهر الدين الإسلامي وبساطته والسمو الخلقى للعرب جذب الى الإسلام الكثير من أهل البلاد المفتوحة •

وكانت هجرة القبائل العربية واستيطانها في البلاد المفتوحة من أهم عوامل نشر الإسلام والتعريب • فلم تكن الفتوحات العربية فتوحات حربية وسياسية فقط ، وإنما كانت فتحا دينيا إذ انتشر الإسلام وأصبح دين الأغلبية في البلاد المفتوحة لأسباب تنوعت واختلفت بين إقليم وآخر •

كذلك كان فتح العرب فتحا لغويا فاننتشرت اللغة العربية في الأقطار المفتوحة ، ثم أصبحت لغة الثقافة والفكر ولغة التخاطب لأبناء معظم

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٦ •

(٢) سورة يونس : آية ٩٩ •

تلك البلاد • ولكن أهم من ذلك كله هو الاختلاط والاندماج الذى تم بين القبائل العربية التى استقرت فى تلك الأقطار : وبين أهل البلاد الأصليين سواء أكانوا من الفرس أم الروم أم الشاميين أم المصريين أم المغاربة أم الترك أو غيرهم من الشعوب والأجناس المختلفة •

أى أن معظم الأقاليم التى ساد فيها العرب ، بدأت تتعرب وتتأثر فى العرب • ولم يصبح العربى هو الذى ينتسب الى قيس ومضر ، أو الى عدنان وقحطان فقط ، وإنما أصبح العربى هو الذى يعيش فى ديار الإسلام ويتكلم العربية وينتقف بآدابها ويفكر بلغتها • ولم يعد المجتمع العربى مقفلا على أبناء القبائل ، وإنما أصبح مجتمعا مفتوحا لكل الذين يتكلمون العربية ويكتبون بها ويتأدبون بآدابها وينهلون من علومها وغنونها •

وكان عرب القبائل فى البداية يسمون أبناء البلاد التى فتحوها باسم « الموالى » ، وظلت هذه التسمية إلى القرنين الثالث والرابع الهجرى (التاسع والعاشر الميلادى) • ولكن هذه التسمية بدأت تذوب وتختفى مع اختفاء انساب القبائل المختلفة فى معظم ديار الإسلام خارج شبه جزيرة العرب • وظهرت القوميات المختلفة واضحة قوية ، فكان هناك العراقيون وأهل الشام والمصريون والمغاربة وغيرهم ، ولكن الكل أصبحوا عربا وأصبحوا يشتركون فى تاريخ واحد وتقاليده واحدة وآمال واحدة وحضارة واحدة : وأصبحت العروبة عروبة اللسان والفكر •

٢ — فتح العرب لبلاد المغرب وإسلام المغاربة :

نقصد ببلاد المغرب ما يلي مصر غربا حتى المحيط الأطلسي ، وكانت بلاد المغرب تشمل برقة التي سماها الكتاب العرب انطابلس أو بنطابلس ، وطرابلس أو اطرابلس ، ثم أفريقية حتى نهر ملوية ، ثم المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى .

ويذكر المؤرخون القدامى مثل ابن عبد الحكم في كتابه « فتوح مصر والمغرب والأندلس » ، والبلاذري في كتابه « فتوح البلدان » ، والبكري في كتابه « وصف أفريقيا » ، أنه لم يكذب يفرغ عمرو بن العاص من معاهدة الاسكندرية حتى سار في جنده يريد أولى بلاد المغرب .

والحق ان السبب الذي حمل العرب على فتح مصر لتأمين فتوحاتهم في الشام ، جعلهم يتجهون الى برقة وشمال أفريقية لتأمين فتح مصر . ولذلك توجه عمرو بن العاص بعد فتح مصر مباشرة في سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) الى برقة (انطابلس) ففتحها وغرض عليها الجزية . وفي سنة ٢٢ هـ (٦٤٢ م) غزا عمرو بن العاص طرابلس (اطرابلس) ويقال إنه غزاها في سنة ٢٣ هـ (٦٤٣ — ٦٤٤ م) . وحين انصرف عمرو بن العاص من برقة وطرابلس ترك هناك عقبة بن نافع الفهري ، وسيجده عبد الله ابن سعد بن أبي سرح في برقة حين يقبل لاستكمال فتح شمال افريقية سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ — ٦٤٨ م) . والمعروف أن برقة وما حواليتها ظلت على طاعة المسلمين منذ الفتح .

ويشير المؤرخ البلاذري — وهو من مؤرخي القرن الثالث الهجري — الى إسلام أهل المغرب المبكر فيقول : « كتب عمرو بن العاص الى عمر ابن الخطاب يعلمه انه قد ولي عقبة بن نافع الفهري ، المغرب ببلغ زويلة ، وان من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية ، وانه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه وأمر عماله جميعا أن يأخذوا الصدقة

من الأغنياء فيردوها في الفقراء ، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل اليه بمصر ، وان يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ، ومن أهل النصح صلحهم » (١) .

أما أهل شمال افريقية أو المغرب ، فكان اسمهم الأمازيغ نسبة إلى جدهم مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام (٢) ؛ ثم سماهم العرب بربراً بتفخيم الرايين ، للغتهم التي لا يفهمونها . ولعل أصل كلمة بربر هي بارباروس التي أطلقها الرومان على أهل البلاد .

وكان البربر ينقسمون إلى طائفتين متباينتين : البربر البرانس أو الحضرة ، وكانوا ينزلون السهل الساحلي الذي يقع بين الجبال والبحر . ثم ينتشرون على طول الجبال الممتدة من الشرق إلى الغرب في السفوح المزروعة والنواحي الخصبة وينتشرون حتى طنجة .

أما البربر الرحل ، أو البتر ، فكانوا يعملون الصحارى والواحات : لتلى ذلك جنوباً وشرقاً .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن العرب في فتوحاتهم لبلاد المغرب كانوا يحاربون الروم وليس أهل البلاد . بل إن العرب والبربر كانوا متشابهين إلى حد كبير في الحياة الاجتماعية وفي كثير من الصفات والعادات ، فالنظام القبلي أساس الحياة الاجتماعية عند العرب وعند أهل بلاد المغرب ، أضف إلى ذلك الشجاعة وحب الحرية .

وقد تعاطف البربر مع العرب منذ البداية . وروى المؤرخون أن الجيش الذي قاده عقبة بن نافع ووصل به إلى ساحل المحيط الأطلسي كان أكثره من البربر . كذلك نلاحظ أن الجيش الذي عبر به طارق بن زياد

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

(٢) محمد على ديبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ هامش صفحة ٨٩ .

المجاز ، الذى سُمى فيما بعد باسم مضيق جبل طارق ، كان أكثره من البربر .

وهذه ظاهرة تميزت بها فتوحات المغرب بعكس بلاد المشرق التى قام العرب بفتحها . لكن يجدر بنا أن نلاحظ أن فتح العراق وفارس والشام ومصر والفتح الأول لبلاد المغرب انتهى فى صدر خلافة عثمان بن عفان . وحين استؤنفت الفتوحات العربية فى الشرق فى خراسان وبلاد ما وراء النهر ، وفى الهند حتى حدود الصين ، وفى بلاد المغرب ، وبعد هجرة القبائل العربية واستيطانها فى البلاد المفتوحة ، وبعد امتزاج المسلمين الجدد بالمسلمين من السلالة العربية ، لم يجد الحكام العرب بدا من الاعتماد على أهل تلك البلاد فى الحرب والفتح والادارة .

كذلك نلاحظ أن فتح العرب لبلاد المغرب استغرق سنوات طويلة بعكس الفتوحات العربية الأخرى فى المشرق .

وتم فتح بلاد المغرب على مراحل مختلفة ولمع فيه أسماء كثير من القواد والمجاهدين . وكان ذلك راجعا الى طبيعة بلاد المغرب وإلى استماتة الروم فى الاحتفاظ بها وتحريضهم للبربر ضد العرب ، فضلا عن قيام الفتنة فى دار الخلافة أيام عثمان بن عفان ، ثم ماحدث بعد التحكيم وبسببه بين على بن أبى طالب وبين معاوية بن أبى سفيان . وكذلك ماحدث بعد تولى يزيد بن معاوية الحكم وبعد وفاته .

وليس بمستغرب أن يستغرق فتح بلاد المغرب أكثر من ستين عاما وذلك للظروف المختلفة التى أشرنا إليها فضلا عن جغرافية بلاد المغرب التى تختلف من السواحل الى السهول والجبال والأودية والهضاب والمراعى والصحراء .

وقد أدرك المجاهدون المسلمون كل هذه الظروف والأحوال . وليس
أبلغ من ذلك الوصف الموجز الذى أرسله حسان بن النعمان الأزدى الى
عبد الملك بن مروان يقول فيه إن « أمم المغرب ليس لها غاية : ولا يقف أحد
منها على نهاية ، كلما بادت أمة خلفتها أمم » (١) .

لكن العرب تشبثوا باستكمال فتح بلاد المغرب وقدرُوا أهميتها في
أن تصبح معقلا للعروبة والإسلام . ولم يأت نهاية القرن الأول الهجرى
حتى كان العرب قد سيطروا على بلاد المغرب ووصلت فتوحاتهم الى المحيط
الأطلسى .

والمعروف من المصادر المختلفة أن الإسلام دخل شمال إفريقيا
وببلاد المغرب منذ بداية فتحها على يد العرب . ويؤكد ابن خلدون مآذره
أنورخون قبله من أن أهل المغرب أقبلوا على اعتناق الإسلام من زمن
مبكر جدا فيقول : « وانساح المسلمون في البسائط بالغارات ، ووقع بينهم
وبين البربر زحوف وقتل وسبى ، حتى لقد حصل فى أسرهم يومئذ من
ملوكهم وزمار بن صفالاب جد بنى حزر وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر
زناتة ، ورفعوه الى عثمان بن عفان فأسلم على يده ومن عليه وأطلقه وعقد
على قومه » (٢) .

ولم يكن العرب — فى أول عيدهم بالمغرب — من الكثرة بحيث
يستطيعون التأثير بدينهم ولغتهم وثقافتهم فى المحيط البربرى الواسع .
أما حيث استقر العرب فى أعداد وفيرة فنلاحظ قوة تأثيرهم فى أهل المغرب
مثلا حدث بعد تخطيط القيروان وإقامة العرب هناك فى ولاية عقبة بن
نافع الفهري (٥٠ — ٥٥ هـ / ٦٧٠ — ٦٧٤ م) .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦ .

(٢) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٠٨ .

وقد أشار الى ذلك الكتاب القديما ومنهم ابن الأثير^(١) والنويري^(٢) .
بل إن استشهاد عقبة بن نافع وأبى المهاجر دينار ومن معهما في سنة ٦٤ هـ
(٦٨٣ م) اهتزت له بلاد المغرب كلها وكان له أثر بعيد في نفوس
الأهلين .

ثم ازداد انتشار الإسلام بين أهل شمال افريقية وخاصة في
عهد ولاية حسان بن ثابت أيام عبد الملك بن مروان . فأشرك حسان البربر
في استكمال فتح البلاد ، وذكر المالكى أن البربر أجابوه وأسلموا . واعتبر
حسان أرض المغرب مفتوحة صلحا وليس عنوة . كما منح أهل المغرب
حق المساواة الكاملة بالعرب^(٣) .

ثم أخذ حسان في تنظيم بلاد المغرب وتدوين الدواوين وفي اقامة
العمال وفي انشاء المساجد في المدن والقرى ، وعين القضاة للنواحي كما
اهتم بجباية الخراج والجزية والزكاة^(٤) .

ثم جاءت المرحلة الأخيرة للفتح العربى لبلاد المغرب على يد موسى
بن نصير أيام الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٥ م) .
وازداد اعتناق البربر للإسلام ، واشترك أهل بلاد المغرب في استكمال
فتحها وفي فتح بلاد الأندلس . وكان جيش طارق بن زياد الذى أبحر من
المغرب لفتح الأندلس سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) يضم سبعة آلاف من البربر
الذين دخلوا حديثا في الإسلام .

ويذكر ابن عذارى أنه لما فتح موسى بن نصير طنجة أقام
عليها طارق بن زياد وأنه « أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم

(١) أسد الغابة ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٦٨ (نسخة مصورة بدار الكتب المصرية) .

(٣) انظر : المالكى : رياض النفوس ص ٣٦ .

(٤) انظر : محمد على دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ١١١ — ١٣٢ .

في الدين» (١) . ثم يذكر ابن عذارى أن موسى بن نصير ترك في المغرب الأقصى سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام « وقد كان عقبة بن نافع قد ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام» (٢) .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٣٦ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٧ .

٣ — الحكام الأمويون وولاتهم بعد فتح المغرب :

— سليمان بن عبد الملك : ٩٦ — ٩٩ هـ / ٧١٥ — ٧١٧ م) كان
الفتح الإسلامي للمغرب معناه حلول النور بعد الظلام . والتحرير بعد
استبعاد الروم . وأصبحت المغرب قوة عظيمة للإسلام ومركزا من أهم
مراكز الإسلام والعروبة وإن كان المسلمون قد فتحوا البلاد بالسيف إلا
أنهم كانوا يفتحون القلوب بدينهم .

وقد بدا اهتمام المسلمين واضحا ببلاد المغرب وذلك بتشبههم باستكمال
فتحها واهتمامهم بأمرها بعد الفتح . ومما يذكر أن سليمان بن عبد الملك
الذى حكم الدولة الأموية بعد أن تم فتح بلاد المغرب ، وصى عامله عليها ،
محمد بن يزيد مولى قریش ، فقال له :

« اتق الله وحده لا شريك له وقم فيما وليتك بالحق والعدل وقد
وليتك أفريقية والمغرب كله » (١) . ولما ودعه انصرف وهو يقول : « مالي
عذر عند الله إن لم أعدل » (٢) .

— عمر بن عبد العزيز : (٩٩ — ١٠١ هـ / ٧١٧ — ٧٢٠ م) كان
عمر بن عبد العزيز يمثل من الناحية الزمنية فترة الانتقال بين القرن الأول
والقرن الثاني الهجري . أما من الناحية الدينية والسياسية فقد كان
عمر بن عبد العزيز يحاول العودة بالإسلام الى سيرته الأولى والى إحياء
خلافة أبى بكر وعمر ، ولهذا اعتبره جل المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين .
أما بالنسبة لبلاد المغرب فإن خلافة عمر بن عبد العزيز تعتبر طفرة
كبيرة فى نشر الإسلام ، بل فى نشر الإسلام فى ديار الإسلام عامة .

وولى عمر بن عبد العزيز على بلاد المغرب اسماعيل بن عبد الله
ابن أبى المهاجر . ، وهو حفيد أبى المهاجر دينار مولى بنى مخزوم ، وهو

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٤ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٤٤ .

أحد ولاية افريقية وغانحيتها الأوائل (٥٥ — ٦٢ هـ / ٦٧٤ — ٦٨٢ م) وأول من دخل بلاد المغرب الأوسط من الفاتحين العرب . عرف اسماعيل بن عبد الله بحسن سيرته وغيرته على الإسلام ، وكان ذلك سببا قويا دعا الخليفة عمر بن عبد العزيز لاختياره واليا على بلاد المغرب في سنة ١٠٠ هـ (٧١٨ م) ، فكان كما ذكر ابن عذارى « خير أمير وخير وال »^(١) .

وقد مثل هذا الوالى سياسة الخليفة خير تمثيل وحرص على نشر الإسلام بين البربر وعلمهم الحلال والحرام ، فلم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم على يديه في دولة عمر بن عبد العزيز^(٢) .

وبلغ من غيرة عمر بن عبد العزيز على الإسلام أنه لم يعتمد في نشر الإسلام بين أهل المغرب على واليها اسماعيل عبد الله الذى يصفه اندباغ بأنه « كان فقيها صالحا فاضلا زاهدا »^(٣) ، ولكنه بعث معه عشرة من التابعين من أهل العلم والفصل . ومن هؤلاء العشرة أبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى الذى كان قد ولى قضاء القيروان لموسى ابن نصير في سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) وتوفى بالقيروان في سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م) .

ومنهم أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافى الافريقى الحبلى وقد سكن القيروان وتوفى بها في سنة مائة للهجرة وانتفع به أهل افريقية وبث فيهم علما كثيرا ومنهم أبو مسعود سعد بن مسعود التجيبى ، وقد حضر ثورة الخوارج في ولاية حنظلة بن صفوان . ومن هؤلاء التابعين اسماعيل بن عبيد الأنصارى المعروف بتاجر الله . ويذكر المالكى في كتابه « رياض النفوس » ، والدباغ في كتابه « معالم الإيمان » أنه عرف باسم « تاجر الله » لأنه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه في وجوه الخير .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٥ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والاندلس ص ٢١٣ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٥ ، والنويرة : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٣ .
(٣) الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ١٥٤ .

ولم يزل مقيما في القيروان الى أن خرج مجاهدا في غزوة عبد الله بن رافع الى صقلية فغرق في البحر سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ — ٧٢٦ م) •

وقد استقر أغلب هؤلاء العلماء في القيروان وظلوا في بلاد المغرب حتى بعد وفاة عمر بن عبد العزيز وعزل اسماعيل بن عبد الله ^(١) •

— **يزيد بن عبد الملك :** (١٠١ — ١٠٥ هـ / ٧٢٠ — ٧٢٤ م) لما ولى يزيد بن عبد الملك الدولة الأموية بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، عزل اسماعيل بن عبد الله عن المغرب بعد ولاية دامت سنتين وأشهرًا ، وولى على المغرب في سنة ١٠٢ هـ يزيد بن دينار بن أبي مسلم ، وكان كاتبًا للحجاج ابن يوسف الثقفي وصاحب شرطته • وروى عنه أنه كان « ظلوما غشوما » • ولهذا ثار البربر على يزيد بن أبي مسلم وقتلوه لشهر واحد من امارته لسوء ولايته فيهم ^(٢) • وأقر يزيد بن عبد الملك ما فعله أهل المغرب فكتب اليهم بعد أن قتلوا يزيد بن أبي مسلم : « انى لم أرض عما صنع يزيد بن أبي مسلم ^(٣) » •

— **هشام بن عبد الملك :** (١٠٥ — ١٢٥ هـ / ٧٢٤ — ٧٤٣ م) أصبحت بلاد المغرب منذ القرن الثاني الهجرى قطرا إسلاميا وجزءا حيا نابضا من العالم الإسلامى • وحين أسلم البربر أصبحوا من أشد الناس حماسة للإسلام ومن أشدهم حرصا على نشر رايته • ولكن بدأت عناصر الثورة تتجمع بين البربر ضد حكامهم وذلك بسبب استبداد بعض الولاة الأمويين ، وإسرافهم فى جمع المال ، وتفرقتهم بين العرب والمغاربة ، والإسلام لا يعرف حواجز الطبقات أو الجنس أو اللون •

(١) فيما يتعلق بالتابعين العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز الى بلاد المغرب انظر : المالكي : رياض النفوس ج ١ ص ٦٤ — ٧٦ ، والديباغ : معالم الايمان ج ١ ص ١٢٨ — ١٦٢ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٥ — ٤٦ ، ومحمد على ديبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ١٨٥ — ١٩٠ • (٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والاندلس ص ٢١٣ — ٢١٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٦ — ٤٧ • (٣) ابن الاثير : اسد الغابة ج ٥ ص ٣٨ •

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير هي تولية عبيد بن الحبحاب على بلاد المغرب من قبل هشام بن عبد الملك . وكان عبيد الله بن الحبحاب قبل أن يلى بلاد المغرب ، يتولى خراج مصر منذ تولية هشام بن عبد الملك حكم الدولة الأموية في سنة ١٠٥ هـ إلى أن ولاء هشام بلاد المغرب في سنة ١١٤ هـ أو ١١٦ هـ . وتميزت ولاية ابن الحبحاب على خراج مصر بالاستبداد والتعسف وجباية أقصى ما يمكن جبايته من أهل مصر مما دفع المصريين إلى القيام بأول ثورة ضد الحكم الغربي في سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) (١) .

ولما سار عبيد الله بن الحبحاب إلى بلاد المغرب اتبع نفس السياسة التي اتبعها في مصر ، وهي استعلاء العرب وتميزهم عن أهل البلاد . وابتزاز أموال البلاد . ويقول ابن عذارى : « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبيعون بها إلى عامل إفريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسيبات ، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير ، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة ، فحينئذ اعتدت البربر على عامله فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب » (٢) .

واشتعلت الثورة في المغرب الأقصى بزعامة ميسرة وذلك في سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) . وأحرز البربر الانتصارات ضد الحكام العرب ، وشجعت تلك الانتصارات على إشعال لهيب الثورة ضد العرب في كل بلاد المغرب (٣) . ويذكر الطبري وابن الأثير أن أهل المغرب لم يظنوا سوءا

(١) انظر : سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٢ — ٢٣٥ و ٢٤٩ — ٢٥١ ، وما ذكرته من مراجع .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٥٣ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٢١٧ — ٢١٩ . وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٥٢ وما بعدها ، وابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٠ وما بعدها ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ص ٢٥٢ — ٢٦٩ وما ذكره من مراجع ، ومحمد عبد الله عنان : دولة الاسلام في الأندلس ج ١ ص ١١٧ — ١٢٠ .

بالدولة الأموية ولم يسخطوا على الخلفاء في بداية الأمر وإنما سخطوا على العمال ، وأنهم أرادوا لفت نظر الخلافة الى مساوئ عمالها في المغرب .

وسار وفد من المغاربة برئاسة ميسرة ، وكان الوفد بضعة وعشرين رجلا ، حتى قدموا باب هشام بن عبد الملك . ولكن حيل بينهم وبين مقابلة الخليفة حتى طال عليهم المقام في دمشق وعادوا ثانية الى بلاد المغرب دون أن يتعرفوا رأى الخليفة في سياسة العمال التي تنتطوى على تمييز العرب على المغاربة وعلى الأحجاف بالبربر .

ولهذا فإنهم بعد عودتهم من مقر الخلافة أعلنوها حربا على السادة الأمويين وبدأت ثورة ميسرة في المغرب الأقصى في سنة ١٢٢ هـ ، وهى الثورة التي أسهبت في الكلام عنها المصادر والمراجع المغربية والمشرقية .

٤ — الفقهاء والدعاة وشخصية بلاد المغرب الإسلامية والعربية :

يعتبر تحول بلاد المغرب الى الإسلام والعروبة منذ أن دخلها العرب فاتحين في بداية القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) من الأحداث التاريخية الكبرى . وأخذ المغرب القديم يكتفى بحضاراته الواهنة وبأديانه ومذاهبه القديمة ، وبدأ يحل محله المغرب الإسلامى العربى . وأظهر البربر المسلمون كثافة وقذرة وامتيازاً في ظل الإسلام والعروبة ، واستطاعت بلاد المغرب أن تساهم مساهمة جادة في الحضارة الإسلامية الرائعة .

وكان إسلام أهل المغرب سريع الانتشار بالرغم من صعوبة طبيعة البلاد وصعوبة فتحها الذى استغرق أكثر من ستين عاماً . إذ ماكاد القرن الثانى الهجرى يؤذن بالانتهاء حتى انتشر الإسلام بين أهل بلاد المغرب وأصبح الإسلام فيها جزءاً من تراثها القومى .

وقد مر بنا أن قواد فتح بلاد المغرب اهتموا بتعليم البربر الإسلام وغرائضه . والمعروف أن الفقهاء والصحابية والتابعين انضموا الى الجيوش التى فتحت البلدان المختلفة فاشتروا في الجهاد وكان لهم دور بارز في نشر الإسلام وتعليم أصول الدين الحنيف .

ومر بنا أن البربر كانوا نواة الجيوش التى ساعدت العرب في اتمام فتح بلاد المغرب ثم في فتح بلاد الأندلس وجنوب فرنسا .

وكانت قبائل البربر المحاربة تدخل في الإسلام في سهولة ويسر وذلك لما عرفه الإسلام من الجهاد والقتال في سبيل الله . ورأينا كيف تميز عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز بالرغبة القوية في نشر الإسلام وتعليم أصوله لأهل بلاد المغرب فعين الخليفة على تلك البلاد واليا فقيها وأرسل معه عشرة من الفقهاء ليقيموا مسلمى المغرب في أمور دينهم ولينشروا الإسلام بين القبائل المغربية .

وقد لاحظنا أن المراجع الحديثة الأجنبية والعربية تغفل دور « الدعاة » الذين شقوا طريقهم بين البربر منذ القرن الأول الهجرى فاندسوا بين القبائل والأفراد ، في الجبال والهضاب وفي السهول والمراعى والوديان . يعلمون عقيدة الإسلام وفرائضه بالحجة والاقناع وبالمثل الصالح . وكان إغفال دور « الدعاة » أو الإشارة اليهم إشارة عابرة ، سببا في إسقاط السبب الجوهرى لمرحلة هامة من مراحل تاريخ بلاد المغرب الإسلامى ، الا وهو سرعة استرداد المغرب لقوميته في ظل الإسلام . إذ سرعان ما استرد المغرب في ظل الإسلام شخصيته القومية فكان قيام الدويلات المغربية أول انفصال في الدولة العربية الإسلامية الشاسعة الأرجاء .

ولم يكن قيام دول المغرب الإسلامى تعبيرا فقط عن سخط البربر ضد بعض الحكام العرب الذين لم يساوا بين العرب والبربر كما تصور ذلك المراجع الأجنبية ومن أخذ عنهم من المؤرخين العرب المحدثين ، وانما كان ذلك بالدرجة الأولى بتأثير « الدعاة » الذين انبثوا بين البربر لنصرة مذهب دينى معين ، أو للتمسك بأصول الإسلام ، أو لإحياء الإمامة الإسلامية العادلة .

وكان اغفال دور « الدعاة » أو التقليل من شأنه في تلك المرحلة المبكرة أيضا من تاريخ بلاد المغرب الإسلامى ، سببا جعل المؤرخين العرب المعاصرين والأجانب لايتوافرون على دراسة تاريخ الدولة المغربية المستقلة التى قامت بفضل « الدعاة » وما كان لها من فضل في نشر الإسلام والعروبة وفي المشاركة الجادة في الحضارة الإسلامية .

وعلى هذا اعتبر المؤرخون العرب المعاصرون وكذلك المؤرخون الأجانب، نهاية المرحلة الأولى لنشر الإسلام في بلاد المغرب تنتهى بنهاية خلافة عمر بن عبد العزيز ، أو بأواخر خلافة هشام بن عبد الملك حين اشتعلت نورة ميسرة في سنة ١٢٢ هـ .

أما المرحلة الثانية من مراحل نشر الإسلام في بلاد المغرب في نظرهم ، فقتبداً في القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حين أغار بنو هلال وبنو سليم على بلاد المغرب من مصر فغتم إسلام البربر ، وبعد ظهور المرابطين في بلاد المغرب في القرن الخامس الهجرى ثم ظهور الموحدين في القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) (١) .

والحق أن إسلام أهل المغرب تم عن طريق الدعوة والحجة والإقناع بفضل الفقهاء والدعاة ، ولم يفرض بالقوة أو بالسيف . ولم يستعبد الإسلام هذه الشعوب وانما أشعرها بالعزة والكرامة وقوى فيها النزعة الى الحرية والاستقلال . وقامت الدعوة الإسلامية على أساس مبدأ الحرية والإخاء والعدالة والمساواة العنصرية بغض النظر عن العرق أو اللون . كذلك قام الإسلام في بلاد المغرب على أساس حب الجار والتسامح مع أهل الذمة ومصاهرة البربر وانشاء المساجد وفتح المدارس والكتاتيب .

وكان انتشار الإسلام في بلاد المغرب كما كان في مصر ، أسرع من التعرب . والإسلام ليس ديناً فحسب وانما دين وعلم وخلق ، ولذلك ارتبط الإسلام بالعلم والتأديب بمكارم الأخلاق . وصحب إسلام البربر تعرب الكثير منهم وذلك لتعلم القرآن ولعرفة العقيدة والفرائض وللتفقه في الإسلام وتأدية الصلاة .

وكان انتشار الإسلام مصحوباً بنشاط تعليمى واضح فكلما انتشر الإسلام في مكان خف اليه الفقهاء والعلماء . وأخذ يزداد انتشار الإسلام في بلاد المغرب منذ القرن الأول ثم الثانى الهجرى ، ونسيت بعض القبائل البربرية أصولها وصنعت لنفسها أصولاً عربية ،

(١) انظر مثلاً : دكتور حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى ص ٤ . وما اثار اليه من مراجع اجنبية .

أو تعربوا تعربا تاما ، كما شاركوا مشاركة واضحة في ثقافة نواحي الحضارة العربية الإسلامية •

ومن دراسة ما ورد من تراجم في كتب طبقات أئمة المغرب مثل : طبقات علماء إفريقية لأبي العرب التميمي . وكتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية للمالكي ، وكتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان للدباغ ، يتضح لنا رحيل الكثيرين من أهل بلاد المغرب إلى المشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة ، كما يتضح لنا أن رعيلا أول من أهل بلاد المغرب برعوا في الثقافة العربية وغهموها حق الفهم منذ القرن الثاني الهجري •

وأصبح المغرب الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري قطرا إسلاميا وجزءا حيا نابضا من العالم الإسلامي ينفعل مع الفكر الإسلامي ومع أحداث العالم الإسلامي • كذلك تقبلت بلاد المغرب دعاة الشيعة والخوارج الذين وفدوا إليها إما هربا من الدولة الأموية ثم الدولة العباسية ، وإما لنشر مذهبهم في مناطق أمينة وبعيدة عن مقر الدولة الحاكمة •

• — أباضية عمان والدعوة الى الإسلام والى الامامة العادلة :

حين أسلم أهل عمان كان إسلامهم عن فهم واقتناع وليس عن خوف ورهبة • وهذا واضح من الروايات التاريخية المظتلفة التى ذكرها الرواة والمؤرخون ، والتى تحدثنا عن وفود العمانيين الى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتلك التى تحدثنا عن رسل الرسول الكريم الى أهل عمان ، فضلا عن الروايات التى تبين ارتياح أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب لحسن إسلام العمانيين •

وبعد أن اعتنق العمانيون الإسلام أقبلوا بحماس بالغ على دراسة القرآن الكريم وعلم التفسير والحديث وغير ذلك من مختلف العلوم والفنون والآداب الإسلامية العربية • وخرج من عمان العلماء والنجباء والبلغاء الخطباء مما تشهد به كتب المؤرخين والأدباء وكتب الطبقات والتراجم •

واتصل العمانيون بأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ليأخذوا عنهم دينهم الصحيح ، فأخذوا عن أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وأبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى وأبى بن كعب •

كذلك أخذ العمانيون العلم عن غير هؤلاء من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأصبحت الصلة العلمية قوية بين عمان وبين المدينة المنورة •

وحين مضى عمر بن الخطاب البصرة فى سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) قدم إليها نفر من العمانيين كان منهم كعب بن مسور الذى عينه عمر بن الخطاب قاضيا عليها • وأخذت البصرة تنمو تجاريا وسكانيا وعلميا

ونقائفا وقويت صلتها بعمان حتى شبهوا العلم « بطائر باض بالمدينة
وفرخ بالبصرة وطار الى عمان » (١) .

ولم يكن عجيبا أن تزدهر عمان منذ فجر الإسلام ازدهارا كبيرا
فهى فى ذلك مكملة لمسيرتها الحضارية عبر آلاف السنين .

وفضلاً عن الازدهار العلمى فى عمان ، فإنها قامت بنشر الإسلام
وتثبيت أقدامه فى أجزاء متفرقة من المعمورة حيثما حل طلاب العلم ،
وحيثما وصل التجار العمانيون ، وحيثما التقى الحجاج فى بيت الله
الحرام .

وحين يتكلم ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) عن
عمان يقول : « وأكثر أهلها فى أيامنا خوارج اباضية ليس بها من غير
هذا المذهب الا طارئ غريب وهم لا يخفون ذلك » (٢) .

والحق أن عمان هى الوطن الأم للأباضية فى العالم الإسلامى .
والأباضية بمعناها الواسع فى عمان تعنى الإسلام المستمد من أصوله وهى
القرآن الكريم ثم الحديث والسنة الشريفة ثم الإجماع . أى أن المذهب
الأباضى فى عمان أقدم من اسمه ، أما اسم أباضية فنسبة الى عبد الله
ابن أباض الذى عاصر معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية ،
وعبد الملك بن مروان المؤسس الثانى للدولة الأموية .

وقد سماهم الأمويون « الأباضية » وأدخلوهم فى فرق الخوارج .
ولم يقبل الأباضية فى بداية الأمر تسميتهم بهذا الاسم ولكنهم قبلوه
منذ خلافة عمر بن عبد العزيز وبدأ اسم « الأباضية » يظهر فى كتاباتهم
بعد ذلك .

(١) انظر السالى : تحفة الاعيان ج ١ ص ٦٦ .

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٦ ص ٢١٥ .

أما عبد الله بن أباض الذى أطلق اسمه على هذه الجماعة ، فقد عاصر فقيه الأباضية وواضع مذهبها الامام جابر بن زيد . وكان ابن أباض من تلاميذه . وكان الأباضية قبل انتسابهم الى عبد الله بن أباض يحسبون أنفسهم باسم « الجماعة المؤمنة المسلمة » أو « المسلمين » أو « جماعة المسلمين » أو « أهل الدعوة » . وكان الأباضية يقبلون تسميتهم « المحكمة » لأنهم أبوا تحكيم الرجال في الدين فقالوا « لا حكم الا لله » . وكذلك كان الأباضية يقبلون تسميتهم « الحرورية » ، وهم الذين رفضوا أن يدخلوا الكوفة مع على بن أبى طالب بعد موقعة صفين وبعد أن قبل على التحكيم ، ودخلوا حروراء ^(١) .

كذلك تسمى الأباضية باسم « أهل الاستقامة » وتسموا باسم « الوهبية » نسبة الى عبد الله بن وهب الراسبي . كذلك تسموا باسم « أهل النهروان » أو « أهل النهر » وهم الذين اعتزلوا على بن أبى طالب في النهروان وقدموا على أنفسهم اماما وهو عبد الله بن وهب الراسبي .

كذلك كان الأباضية يتسمون باسم « الشراة » من قولهم « شرينا أنفسنا لدين الله فنحن لذلك شراة » ^(٢) ، أو من الآية القرائنية الكريمة : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) ^(٣) .

(١) حروراء : قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين ، نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا عليها فنسبوا اليها وسموا حرورية أو خوارج .
انظر لفظ حروراء في معجم البلدان لياقوت ، والفرق بين الفرق للبغدادى ،

(٢) انظر : المفريزى : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج ٢
س ٣٥٥ — ٣٥٦ .

(٣) سورة التوبة : آية ١١١ .

(م ١٧ — ندوة الدراسات ج ٣)

وبالرغم من أن الأمويين والعباسيين ، أعداء الأباضية ، أطلقوا عليهم اسم « خوارج » فقد كان الأباضية يقبلون تسميتهم خوارج بمعنى « المسلمين » أو بمعنى « الخروج في سبيل الإسلام » • ولعل كلمة خوارج بدأت تظهر حين خرج المسلمون على عثمان بن عفان بعد السنين الست الأولى من خلافته ، أو حين رفض المسلمون التحكيم بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان •

لكن الأباضية المعاصرين يتبرعون من اسم « خوارج » بعد أن أسىء فهم المذهب الأباضى ، وبعد أن جمع جل المؤرخين وكتاب الفرق والعقائد فضلا عن سائر الكتاب القدماء والحديثين ، بين الأباضية وبين الغلاة والمتطرفين والخارجين على الإسلام ، إما بواسطة الدعايات المسمومة للأمويين والعباسيين والفاطميين الذين حاولوا القضاء على الأباضية وعلى الدول الأباضية المستقلة ، وإما عن جهل ، أو تعصب ، أو عن رغبة في تدمير كيان المسلمين وتحطيم قوة الإسلام •

وبينما نرى الأباضية يتبرعون من الغلاة والمتطرفين ، ويتبرعون من الخوارج الأزارقة والصفرية والنجدية ، نرى مثلا المؤرخ ابن خلدون يصف الصفرية بالاعتدال ويصف الأباضية بالغلو !!

ومن خلال دراستنا للمصادر الإسلامية عامة والمصادر العمانية خاصة ، اتضح لنا أن دعوى الأباضية في سبيل الإسلام ماهى في الحقيقة الا ظهور أول الفرق الإسلامية التي تعتمد على القرآن الكريم وعلى السنة الشريفة وعلى الاجتهاد •

فحين ظهرت الفتنة الأولى في الإسلام بعد السنين الست الأولى من خلافة عثمان بن عفان ، وحين قبل علي بن أبي طالب التحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان ، اتسع خلاف المسلمين • وبدأ المسلمون يتساءلون عن المسلم الحقيقي وعن الإيمان وعن جوهر العقيدة الإسلامية وعن

مسئولية الإنسان وعن العدل في الإسلام وعن الإمامة الاسلامية
الصحيحة العادلة وعن إرادة الله •

ولم يكن اعتراض الأباضية على سياسة الخليفة عثمان بن عفان
بعد السنين الست الأولى من خلافته : ولا على الإمام علي بن أبي طالب
بعد قبوله التحكيم ، لأسباب سياسية أو لمنفعة مادية أو شخصية وانما
لأسباب تجت في رأيهم الى العقيدة الإسلامية •

ولم تكن الدعوة الأباضية دعوة في سبيل الحكم كالدعوة العلوية
التي ظهرت منذ قيام الدولة الأموية ومن بعدها العباسية لاثبات أحقية
البيت العلوي في الحكم ، ومثل الدعوة العباسية لاثبات أحقية بني
المعباس في الحكم دون بني أمية وبني علي •

وانما عمل الأباضية في كل العهود على أن يكون دستور الدولة
هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وأن يلتزم رئيس الدولة
وعماله عدل الخلفاء الراشدين وتمسكهم بالدين في سياسة المسلمين •

وكانت نشأة الأباضية بعد السنوات الست الأولى من خلافة عثمان
ابن عفان (حوالي سنة ٢٩ هـ / ٦٤٩ م) ، أو حين قبل علي بن أبي طالب
التحكيم في صفر من سنة ٣٧ هـ (٦٥٧ م) أثناء معركة صفين التي دارت
بينه وبين معاوية بن أبي سفيان ، أو بعد اجتماع الحكيم وخلعهما لعل
ابن أبي طالب في شهر رمضان من سنة ٣٧ هـ •

وكانت الصورة الايجابية لتلك النشأة بعد التحكيم وحين زالت بيعة
على من أعناق الناس أن اجتمع الخاصة من الصحابة وكبار التابعين في
الكوفة وبايعوا لعبد الله بن وهب الراسبي في العاشر من شهر شوال
سنة ٣٧ هـ (٦٥٨ م) أميرا للمؤمنين • ولم يكن ذلك خروجاً منهم إذ أن
بيعة على بن أبي طالب قد زالت من أعناقهم بعد خلع الحكيم له ،

الذين وكلهما ورضى بما يحكمان به ، فأصبحوا أحرارا يبايعون من نساءوا .

وكان ممن أنكر التحكيم طائفتان . خاصة سارت على نهج عبد الله ابن وهب الراسبي ومنهم العلماء المتفقهون في الدين من الصحابة وكبار التابعين مثل الأحنف بن قيس . وأبى بلال مرداس . وعروة بن حدير . وعدى بن حاتم الصحابي . وهؤلاء هم الذين سمو غيما بعد الأباضية .

أما الطائفة الأخرى ممن أبوا التحكيم فقد كان أغلبها من العامة . وقد وقع لهم رد فعل شديد بعد معركة النهروان وقضاء على بن أبى طالب على من كانوا خاصته وأنصاره وعلى عبد الله بن وهب الراسبي في سنة ٣٨ هـ (٦٥٨ م) .

وهؤلاء العامة غلوا في حماسهم وتطرفهم وغلوا في دينهم . مثل الأزارقة وقائدهم نافع بن الأزرق ، والصفرية ورئيسهم عبد الله بن المصفر ^(١) والنجدية ورئيسهم نجدة بن عامر ^(٢) .

وقد اختار الأباضية في عمان طوال تاريخهم طريق الاعتدال وابتعدوا عن التطرف وجعلوا هدفهم الرئيسي إقامة تعاليم الدين الحنيف ونشر الإسلام والدعوة له ، أى أنهم ربطوا بين الإيمان وبين العلم والعمل .

والمعروف أن عمان هي موطن إمام الأباضية وعالمها وفقهها جابر ابن زيد الأردى العماني . وولد جابر بن زيد قبيل نهاية خلافة عمر بن الخطاب بين سنتي ١٨ و ٢٢ هـ في بلدة الفرق من أعمال نزوى في عمان . وجابر من ولد عمرو بن اليمحم وهي من القبائل الأزدية في عمان . وكان جابر بن زيد يكنى بابنته « الشعثاء » التي لا يزال قبرها معروفا في الفرق الى الآن . وتلقى جابر بن زيد بداية تعليمه في وطنه عمان ، ثم رحل الى

(١) تسميه بعض كتب الفرق « زياد بن الأصفر » .

(٢) انظر : محمد على دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٣٩١ .

انبصرة للاستزادة من العلم والفقه . وكانت البصرة آنذاك إحدى المراكز العلمية الهامة في ديار الإسلام كما كانت مقرا للعلماء الأعلام من أهل عمان حتى كادت البصرة أن تكون عمانية .

وكان جابر بن زيد من كبار التابعين : أدرك سبعين صحابيا من أهل بدر . وكان عبد الله بن العباس — أو البحر — من أعظم أساتذة جابر ، وكان يفخر بتلميذه الذي تعمق في دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف وعلوم الشريعة الإسلامية .

كذلك أخذ جابر العلم عن السيدة عائشة أم المؤمنين . وعن أنس بن مالك ، وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب : وعن غيرهم من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وعاصر جابر بن زيد كثير من العلماء والفقهاء مثل الحسن البصري وعمر بن دينار وغيرهما لكن جابراً تفوق عليهم جميعاً في العلم والخلق والشجاعة في الرأي . فكان ينشر العلم في المساجد والمجامع ويجاهد في سبيل إحياء سنة الرسول عليه الصلاة والسلام . ويدعو سرا وعلنا إلى ضرورة محافظة الأمة الإسلامية على شريعة الله متمثلاً بقوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) (١) .

وعنى جابر بتدوين الأحاديث والسنن ، وروى عنه أكثر أهل المذاهب واعتمدوا على ثقته وأمانته ، واعتبره أهل السنة من المحدثين الثقات ومن الفقهاء البارزين .

ويعتبر جابر بن زيد مؤسس المذهب والفكر الأباضي . وبالرغم من أنه قضى معظم حياته العلمية في البصرة وفي عصر سلطان الأمويين حيث

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠ .

كانت يد الحجاج بن يوسف الثقفي تبطش بكل مناوئء للدولة ، إلا أنه المتزم برسالته الدينية العلمية • وألف جابر موسوعته العلمية النفسية التي عرفت باسم « ديوان جابر » وذلك في النصف الثاني من القرن الأول الهجري • وقيل إن عبد الملك بن مروان وبنيه استولوا على « ديوان جابر » وحرّموا دراسته ونشره على الناس • وروى أن العباسيين حرّموا على الناس استنساخه ووضعوه في مكتبة دار الحكمة في بغداد وكانوا يعلمون أنه من مفاخر المسلمين • وكان ديوانه العظيم ثروة علمية عظيمة ومن تراث الأباضية العلمي العظيم ^(١) •

وكان الامام جابر بن زيد يحض تلاميذه على العمل على قيام الإمامة العادلة المبنية على الاصول الصحيحة للإسلام ، والتي تجدد عهد الخلفاء الراشدين والتي تلتزم سيرة أبي بكر وعمر في العدل والمساواة والشورى وعدم الاستبداد •

وفي فترة نفى الحجاج بن يوسف الامام أبا الشعثاء جابر بن زيد الى وطنه عمان • لكن البصرة كما ذكرنا كانت عمانية في سكانها وبعلمائها ، وكان اتصال أبناء العشائر والقبائل بعضهم ببعض من أكبر العوامل التي ساعدت على انتشار علم ومبادئ جابر بن زيد بين مواطنيه العمانيين ، هذا بالاضافة الى حلوله بينهم فترة من الزمن حين نفاه الحجاج من البصرة الى عمان •

ولانتين من المصادر المختلفة متى نفى جابر بن زيد الى عمان ولامتى عاد ، لكن الثابت أن أبا الشعثاء عاد الى البصرة مكملًا لمذهبه الديني والسياسي ، محاولا القضاء على الملك المستبد الذي لا يستند على القرآن والسنة والإجماع • وقد توفي جابر بن زيد في البصرة في سنة ٩٣ هـ (٧١١م)

(١) انظر : الشماخي : كتاب السير ص ٧٠ ، ومحمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٢٨ — ١٤٩ ، والسيابي السمالي : اصدق المناهج في تمييز الأباضية من الخوارج ص ٥٩ •

أو في سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) ، أو في تاريخ بين هاتين السنتين بعد أن انتفع بعلمه الكثيرون الذين حملوا رسالته من بعده .

والحق أنه حين وفاة الامام أبى الشعثاء كانت الدعوة الأباضية قد بدأت تزدهر وتجذب اليها الكثير من القبائل وأهل البلاد الإسلامية ، وزاد في نجاحها ما لاقتته دول العالم الإسلامي حينذاك من تعنت كثير من ولاية الأمويين . وتكاتف العلماء العمانيون والبصريون الأباضية من تلاميذ أبى الشعثاء وأصحابه في العمل على انتصار الحركة الإسلامية الأباضية . ونجح تلميذ أبى الشعثاء وزميله ، أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمه التميمي بالولاء البصري ، في حمل رسالة أبى الشعثاء الدينية والسياسية ، وأخذ هو وأعوانه في تنظيم الحركة الأباضية التي انتصرت في عمان — موطن أبى الشعثاء — وقامت الإمامة فيها ، كما قامت في حضرموت واليمن ، وفي بلاد المغرب .

٦ - الدعوة الأباضية في بلاد المغرب :

كانت بلاد المغرب قبل الإسلام وبعد فتحها على يد العرب وطنا واحدا ، وكانت القبيلة الواحدة تتفرق في كثرة أجزائه •

وقد عرفنا أن التهيؤ لدور المغرب الإسلامي بدأ ببداية الفتح الإسلامي لتلك البلاد • أما دور ازدهار المغرب الإسلامي فسيبدأ بالدول الإسلامية الأباضية المستقلة في بلاد المغرب •

وقد أغفلت جل المصادر القديمة فضلا عن المراجع الحديثة دور الدعوة والدعاة الأباضية الهام في بلاد المغرب ، كما جاءت بعض الحقائق بعيدة عن الحقيقة • ولعل عذر الكتاب قديما وحديثا أن الأباضية واجهوا خصوما مستبدين أقوياء عملوا على كتمان نشاطهم وعلى إخفاء مجهوداتهم الرائعة في سبيل نشر الإسلام في المغرب الإسلامي وفي سبيل إقامة الدول الإسلامية العادلة •

وكان من خصوم الأباضية الأقوياء الدولتان الأموية والعباسية • والدولة الفاطمية ، هفتكت تلك الدول بمصادر وتراث الأباضية العظيم كلما أمكنهم ذلك •

أما المصادر الأباضية التي حفظت من يد العبث والضياع فلا زال معظمها مخطوطا أو غير معروف للباحثين • ولهذا نجد المراجع الأجنبية والعربية العديدة التي رجعنا إليها لا تتحدث عن نشاط الدعاة للإسلام في المقارة الأفريقية قبل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) • ومر بنا أن أبا الشعثاء جابر بن زيد كان من أكبر منابع العلم في عصره وكان من أنصار الدعوة للإمامة الإسلامية العادلة • وكانت البصرة - الوطن الثاني للعمانيين آنذاك - مركزا ينبعث منه الدعاة ويأتي اليه انطلاب وتخرج منه التوجيهات والإمدادات المالية •

وحين وفاة الإمام أبى الشعثاء فى أواخر القرن الأول الهجرى ، كانت دعوة الأباضية قد بدأت تشق طريق النجاح فى كثير من ديار الإسلام •
ركان الأباضية يعتمدون فى نشر مذهبهم وفى نشر الإسلام على الحجة الإقناع وليس على القوة أو العنف • وخير شاهد على ذلك الرسالة المشهورة التى كتبها عبد الله بن أباض رداً على رسالة عبد الملك بن مروان اليه •

وفى كتاب عبد الله بن أباض الى عبد الملك بن مروان يتبين لنا شجاعته فى الحق وقوته فى المناظرة والمجادلة ، كما نعرف من هذا الكتاب آراء هذه الجماعة المسلمة المؤمنة التى سميت فيما بعد باسم « الأباضية » (١) • ويتبين لنا من نجاح الأباضية فى تأسيس دولهم فى المشرق والمغرب ، أن دعائهم كانوا مدربين تدريباً واعياً لنشر الإسلام وإحياء الامامة الإسلامية العادلة بطريق الاقتناع والتعليم والمناقشة والمنطق •

ولاشك أن الدين الإسلامى ورباط الإسلام كان أعظم أسباب حفظ الوحدة بين المشرق والمغرب ، وجعل العالم الإسلامى جسماً واحداً متراس الصفوف والبنان •

ويبين تاريخ الأباضية فى بلاد المغرب بوضوح صلة المغرب العربى لإسلامى بالمشرق العربى الإسلامى • وكان أباضية عمان وعلماءها يقدون هذه الصلة دائماً ويحرصون عليها ، وأصبحت المغرب بفضل هذه الصلة القوية أصيلة فى العروبة والإسلام •

وقد عرف المسلمون المجاهدون من الصحابة والتابعين بلاد المغرب فى زمن الفتح • ثم نرى موسى بن نصير ، آخر قواد فتح المغرب ، يستكثر

(١) وردت هذه الرسالة فى معظم المراجع الاباضية انظر مثلاً : البرادى : الجواهر المنتقاة ص ١٥٦ — ١٦٧ ، والسيابى السهائلى : ازالة الوغشاء عن نباغ أبى الشعثاء ص ٨٦ — ١٠٠ •

من سبى البربر ويصحب العديد منهم الى دار الخلافة • كذلك استكثر ولاية الأمويين في المغرب ، وخاصة عبيد الله بن الحبحاب ، من سبى البربر الذين كانوا يرسلون الى مقر الدولة الأموية •

وانتب البربر في الجيوش الإسلامية وفي القصور وفي حلقات العلم وفي سائر الأعمال ، وأصبح منهم العلماء والقواد الأبطال والجند الشجعان والشخصيات البارزة التي تمتاز بحب العمل واتقانه وبالنشاط والمثابرة والأمانة • وبدأنا نجد بعض الأمراء وغير الأمراء من أمهات بربريات فكانت أم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك — والذي عرف فيما بعد باسم عبد الرحمن الداخل — من قبيلة نفزاوة المغربية ، وكانت أم أبي جعفر المنصور سلامة البربرية •

ولاشك أن دعوى الخوارج عامة — والأباضية خاصة — قد أثرت تأثيرا كبيرا في البربر وذلك لتعلقهم بالعدل والمساواة وحبهم للحرية • وكان تعسف وظلم بعض الولاة الأمويين في بلاد المغرب قد جعلهم يتلمسون النجاة ويتعلقون بالدعوة الى التمسك بأصول الدين الحنيف والى وجوب التمسك في السياسة بالدين والى وجوب إحياء الامامة العادلة •

والأباضية يتقيدون بمقاييس الإسلام في تفضيل الرجال ، وبمعايير الدين في اختيار الرؤساء ، فهم لا يتعصبون للقبيلة ، ولا يؤثرون الرجل لماله أو لحسبه ونسبه ، فليس هناك تفاضل بين مسلم ومسلم الا بالعمل الصالح والتقوى • وقد قام الإسلام على أساس الحرية والإخاء والعدالة والمساواة والتسامح الديني ، وأثر عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال : « اسمعوا وأطيعوا ولو ولئى عليكم عبد حبشي » •

والأباضية يقولون إن الإمامة لا يراعى فيها العرق ، ولكن الكفاءة والتقوى والعلم • ولم يكن أبو الشعثاء جابر بن زيد ، يعمل ضد الأمويين لحب الملك أو بدافع العصبية ، ولكن للرجوع الى الإمامة التي تتقيد بالدين والى العدل بين المسلمين كما أمر الله تعالى •

وقد عرفنا أن نواة الأباضية تكونت من العلماء الصحابة والتابعين ، ومن القراء الذين تمسكوا بالدين • وحين أحدث عثمان بن عفان وغيره وخالف بعد السنين الست الأولى من حكمه وثار عليه المسلمون رماهم بالخروج عن الطاعة ، وحين اعتزل القراء على بن أبى طالب بعد قبوئه التحكيم رماهم أعداء على بالخروج وسموهم خوارج •

وأخذ الأمويون يتتبعون الخوارج تقتيلاً وتشريداً وتعذيباً وسجناً ، المعتدلين منهم والمتطرفين ، وذلك لأنهم رأوا فيهم عدواً دينياً يحاربهم لعدم تمسكهم بالدين في سياستهم ، كذلك رأوا فيهم عدواً دنيوياً يحارب دولتهم التي لا تتمسك بالامامة العادلة •

وفى الوقت نفسه كان الخوارج يرون أن من الواجب عليهم جهاد الظلمة وإنكار الجور ، وكانوا يمتازون بالشجاعة والإيمان العميق رجالاتاً ونساءً ، كما كانوا لا يبالون بالاضطهاد وكانوا يبشرون تعاليمهم سرا وعلانية كلما سنحت لهم الفرصة • وقد روى صاحب الأملأى أن الرافض ابن قيس — وكان ممن رفضوا التحكيم ثم صار بعد ذلك أباضياً — دخل على معاوية بن أبى سفيان فقال له : لم يحبك الناس وأنت من الخوارج ؟ فأجابته : لو عاب الناس الماء ما شربوه ! !

والحق أن دعاة الخوارج والأباضية أخذوا على عاتقهم الدعوة لنشر الإسلام في كافة البلاد المفتوحة فضلاً عن الدعوة للامامة الإسلامية العادلة • وليس من شك في أن الإسلام علا بقوة المؤمنين الذين نشروا الإسلام وأيدوا الدين •

ولانعرف تماماً متى دخل المذهب الأباضى أو مذهب الخوارج في بلاد المغرب • ويربط ابن خلدون بين دخول هذا المذهب وبين مقتل يزيد بن أبى مسلم في سنة ١٠٣ هـ (٧٣٠ م) ^(١) • لكننا ينبغي أن نأخذ آراء ابن

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٠ •

خلدون يحذر فيما يتعلق بالأباضية أو الخوارج ؛ إذ أن ما يورده بخصوص الأباضية يجعلنا نعتقد أنه لم يفهم حركتهم حق الفهم ، أو أنه تأثر بدعايات الدول الأموية والعباسية والفاطمية ضدهم • فهو مثلا حين يتكلم عن دعوة « الدعاة » الى العمل بالكتاب والسنة والإصلاح ، يسمى هذه الدعوة إلباس الحق بالباطل ^(١) •

وليس من شك في أن أحداث بلاد المغرب تبين أنها حفلت بالتأثير من دعاة الأباضية أو الخوارج بدليل قيام الدول الأباضية المستقلة قبل قيام الدول المستقلة في مصر الإسلامية وفي المشرق الإسلامي بنحو قرن من الزمان ، باستثناء ائمة عمان وحضرموت واليمن التي قامت وانتهت في آخر الدولة الأموية وبعد قيام الدولة العباسية بقليل •

وقد سبقت الدول الأباضية في بلاد المغرب دولة الأدارسة العلوية ، ودولة الأغالبة السنية ، كما حاولت تهذيب دول الخوارج الصفرية •

ومن المراجع أن الأباضية اشتركوا في الجهاد واستكمال فتح بلاد المغرب بعد الفتنة التي بدأت في أواخر خلافة عثمان بن عفان وفي أيام على ابن أبي طالب •

أما الدعوة لنشر الإسلام وإقامة العدل فقد تمسك بها الأباضية منذ البداية وكانت من أهم تعاليمهم • وأكد الأباضية في مختلف العصور والأزمنة واجبههم في نشر الإسلام والدعوة اليه • ونرى مثلا في سيرة الشيخ الفقيه العماني أبي المؤثر الصلت بن خميس في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) والتي وردت في مخطوط « كتاب سير الأئمة القائمين بالحق في الأمة » وهو المعروف باسم « السير والجوابات عن العلماء والأئمة رحمهم الله تعالى » مانصه : « فان استطاعوا أن يتعدوا مصرهم

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٠ •

أبى غيرهم وجب ذلك عليهم كلما قدروا عليه فليدعوا الناس إلى الدخول
في دين الله والتسليم للعدل» (١) .

واعتبر أباضية عمان أن أمرهم واحد في المشرق والمغرب . ففى سيره
الامام محبوب بن الرحيل (٢) إلى أهل عمان يقول : « وكانت المحكمة
واحد لو حكم رجل من المغرب تولاه من كان منهم بالمشرق . ولو حكم
بالمشرق تولاه من كان بالمغرب » (٣) .

وفى هذه المسيرة التى كتبها محبوب بن الرحيل ، العالم والفقيه الإباضى
فى أواخر القرن الثانى الهجرى أو أوائل الثالث الهجرى . يتبين لنا أن
الأباضية ، أو المحكمة ، كان أمرهم واحدا حتى خرج نافع بن الأزرق
وغيره من أصحاب الفرق المتطرفة من الخوارج منذ النصف الثانى من القرن
الأول الهجرى .

وقد اعتبر الأباضية ، الإيمان ونشر الإسلام والعدل والعمل والإمامة
العادلة وعدم التطرف ، هدفهم الرئيسى من مشرق العالم الإسلامى إلى
مغربه . واعتبر الأباضية أن المسلمين بنيان واحد متراس لا انفصام فيه
بين المشرق والمغرب .

وهذه المسئولية الكبرى التى حملها الأباضية بدأت ببداية إسلام
العمانيين واستمرت فى طريقها بعد الأحداث التى حدثت فى أواخر خلافة
عثمان بن عفان ، وبعد قبول على بن أبى طالب التحكيم . وصمد الأباضية

(١) انظر صفحة ٦٠٩ من المخطوط . والمخطوط محفوظ فى وزارة التراث
القومى والثقافة فى سلطنة عمان تحت الرقم العام ١٨٥٤ والرقم الخاص ٢ .

(٢) محبوب بن الرحيل : من علماء الإباضية فى عمان فى القرن الثانى
الهجرى وأوائل الثالث الهجرى . أما جده فهو العنبر من تلاميذ الامام أبى
الشعثاء . وأسرة محبوب بن الرحيل إلى الامام سعيد بن عبد الله ، من أهل
الغسل والفقه والعلم .

(٣) انظر مخطوط « السير والجوابات » ص ٣٥٦ .

أمام الأحداث راغبين لواء الإسلام القائم على القرآن الكريم وعلى الاحاديث النبوية وعلى السنة الشريفة ، وعلى الإجماع وعلى آثار أئمة الهدى •

واعتمد علماء وأئمة الإباضية في تمويل الدعاة على التجار الإباضية الأغنياء ، وعلى ما يؤديه الإباضية من زكاة ، وعلى ما يتبرع به الإباضية رجالا كانوا أو نساء ، وهذا واضح من المصادر الإباضية المطبوع منها والمخطوط •

وكانت علاقة الحجاج بن يوسف الثقفي العدائية مع أسرة المهلب بن أبي صفرة لها أكبر الأثر في انضمام كثير من أفراد هذه الأسرة الى الامام أبي الشعثاء جابر بن زيد • ويدلنا على كياسة جابر بن زيد وشجاعته وإيمانه العميق برسالته ودعوته ، أن دروسه وتوجيهاته كانت في البصرة حيث كان يسيطر عليها وعلى شرقي العالم الإسلامي بيد من حديد منذ سنة ٧٥ هـ الى سنة ٩٥ هـ (٦٩٤ — ٧١٤ م) الحجاج بن يوسف أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد • ولم يستطع الحجاج ان يفعل ازاء أبي الشعثاء شيئا إلا أن نفاه فترة من الزمن الى وطنه عمان •

وكان أخطر أعداء الأمويين هم الشيعة والخوارج والإباضية ، وإن كان الإباضية لم يظهروا العنف والشدة والتطرف كما فعلت الفرق الأخرى واستخدم الحجاج كل أساليب القمع والشدة ضد الفرق المناوئة للحكم الأموي ، لكن أبا الشعثاء استمر في دروسه وتعاليمه وسط هذا الجو المشحون بالإرهاب والشدة مكونا بذلك مدرسة من تلاميذه حملوا من بعده تلك الشعلة المضيئة بنور الإيمان وبقوة الصبر والاحتمال والعمل •

وبدأ الإباضية يلتقطون أنفاسهم بعد وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي وفي حكم سليمان بن عبد الملك ، رأيناهم يوصى عامله على المغرب بأن يتقى الله وأن يسير سيرة الحق والعدل • وازداد الإباضية ارتياحا

حين تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة . والمعروف في التاريخ أن عمر بن عبد العزيز كان حريصا على توحيد صفوف المسلمين والتزام عدل الإسلام .

ولم يكد يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة حتى أرسل له الأباضية وفدا من علمائهم وهم جعفر بن السماك ، وأبو الحر على بن الحصين انعبري ، والحتات بن الكاتب ، والحباب بن كليب ، وأبو سفيان قنبر البصري ، وسالم بن ذكوان . كذلك تذكر بعض المراجع الأباضية أن عبد الملك بن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان أباضيا ^(١) .

وكما كان عمر بن عبد العزيز خيرا على الأمة الإسلامية كلها كان خيرا كبيرا على بلاد المغرب ، وقد مر بنا حرصه الشديد على نشر الإسلام في بلاد المغرب . وتكاثفت جهود الخليفة مع جهود الأباضية لنشر الإسلام بين المغاربة . ونسمع في وقت واحد في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني عن داعيتين أحدهما أباضي والآخر من الخوارج .

أما الداعية الأباضي فهو سلمة بن سعد الحضرمي ^(٢) ، وأما الداعية الآخر فهو عكرمة الذي ينتسب اليه الخوارج الصفرية في بلاد المغرب ^(٣) . ولعل صحة سلمة وعكرمة توضح أن الداعيتين كان لهما هدف واحد وهو نشر الإسلام بين البربر والدعوة الى المساواة بين جميع المسلمين والى الرجوع بالإسلام الى نقائه الأول والى احياء الامامة العادلة .

(١) الدرجيني : طبقات الأباضية . ورقة ٩٩ ، والشماخي : سير
ص ٧٩ - ٨٠ ، ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ١٧٥
و ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) انظر : أبو زكريا : السيرة واخبار الائمة : ورقة ٣ ، والدرجيني :
طبقات الأباضية : ورقة ٤ ، والشماخي : سير ص ٩٨ و ١٢٣ ، وعوض
خليفات : نشأة الحركة الأباضية ص ١٣٣ .

(٣) أبو زكريا : السيرة : ورقة ٣ ، والدرجيني : طبقات الأباضية :
ورقة ٤ .

ونلاحظ أن عكرمة كان أصله من بربر بلاد المغرب وكان مولى لحصين العنبري ، فوهبه لعبد الله بن العباس حين ولي ابن العباس البصرة لعل ابن أبي طالب •

واجتهد عبد الله بن العباس في تعليم عكرمة القرآن والسنن • وحدث عكرمة عن ابن العباس وابن عمر وابن عمرو ، وعن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري والحسن بن علي ، وروى عنه الزهري وعمر بن دينار • وكان أبو عبد الله عكرمة يتنقل من بلد إلى بلد فدخل خراسان واصفهان ومصر وغيرها من البلاد ، كما كان أحد فقهاء مكة وتابعيها • وروى أن عبد الله بن العباس قال له : « انطلق فأغث الناس » • كذلك تكلم الناس في عكرمة لأنه كان يرى رأى الخوارج • وحين توفي عبد الله بن العباس في سنة ٦٨ هـ (٦٨٧ م) كان عكرمة على الرق ، ثم أعتقه علي بن عبد الله بن العباس (١) •

وحين وصل عكرمة إلى بلاد المغرب نزل في مدينة القيروان وأخذ يتصل بزعماء البربر • وانتشرت دعوة عكرمة بشكل خاص في طنجة والمغرب الأقصى حيث بدأ البربر ثورتهم بزعامة ميسرة ضد الأمويين في سنة ١٢٢ هـ • أما تاريخ وفاة عكرمة فهو غير معروف تماما ف قيل إنه توفي سنة ١٠٥ هـ أو ١٠٦ هـ أو ١٠٧ هـ وقيل سنة ١١٥ هـ (٢) ، كذلك لا يعرف مكان وفاته ف قيل إن وفاته كانت بالمدينة وقيل إنه توفي بالقيروان ، لكن ابن خلكان يعود فيقول « والأول أصح » أي أن وفاته كانت في المدينة (٣) •

هذا عن عكرمة الذي تبعه الخوارج الصفرية في أفريقية (تونس انحالية) وفي شمال المغرب الأوسط وفي المغرب الأقصى • والذي أخذ عنه أيضا أبو القاسم سمكون واسمول رأس أسرة بنى واسول في سجلماسة •

(١) انظر عن عكرمة : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٠٢ •

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٠٢ •

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٠٢ •

ونحب أن نشير هنا الى أن عكرمة أخذ العلم عن مولاة عبد الله بن العباس ، كذلك كان عبد الله بن العباس أستاذ أبي الشعثاء فقيه المذهب الأباضي وواضع أسسه •

ويعتبر بعض العلماء الأباضية أن الحلقة الأولى في سلسلة المذهب الأباضي هو الصحابي الجليل عبد الله بن العباس ، والحلقة الثانية هو جابر بن زيد أما الحلقة الثالثة فهو الامام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ^(١) • ولعل انتساب عكرمة وانتساب الأباضية الى عبد الله بن العباس يفسر لنا عدم الاختلاف الجوهرى بين الأباضية وبين الصفرية في بلاد المغرب ، بل ويفسر انضواء الصفرية في أغلب الأحيان تحت زعامة الأباضية •

أما سلمة بن سعيد الحضرمي فإنه حين وصل الى بلاد المغرب الأدنى دخل بلاد هواراة في سرت ووصل الى جبل نفوسة وأقبل البربر على دعوته اقبالا عظيما • وكان سلمة متحمسا كل التحمس في سبيل الدعوة الى الإسلام وفي سبيل الأخذ بأيدي البربر لانشاء الامامة الإسلامية الصحيحة •

ويبدو أن هذا التحمس جعله لا يستتر في دعوته ولهذا أشار اليه المؤرخون ، واعتبره البعض أول داعية للمذهب الأباضي في بلاد المغرب • وقد أثر عنه أنه كان يقول لأصحابه ومريديه : « وددت أن يظهر هذا الأمر يوما واحدا من غدوه الى الزوال فما أبالى ان ضربت عنقى » ^(٢) •

والمعروف أن الدعوة الأباضية التي وضع أساسها الامام جابر بن زيد ، نشطت نشاطا كبيرا على يد تلميذه وزميله أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة • والحق أن العلماء العمانيين والبصريين الأباضية من تلاميذ أبى

(١) انظر : السيابى السمانلى : ازالة الوعثاء عن اتباع أبى الشعثاء

ص ٣٣ •

(٢) الدرجينى : طبقات الاباضية : ورقة ٤ • والشماخى : سـ

ص ٩٨ ، ١٢٣ •

(م ١٨ — ندوة الدراسات ج ٣)

الشعثاء وأصحابه تكاثفوا في العمل على انتصار الحركة الإسلامية الأباضية .
وأثمرت تلك الحركة في حياة أبى عبيدة فقامت الإمامة في عمان — موطن أبى
الشعثاء وفي حضرموت واليمن وفي بلاد المغرب .

وكان من العلماء الذين جاهدوا مع أبى عبيدة مسلم ، صديقه وزميله
ضمام بن السائب الندبى العمانى أحد رواة الحديث عن الامام جابر بن
زيد . ولم يفزع أبو عبيدة هو وصديقه ضمام بن السائب العمانى من
فسوة سجن الحجاج ، إذ واحلا رسالتهما الدينية والعملية بعد خروجهما
من السجن . وظل أبو عبيدة بمعاونة أصحابه وتلاميذه يشرف على الدعوة
الى الإسلام والدعوة الى الامامة العادلة حتى أدركه أجله في النصف الثانى
من القرن الثانى الهجرى .

أما فيما يتعلق ببلاد المغرب فالمعروف أن الأباضية نشطوا نشطا
كبيرا وأصبح أمرهم ظاهرا منذ مجيء سلمة بن سعد الحضرمى الى بلاد
المغرب . ووافق تحمس الدعاة وشجاعتهم تبرم أهل المغرب بظلم ولاية
الأمويين واستبدادهم وانحرافهم عن الدين : فأقبلوا على دعاة الأباضية
في حماس بالغ .

وسرعان ما انتشر المذهب الأباضى انتشارا واسعا امتد من غربى
مصر في ليبيا وطرابلس وفي جبل نفوسة وفي جزيرة جربة في تونس
الحالية ، وفي أغلب المغرب الأوسط من شرقى مدينة مليانة الى غربى وهران
وخاصة في وادى ميزاب في جنوبى الجزائر الحالية .

ولاشك أن سلمة بن سعد الحضرمى وغيره من الدعاة الأباضية قد
شجعوا المتحمسين من البربر على الرحيل الى البصرة للاتصال بالعلماء
الأباضية وللتعمق في أحكام الدين الإسلامى وفقهه . وكان لجبل نفوسة
فضل السبق الى أبى عبيدة وزملائه . فكان منه أبو عبد الله محمد
ابن مغطير ^(١) الجنائانى الذى كان أول من جمع القرآن كله في جبل

(١) تذكر بعض المراجع ان اسمه « مغيطر » .

نفوسة وحفظه ، ثم أراد التخصص في العلم فساغر الى أبى عبيدة .
وكان بذلك أول تلميذ مغربي ينسافر لطلب العلم .

وكان ابن مغطير من علماء المغرب الأكفاء الذين امتازوا بالعلم والشجاعة
وحضر نشأة دولة أبى الخطاب ، وامامة دفاع أبى حاتم المزوزى . ونشأة
الدولة الرستمية وعاش الى زمن الامام عبد الوهاب بن رستم .

وحين عاد ابن مغطير من البصرة كان سلمة بن سعد الحضرمي لايزال
يدعو للإسلام وللمذهب الأباضي في بلاد المغرب فاشترك الاثنان في الدعوة
في جبل نفوسة .

ولانعرف اذا كان سلمة بن سعد قد توفي في بلاد المغرب أو عاد
الى المشرق ، لكن المعروف أنه حين رحل سلمة الحضرمي صار ابن مغطير
رئيسا للدعاة الأباضية في جبل نفوسة الذى أصبح المعقل الرئيسى
لأباضية المغرب في الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى ^(١) .

وكانت رحلة ابن مغطير الى المشرق فاتحة لرحلات المغاربة الى
المشرق الإسلامى للاستزادة من العلم ولربط العلم بالعمل . واختار
الأباضية في بلاد المغرب أربعة من المغاربة الأكفاء وذوى الطموح
ليتفقهوا في المذهب الأباضى على أيدي الفقهاء والعلماء الأباضية العمانيين
والبصريين في البصرة .

وهؤلاء الأربعة هم أبو درار ^(٢) اسماعيل بن درار الغدامسى من
غدامس جنوب طرابلس . وعاصم السدراتى من سدراته في الأوراس ،

(١) انظر : الوسيانى : سير أبى الربيع . ورقة ٧٩ و ٢٨٠ . والشماخى :
سير ص ١٤٤ . وعلى يحيى معمر : الأباضية في موكب التاريخ ص ٢٧ ، ومحمد
تلى دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٨٨ — ١٨٩ ، وعوض خليفات :
نشأة الحركة الأباضية ص ١٣٦ .
(٢) يكتب في بعض المراجع « ضرار » .

وأبو داود القبلى النفزاوى من نفزاوة جنوب أفريقية (تونس الحالية) .
وعبد الرحمن بن رستم ، الفارسي الأصل ، من القيروان . وسمى هؤلاء
الأربعة فى المراجع الأباضية « حملة العلم الى المغرب » .

وفى البصرة توطدت صلات الأخوة والمحبة بين حملة العلم المغاربة
وبين أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافرى — وهو عربى من اليمن —
فانضم اليهم وعرف منهم كثرة عدد الأباضية فى بلاد المغرب وان الجو
قد تهيأ لقيام الامامة الإسلامية العادلة فيها .

وكان الأمويون قد نجحوا فى أوائل سنة ١٣٢ هـ فى القضاء على
إمامة حضرموت واليمن التى قامت فى سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) على يد
الإمام عبد الله بن يحيى الكندى المشهور بطالب الحق ، وقائده أبى حمزة
الشارى المختار بن عوف الأزدى العمانى . ولم تقل الدولة العباسية
عن سابقتها الأموية فى تشديد الخناق على الأباضية (١) .

« أما حملة العلم الى المغرب » الذين صاروا خمسة بانضمام
أبى الخطاب المعافرى اليهم ، فقد عادوا الى بلاد المغرب فى آخر
سنة ١٣٩ هـ أو أول سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) بعد أن ظلوا يتلقون العلم فى
البصرة خمس سنوات . وكان المغرب يعقد عليهم الآمال الكبيرة ، فلما
عادوا انبثوا فى أنحاء المغرب الأدنى والأوسط وزادوا من حماس أهل
المغرب الى قيام الامامة الإسلامية العادلة والى التمسك بأصول الإسلام .

ويبدو أنهم عقدوا العزم على أن يعلنوا الإمامة فى طرابلس إذ
رأوها صالحة حينذاك لقيام الامامة الأباضية . وكان الأباضية منتشرين
فى طرابلس كلها من خليج سرت فى شرقها الى قابس وجبل نفوسة فى
غربها ومن ساحل البحر المتوسط شمالا الى الصحراء الكبرى جنوبا . وكان

(١) أبو زكريا : السيرة واخبار الأئمة ورقة ٥ ، والدرجيني : طبقات
الإباضية ورقة ٤ — ٨ ، والشماخي : سير ص ١٢٣ — ١٢٤ ، ومحمد على
دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٨٨ — ١٩٥ .

في طرابلس التجار الأغنياء الذين لا يضمنون بأموالهم ، وكان فيها الشبان الشجعان ، كما كان فيها أهل العقل والرأى والدهاء كما كان فيها رؤساء القبائل وذو الكلمة المسموعة .

وروى أن أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة لما أراد وداع تلاميذه من المغرب « سأله اسماعيل بن درار الغدامسى عن ثلثمائة مسألة من مسائل الأحكام . فقال له أبو عبيدة : أتريد أن تكون قاضيا يا ابن درار ؟ قال : رأيت إن ابتليت بذلك ! » (١) .

أما أبو داود القبلى النفزاوى فكان من كبار الزهاد ومن ذوى العلم والعمل ، عاش الى زمان الامام عبد الوهاب بن رستم فى آخر القرن الثانى الهجرى وكان الامام يحله ويحترمه (٢) . وذكر الشماخى ان أبا عبيدة قال لأبى داود القبلى النفزاوى : « لاتففت بما سمعت منى وما لم نسمع . وقال لعبد الرحمن بن رستم : أففت بما سمعت وما لم نسمع . وقال لأبى الخطاب : أففت بما سمعت » (٣) .

وروى ان « حملة العلم الى المغرب » استشاروا أبا عبيدة قبل عودتهم الى بلاد المغرب « إن أنسوا من أنفسهم قوة أيؤمنون عليهم واحدا منهم . قال : نعم ، وأشار الى أبى الخطاب ، فإن أبى فاقتلوه » (٤) .

وهذا يدلنا على أن الإباضية اهتموا بتثقيف عقول تلاميذهم من المغرب والمشرق بالعلم الصحيح ، وتنقية نفوسهم بالتربية الدينية الرشيدة ، وبث الشجاعة فيهم ، والبعد عن الحسد والعصبية . وإن إشارة أبى عبيدة الى أبى الخطاب اليمنى ليرأس دولة بربرية فى المغرب وهو عربى قحطانى وليس مغربيا أو عربيا قرشيا ثم استجابة المغاربة له ليدل دلالة

(١) الشماخى : سير ص ١٢٤ .

(٢) محمد على دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٩٩ .

(٣) الشماخى : سير ص ١١٤ .

(٤) المرجع السابق ص ١٢٤ .

واضحة على تمسك الأباضية بمبدأ المساواة الإسلامية . وهذا أبلى رد على ما ذكره توماس أرنولد في كتابه « نشر الدعوة الى الإسلام » ومن أخذ عنه من المؤرخين الأجانب والعرب . حين يقول إن الإسلام لم ترسخ قدمه بين البربر الا بعد أن صار حركة قومية وأصبح مرتبطا بتولى دول البربر الحكم ، تلك الدول التي دخل في عهدها كثير من البربر في دين الإسلام ، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزا على ضياع الاستقلال السياسي (١) .

ويعتبر جل المؤرخين العرب والأجانب ، ومنهم توماس أرنولد . أن الذي نخصه بالذكر في تاريخ الدعوة الى الإسلام في بلاد المغرب هو ظهور المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) (٢) .

والحق أن صراع بلاد المغرب ضد الأمويين والعباسيين كان نفس صراع أباضية عمان ضد الأمويين والعباسيين ، وكان هذا الصراع من أجل الإسلام ومن أجل الامامة الاسلامية الرشيدة . وإن تاريخ بلاد المغرب يثبت أن الأباضية في المغرب هم من أرسخ الجذور للدين الإسلامي والعروبة ، كما يثبت اعتدادهم بالشخصية الإسلامية والعربية للمغرب .

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام (مترجم) ص ٢٥١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٥١ .

٧ - انتشار الإسلام في ظل دول المغرب الأباضية :

يرجع الفضل الأول في دخول الإسلام في بلاد المغرب الى العرب الفاتحين ، أما الفضل الأكبر في نشر الإسلام وازدهاره في بلاد المغرب في ثلاثة القرون الأولى للهجرة فيرجع الى الأباضية العمانيين . وقد اعتبر الأباضية بلاد المغرب أرض جهاد لنشر الإسلام ولقيام الامامة الإسلامية العادلة ، وربطوا بينهم وبين بلاد المغرب — على بعد الشقة بين المشرق والمغرب — بواسطة الدعاة وحملة العلم والتجار .

وفي القرن الثاني والثالث الهجري ظهر أثر جهود الأباضية العمانيين فقامت الإمامة الأباضية وتمخض شرق المغرب الأدنى ، والمغرب الأوسط عن الدولة الكبرى الأباضية التي التزمت في سياستها بالدين ، وأحيت سيرة الخلفاء الراشدين ، والتي انعشت المغرب الأدنى والأوسط ، والتي مهدت للدولة الإدريسية العلوية في المغرب الأقصى ، والتي هيأت المغرب وأعدته لكل ما أنشأ من دول مستقلة راقية بعد ذلك ^(١) .

وتقدمت بلاد المغرب ، بفضل الدول الأباضية التي قامت فيه . في كل نواحي الحضارة الإسلامية . وصار المغرب الإسلامي العربي حصنا للدين ورمزا للأخوة الإسلامية والعربية .

— رئاسة عبد الله بن مسعود التجيبي الأباضي في طرابلس :

في أواخر الدولة الأموية خرج المغرب الأقصى والمغرب الأوسط عن حكم الأمويين على أثر ثورات الخوارج الصفرية التي اشتعلت منذ سنة ١٢٢ هـ . وفي وسط الاضطرابات التي عمت بلاد المغرب والأندلس في أواخر حكم الأمويين ، أخرج والى الأندلس زعماء الفتنة فيها الى المغرب ، وكان ممن أخرجوا عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع

(١) انظر : محمد على ديبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٢٩٣ .

الفهرى • وكان عبد الرحمن بن حبيب قد هرب الى الأندلس عند هزيمته في الموقعة التي قتل فيها أبوه حبيب مع كلثوم بن عياض في حربهم مع البربر في سنة ١٢٣ هـ ^(١) (٧٤١ م) •

وحين أخرج عبد الرحمن بن حبيب من الأندلس سار في البحر ووصل في تونس في سنة ١٢٧ هـ « ودعا الناس الى نفسه فأجابوه » وتبع ذلك بالعمل على طرد الموالي الأموي حنظلة بن صفوان الكلبي من القيروان • وأمام دهاء وثسدة مراس عبد الرحمن بن حبيب • تذكر الروايات أنه في شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٧ هـ (فبراير ٧٤٥ م) خرج حنظلة في جماعة من أصحابه من القيروان غير آسف ، ودخلها عبد الرحمن بن حبيب السدي منع الناس من المسير الى حنظلة أو الخروج لتشييعه ^(٢) •

ونجح عبد الرحمن بن حبيب في تكوين أسرة حاكمة في أفريقية أقرها مروان بن محمد آخر ملوك الأمويين في المشرق العربي • مما أقرتها في البداية الدولة العباسية • وسحاول الدولة العباسية بعد ذلك استعادة بلاد المغرب لكن سلطانها لن يذهب أبعد من أفريقية (تونس الحالية) •

وفي وسط تلك الظروف التي سادت بلاد المغرب • اجتمع الأباضية في طرابلس وتداولوا غيمين يصلح للإمامة بعد أن انتشر المذهب الأباضي بين قبائل هواره وزناتة وسدراته ولواتة ، وبعد أن اثبت دعاة الأباضية في كافة أنحاء بلاد المغرب •

وكان عبد الله بن مسعود التجيبي هو زعيم الأباضية في طرابلس لعلمه وتقواه وقوة شخصيته ، وقد تلقب بلقب « الرئيس » • وحين علم عبد الرحمن بن حبيب بما عزم عليه الأباضية في طرابلس ، ولى أخاه

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٢٢٠ ، وابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٦٥ •

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ... ص ٢٢٤ ، وابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٦٥ — ٦٦ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ص ٢٨٣ — ٢٨٥ •

الياس بن حبيب على طرابلس ونجح الياس في قتل التجيبي في سنة ١٢٧ هـ (١) .

ولاشك أن نشاط التجيبي كان واضحا في نفس الوقت الذي بدأ فيه عبد الرحمن بن حبيب يوطد ملكه في أفريقية .

وتبع مقتل التجيبي صراعا علنيا بين الأباضية وبين عبد الرحمن بن حبيب ، رأس الأسرة الفهرية في أفريقية . وفي ذلك الحين حاول عبد الرحمن ابن حبيب تغيير أسلوبه مع الأباضية واستخدام اللين والحسنى معهم وذلك لانشغاله بتمكين سلطانه في أفريقية ضد العرب الثائرين وضد الخوارج الصفرية ، فضلا عن مواجهته مع الأباضية الذين ثاروا علانية بعد مقتل رئيسهم . ولم تنجح السياسة اللينة الجديدة التي اتبعها ابن حبيب في اطفاء حماس الأباضية أو كبت غضبهم أو منع ثورتهم .

— امامة الحارث بن تليد الحضرمي :

ولم يلبث الأباضية أن ثاروا بقيادة الحارث بن تليد الحضرمي وانتخبوه امام دفاع لهم . أو امام حرب ، وكان ذلك في سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ — ٧٤٩ م) .

وقد اختار الحارث بدوره ، عبد الجبار بن قيس المرادي ليكون قاضيا ومستشارا له . ويذكر المؤرخ ابن عبد الحكم أن دولة الحارث في طرابلس هي أول امامة أباضية في المغرب . أما الحارث وعبد الجبار فهما من الأباضية الذين كانوا في جيش أبي حمزة الشاري المختار بن عوف الأزدى العماني ، الذي أرسله الامام طالب الحق لفتح مكة والمدينة والطائف وشمال شبه الجزيرة العربية سنة ١٢٩ هـ . ولما قضى الأمويون

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ... ص ٢٢٤ : وابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ٢٢٣ .

على امامة طالب الحق في سنة ١٣٠ هـ سافر الحارث وعبد الجبار الى المغرب وحلا في طرابلس وواصل عملهما الذي لم يكتب له النجاح في المشرق .

وقد اتصف الحارث وعبد الجبار بالتقوى والورع والعلم فاخترهما الإباضية في طرابلس لرئاسة دولتهم ولقيادة حروبهم وبايعتهما قبائل هواره ونفوسة وزناتة .

لكن الامامة الوليدة في طرابلس جابهت خصما قويا عنيدا قريبا في ذلك الحين وهو عبد الرحمن بن حبيب الذي رأى خطر الامامة يهدد ملكه في المغرب . ولاشك أن ابن حبيب خشى أن يبائع الإباضية في أفريقية والمغرب الأوسط ، الامامة الإباضية في طرابلس ^(١) . فضلا عن ان قيام الدولة الإباضية في طرابلس سيقطع صلته بالمشرق . ولهذا أرسل ابن حبيب جيشا كبيرا لمحاربة الحارث . ولكن الحارث هزم الجيش شر هزيمة ودخل بعدها مدينة طرابلس وأصبحت طرابلس كلها من سرت الى قابس تحت امامته . وأرسل ابن حبيب جيشا ثانيا أقوى من الجيش الأول لكن الهزيمة لحقت بهذا الجيش كسابقه .

وأخيراً لجأ عبد الرحمن بن حبيب الى الحيلة والمكيدة والدسيسة فغدير من اغتال الحارث وعبد الجبار وهما في دار الندوة والحكم وذلك في سنة ١٣٢ هـ بعد أن ضرب الإباضية أروع الأمثلة في التفانى في سبيل الإسلام وفي سبيل الامامة العادلة . كذلك ضرب الإباضية أحسن الأمثلة في آداب الحرب فكانوا اذا قاتلوا المهاجرين أو البغاة المعتدين من المسلمين تفيدوا بما أمر الله به في قتال المسلم فلا يغنون لهم مالا ولا يسبون لهم ذرية ولا يجهزون على جريح ولا يتبعون مدبرا هاربا لا ينوى الكرة عليهم ^(٢) .

(١) طبق الأصل .

(٢) عن دولة الحارث انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ... ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ، والبرادى : الجواهر ... ص ١٧٠ ، وابن خلدون : العبر ...

— امامة اسماعيل بن زياد النفوسى :

بعد مقتل الحارث اجتمع الأباضية فى طرابلس واختاروا لهم امام دفاع هو أبو الزجار اسماعيل بن زياد النفوسى وكان ذلك فى سنة ١٣٢ هـ . وكان اسماعيل النفوسى قوى الشخصية شجاعا ذا تقوى وورع . وسرعان ما عظم شأنه وكثر أتباعه ونجح فى الاستيلاء على مدينة قابس . لكن عبد الرحمن بن حبيب صمم على التخلص من هذه الدولة الأباضية التى تجاوره كما خفق جميع محاولات الأباضية السابقة لاقامة الامامة ، فذاهم اسماعيل النفوسى بجيوشه الكثيرة التى قادها بنفسه .

وقتل اسماعيل فى نفس العام الذى انتخب فيه أى فى سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ — ٧٥٠ م) وهو يحارب قوات عبد الرحمن بن حبيب ، كما قتل عدد كبير من الأباضية ودخل عبد الرحمن بن حبيب بعدها طرابلس ^(١) .

وقد انتقم عبد الرحمن بن حبيب من الأباضية ما شاء له الانتقام وعاملهم معاملة أهل الشرك فحضر أعناقهم وصلبهم ^(٢) كما أمر واليه على طرابلس « أن ينفذ » . أى أن يعطى العسكر نصيبهم فى المغانم ^(٣) .

وقد وجد الأباضية فى طرابلس الفرصة سانحة حين هزمت الدولة الأموية ، لكن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى استمات فى القضاء على الدول الأباضية الوليدة فى طرابلس فى وقت كان يتطلع فيه الى انشاء ملك عريض فى المغرب .

=
ج ٦ ص ١١١ ، والشماخى : سير ... ص ١٢٥ ، ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٣٩٢ — ٣٩٤ وص ٤١١ — ٤١٣ . وعلى يحيى معمر : الأباضية فى موكب التاريخ — الحلقة الثانية — ص ٤٥ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٢٨٩ — ٢٩٢ ، وعوض خليفات : نشأة الحركة الأباضية ص ١٣٩ — ١٤٢ .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ... ص ٢٢٤ ، وابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١١١ ، ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٤١٣ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٢٩١ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ... ص ٢٢٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٤ .

— دولة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى :

لم تلتن قناة الأباضية في بلاد المغرب ولم يبالوا بما تعرضوا له من قتل وسبى وتشريد من جيوش عبد الرحمن بن حبيب الفهري أو من جيوش الدولة العباسية القتية • ومن ناحية أخرى آمن الأباضية في المغرب بضرورة العلم مع الايمان والشجاعة فاتفقوا مع مركز القيادة الأباضية في البصرة على اعداد الأئمة وأعوانهم في المغرب اعدادا علميا فقهيا •

ومر بنا أنه رحل لهذا الغرض الى البصرة « حملة العلم الى المغرب » وانضم اليهم هناك أبو الخطاب المعافرى ثم عادوا الى المغرب في أواخر سنة ١٣٩ هـ أو أول سنة ١٤٠ هـ • وفي صياد غربى طرابلس اجتمع الأباضية لبايعة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى بالامامة في المحرم سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) • وبعد البيعة سار أبو الخطاب الى طرابلس حيث حُرد واليها ولم يلبث أن استولى على اقليم طرابلس كله وانضمت اليه كل قبائل زناتة وهوارة •

وفي تلك الأثناء كانت ورفجومة — احدى بطون نفزاوة — قد تعلبت على القيروان مدة تزيد على السنة في صراعها مع أسرة عبد الرحمن بن حبيب الفهري ونجح عبد الملك بن أبى الجعد الورفجومي في هزيمة حبيب بن عبد الرحمن الفهري وقتله في سنة ١٤٠ هـ • وقد انقرض بمقتله ملك آل عقبة بن نافع الفهري من المغرب •

وكانت ورفجومة صفرية غلاة فأباحوا القيروان لقومهم وذلك لمذهبهم المتطرف وبدأوتهم ، ولم يكونوا على ثقافة الأباضية ورسوخهم في الدين ، فسفكوا دماء المسلمين وانتهكوا الحرمات • واستغاث أهل القيروان بأبى الخطاب كما فر كثير من أهلها الى طرابلس حيث قامت الدولة الأباضية •

ولما رأى الأباضية فظائع الصفرية ، سار أبو الخطاب بجيشه في سنة ١٤١ هـ لتطهير القيروان من ورفجومة الصفرية • وفي الطريق استولى

على قابس التي كانت في أيدي الصفرية ، ونجح في احتلال القيروان وتطهيرها من فساد الصفرية كما نجح في قتل عبد الملك بن أبي الجعد .

وطبق أبو الخطاب فيهم حكم الإسلام فنهى عن الإجهاز على جرحاهم وعن غنم أموالهم • وأقام أبو الخطاب . عبد الرحمن بن رستم — أحد حملة العلم الى المغرب — واليا على أفريقية والمغرب الأوسط • وقد اعتنى عبد الرحمن بن رستم بورغمومة وعلمها السدين وهذبها فحسن إسلامها وأصبحت ورغمومة منذ آخر القرن الثاني الهجري أباضية ، كما أنسلخ البربر في جنوب أفريقية منذ آخر القرن الثاني الهجري (آخر الثامن وأوائل التاسع الميلادي) عن المذهب الصفري واعتنقوا المذهب الإباضي •

وأصبحت دولة أبي الخطاب الأباضية تشمل طرابلس كلها من خليج سرت شرقا وتمتد الى القيروان وتصل حدودها الى غرب وهران كما أصبحت تمتد من البحر شمالا الى الصحراء جنوبا •

وحين فرغ أبو جعفر المنصور العباسي من مشاكل الدولة العباسية في المشرق ، التفت الى بلاد المغرب والى ماكان من أمر الدولة الفهرية وماكان من أمر ورغمومة • ورأى أبو جعفر المنصور الخطورة الحقيقية تكمن في دولة أبي الخطاب الأباضية التي تقوم على أساس الدين والعدل والتي تشكل خطرا حقيقيا على الحكم العباسي في بلاد المغرب •

وأرسل المنصور في سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ — ٧٦٠ م) الى محمد بن الأشعث ، واليه على مصر ، ليرسل الجيوش للقضاء على دولة أبي الخطاب • ولكن أبا الخطاب استطاع أن يهزم جيش ابن الأشعث ، ثم نجح في هزيمة الجيش الثاني الذي أرسله والى مصر • لكن المنصور كان مصمما على القضاء على دولة أبي الخطاب فعهد الى محمد بن الأشعث الفزاعي بولاية أفريقية وزوده بالجيوش وجعل له ثلاثة خلفاء في القيادة •

واستند ابن الأثمة للصراع ضد أبي الخطاب منذ شهر ذى الحجة سنة ١٤٢ هـ (٧٦٠ م) لكن اللقاء بينه وبين الأباضية لم يتم الا في أوائل سنة ١٤٤ هـ في تاورغا قرب سرت حيث استشهد أبو الخطاب في آخر صفر من سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م) بعد أن دامت امامته أربع سنين .

والحق أن الوالى العباسى استعان بخيرة الجند العباسى كما استخدم كل سبل المكيدة والدهاء والحيلة ليقضى على دولة أبي الخطاب الأباضية كما تتبع رجالات الأباضية وزعماءهم وعلماءهم فقتل منهم عددا غفيرا^(١).

— امامة أبي حاتم يعقوب بن لبيب المزوزى :

كان عنف أبى جعفر المنصور العباسى وتصميمه على اعادة بلاد المغرب تحت سلطان العباسيين ، يقابله تصميم من الأباضية على الاستقلال ببلاد المغرب واقامة الدولة الإسلامية العادلة فيها . وشهد المغرب الأذى والأوسط آنذاك أروع صفحات البطولة والفداء في سبيل المبادئ الإسلامية .

ولم يكن قيام الدولة الأباضية في طرابلس والقيروان . أو ثورات البربر حينذاك للمصلحة الخاصة أو لتفشى الجهل والفوضى بين البربر كما زعم معظم مؤرخى العصر الإسلامى الحديثين وكما ادعى الكثير من المؤرخين القدماء ، وانما كانت ثورات المغاربة رغبة في تحطيم استبداد وتعسف الملوك الذين لم يتيقيدوا بالدين والعدل في سياستهم .

(١) عن دولة أبى الخطاب انظر : ابو زكريا : السيرة ورقة ١٠ — ١٢ . والمالكي : رياض النفوس ج ١ ص ١٠٢ ، والدرجيني : طليقات الاباضية ورقة ١٠ — ١٢ . وابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٢ . والشماخى : سير . . . ص ١١٢ — ١١٤ و ١٢٦ — ١٣٢ . ومحمد على ديبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٤٢٩ — ٤٣٣ : ج ٣ ص ٨ — ٩ و ٢١ — ٣٥ و ٥٤ — ٢٠٣ — ٢٤٤ وسعد زغلول عبد الحميد : المغرب العربى ص ٣٠٩ — ٣١٤ .

وقد امتزجت الدماء العربية بالدماء البربرية في صراع الأباضية في سبيل الإسلام . والحق أن ثورة الأباضية كانت ثورة إسلامية تستهدف نشر الإسلام والتعريف بأصوله وأحياء الإمامة الإسلامية العادلة .

وفي التاريخ المغربى نلاحظ الفرق الكبير بين شجاعه أصحاب المبادئ والقيم ، وبين شجاعة الجند المأجورين . فقد واجهت الدولة العباسية في تلك المرحلة من قوتها وشبابها عصيان وغوضى عدد من رؤساء الجند العباسيين في بلاد المغرب بعد انتصار محمد بن الأشعث الخزاعي على أبى الخطاب المعافري .

ويلاحظ الباحث أن أحداث تلك الفترة في بلاد المغرب متشابهة متداخلة ، إذ تصارع القواد العباسيون على السلطة ، وثار الأباضية في سبيل الإسلام ، ونجح الخوارج الصفوية في الاستقلال في تلمسان وفي المغرب الأقصى . ونرى المصادر السنية مثل كتابات ابن الأثير والفويرى وابن عذارى وابن خلدون لارتب الأحداث وانما تذكرها اجمالاً ، كما أنها لاتذكر بالتفصيل ما قسام به الأباضية من توضيحات في سبيل الإسلام وما جابهوه من قوة وشراسة الجبهات المعادية .

وكان الأباضية كما ذكرنا ينتظمون جميعاً في عقد واحد سواء في المشرق أو المغرب . وسرعان ما تجمع الأباضية في المغرب بعد استئساد الإمام أبى الخطاب وانتخبوا امام دفاع لهم في سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) هو يعقوب بن لييب ويكنى بأبى حاتم اللوزرى ^(١) .

وعرف أبو حاتم بالشجاعة والورع والتمسك بالدين . واختلف المؤرخون في نسبه ، فنسبه البعض الى هواره ، وجعله البعض مولى كندة . والراجح أنه من ملزوزة ، وهى قبيلة بربرية من فروع مغيلة من زناتة .

(١) أبو زكريا : السيرة : ورقة ١٣ . والدرجيني : طبقات الاباضية : ورقة ١٥ ، والشماخي : سير ... ص ١٣٤ .

وكانت مواطن هذه القبيلة في المغرب الأوسط . ولما انتقل أبو حاتم أو
آبؤه الي طرابلس نزل في هوارة فصار ينسب اليها ^(١) .

ويتضح من المصادر الأباضية أن جميع الأباضية كانوا يعملون معا
ويأتُمرون بأمر واحد وأن أبا حاتم الملوزي كان يأتُمر برأى عبد الرحمن بن
رستم . وعندما أنس أبو حاتم من نفسه القوة أعلن ثورته ضد العباسيين .
وذكر النويري أن أبا حاتم الملوزي دخل طرابلس منتصرا وملكها كلها
وأقام العمال على النواحي فيها واستعد للسير الى افريقية ليقتضى على نفوذ
العباسيين في القيروان .

وكان جيش أبي حاتم يتكون من هوارة ونفوسة وزناتة ، وانضمت
اليه نفزاوة في جنوب أفريقية ومن ثار في وسط أفريقية وشمالها . كذلك
انضم الى الأباضية ، الخوارج الصفرية بزعامة أبي قرّة اليفرنى الذى
بويح بالامامة في تلمسان منذ سنة ١٤٨ هـ .

وكان من الأباضية الذين ساروا نحو القيروان عبد الرحمن بن
رستم . واندفع الأباضية جميعا نحو طنبه قاعدة الزاب — حيث اعتصم
الوالى العباسى عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة . أخ المهلب بن أبى
صفرة . وقتل عمر بن حفص . وهو الذى كان يلقب باللقب الفارسى
هزارمرد ومعناه ألف رجل — في صراعه مع جيش الملوزي في ذى الحجة
سنة ١٥٤ هـ (٧٧١ م) . ونجح الملوزي في دخول القيروان بعد حصار
دام ثمانية أشهر .

وفي تلك الأثناء أرسل أبو جعفر المنصور ، ابن عم حفص وهو
يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة لاستخلاص بلاد المغرب
من الأباضية . واستشهد أبو حاتم الملوزي في حربه مع يزيد بن حاتم في

(١) انظر : محمد على دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٥٨ ، وعوض
خليفات : نشأة الحركة الاباضية هاشم ٨٨ من صفحة ١٥٧ .

٢٧ من ربيع الأول سنة ١٥٥ هـ (٨ مارس ٧٧٢ م) قرب طرابلس على الطريق المؤدى الى جبل نفوسة بعد أن ضرب أروع الأمثلة للبطولة والجهاد^(١) .

وكان من الأبطال الأباضية الذين اشتركوا آنذاك في الصراع بين الأباضية وبين العباسيين عاصم السدراتى أحد « حملة العلم الى المغرب » . وكان عاصم من قبيلة سدراتة ومواطنها شمال جبل أوراس وجنوبه ، وكان قد استقر بعد نشأة دولة أبى الخطاب في نفوسة .

وسار عاصم السدراتى في ستة آلاف من الأباضية غحاصر الوالى العباسى عمر بن حفص في طنبنة مع أبى قرّة اليفرنى . ثم سار عاصم بجيشه الى أبى حاتم المزوزى الذى زحف الى القيروان فانضم اليه . وقد لجأ العباسيون الى دس السم له فتوفى في أثناء حصار القيروان حين كان أبو حاتم المزوزى محاصرا لها^(٢) .

— الدولة الرستمية ١٤٤ — ٢٩٦ هـ (٧٦١ — ٩٠٩ م) :

ارتوت أرض المغرب بدماء شهداء الأباضية وأئمتهم وخاصة منذ ظهور أوله رئيس لهم في طرابلس في بداية القرن الثانى الهجرى والثامن الميلادى (١٢٧ هـ / ٧٤٥ م) . وكان قيام الدولة الرستمية أكبر انتصار للأباضية في العالم الإسلامى عامة وفي بلاد المغرب خاصة . وتشهد المصادر القديمة بالصلة الدائمة بين أباضية شرق العالم الإسلامى في البصرة وعمان وبين أباضية بلاد المغرب ، كما تشهد بالكفاح المشترك والغذاء المتصل في سبيل المبدأ وذلك بالعلم والنفس والمال .

(١) محمد على ديبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٥٨ — ٧٧ ، وسعد زغلول عبد الحميد : المغرب العربى ص ٣٢٠ — ٣٣٢ ، وعوض خليفات : نشأة الحركة الأباضية ص ١٥٧ — ١٦٥

(٢) ابن خلدون : الغبر ... ج ٦ ص ١١٢ ، والشماخى : سير ... ص ١٢٨ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٨٨ ، ومحمد على ديبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٧٩ — ٨٠ .
(م ١٩ — ندوة الدراسات ج ٣)

أما عبد الرحمن بن رستم بن بهرام فأصله فارسي . وتذكر الروايات التاريخية ان بهرام كان من موالى عثمان بن عفان ، ويرفع بعض الكتاب نسبته الى ملوك الفرس القدماء . وروى أن أباه رستم قدم الى مكة حاجا وبصحبه زوجته وابنه عبد الرحمن فتوفي هناك وتزوجت امرأته برجل من أهل القيروان حملها وابنها عبد الرحمن معه عند عودته الى بلدة ^(١) . وترى عبد الرحمن بن رستم في القيروان وأخذ العلم عن فقهاء وتأثر بسلمة بن سعد ، الداعية الأباضي ، ثم رحل الى البصرة للاستزادة من العلم ، وكان أحد « حملة العلم الى المغرب » كما مر بنا . وقد عينه الامام أبو الخطاب المعافري قاضيا لطرابلس ثم عينه واليا على افريقية والمغرب الأوسط .

وبعد استشهاد أبي الخطاب صار ابن رستم زعيما واماما للأباضية في بلاد المغرب . وانضم اليه كثير من الخوارج الصفرية ، والمعتزلة الواسطية الذين يعتبرهم البكري من الأباضية ^(٢) .

وتؤكد المصادر الأباضية وغير الأباضية ان قيام الامامة الرستمية كان في نفس السنة التي قضت الدولة العباسية فيها على امامة أبي الخطاب المعافري ، أى في سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م) . الا أن اعلان تلك الامامة كان في سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ / ٧٧٧ م) كما يذكر الشماخي الذي يعود فيقول إنه بويح في سنة ١٦٢ هـ ^(٣) (٧٧٨ — ٧٧٩ م) وكانت بيعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة على أن يحكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يلتزم سيرة الخلفاء الراشدين ^(٤) .

أى أن عبد الرحمن بن رستم كان أميرا منذ سنة ١٤٤ هـ واماما منذ

(١) ابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٢١ ، والشماخي : سير ... ص ١٢٣ ، وابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٧٧ .
(٢) البكري : جزء من كتاب المسالك والممالك ص ٧٢ (طبع دى سنان) .
(٣) الشماخي : سير ... ص ١٣٩ .
(٤) المصدر السابق ... ص ١٤٠ .

سنة ١٦٠ هـ • وقد اختير ابن رستم اماما لأنه من « حملة العلم » ولأنه كان عامل أبي الخطاب على أفريقية ، ولأنه كما يذكر الشماخي « لا قبيلة له تمنعه اذا تغير عن طريق العدل » (١) •

ونلاحظ مما ذكره الشماخي أن من شروط انتخاب عبد الرحمن بن رستم عدم الاستناد الى عصبية أو قبيلة حتى يكون العدل هو عصبية الحكم • والمعروف أن أساس انتخاب الامام عند الأباضية هو الحرية في الانتخاب دون أى تفرقة عنصرية حتى أجازوا امامة العبد الأسود طالما — يتمتع بالأهلية •

فالدين الإسلامى حافظ على كرامة الفرد وقضى على العنصرية فسوى بين العربى وغير العربى وبين الأبيض والأسود ، ولم يسمح بتفاضل مسلم ومسلم الا بالتقوى والعلم • وقد أثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : « اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى » •

وقامت الدولة الرستمية على أساس الدين والعدل والشورى • والمعروف أن الامامة عند الأباضية حرب على حصر رئاسة الدولة فى عائلة واحدة ومع ذلك ظلت الامامة فى الدولة الرستمية فى أسرة عبد الرحمن بن رستم ، ولكن ذلك كان رغبة الدولة جميعا ومن فعلها ومن اختيار القبائل لامن فعل الأسرة الرستمية (٢) • أما ابن خلدون فقد اعتبر الدولة الرستمية دولة ملكية (٣) •

وحين استشهد الامام أبى الخطاب المعافى وبعد نجاح أبى جعفر المنصور فى القضاء على دولته الأباضية ، خرج عبد الرحمن بن رستم

(١) المصدر السابق ... ص ١٣٩ — ١٤٠ ، (فصل عقد الامامة) ، وابن خلدون : المقدمة (الفصل السادس والعشرون فى اختلاف الامة فى حكم منصب الخلافة والامامة وشروطه) •

(٢) تارن : محمد على ديبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٥٢٧ — ٥٤٠ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٢٨٦ •

(٣) ابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٢٢ •

مسرعا نحو المغرب الأوسط وقرر أن ينزل على قبيلة لماية في جنوب تاهرت ، وكانت تربطه بها صداقة وثيقة تأكدت حين ولايته على أفريقية والمغرب الأوسط . وكانت لماية أباضية ومجاورة لقبيلة لواتة وهوارة اللتين ستصبحان عماد الدولة الرستمية مع نفوسة ومزاتة ^(١) .

وقد رأى عبد الرحمن بن رستم أن المغرب الأدنى أصبح غير مناسب لاقامة الامامة الإباضية وذلك لتشتب العباسيين به ولأنه الطريق لجيوشهم وأعدائهم من المشرق ومن مصر . ووجد ابن رستم أن المغرب الأوسط مكان أمين لاقامة الامامة الإباضية ، وقد كان جزءا من دولة أبي الخطاب ، كما أن جمهورها أباضية . وتذكر بعض الروايات أن ابن رستم بنى مدينة تاهرت عقب فراره من جيوش محمد بن الأشعث بعد هزيمة أبي الخطاب أي في سنة ١٤٤ هـ أو بعدها بقليل ^(٢) .

وتاهرت مدينة قديمة ترجع الى العصر الرومانى ثم البيزنطى ، وجاء ذكرها أيام الفتوح الأولى سنة ٦٣ هـ (٦٨١ - ٦٨٢ م) في حملة عقبة بن نافع التى استشهد فيها ^(٣) . أما تاهرت الحديثة التى اتخذها عبد الرحمن مقرا له ولدولته فقد ذكر البكرى أنها على بعد خمسة أميال في الجنوب الغربى للمدينة القديمة ، وقد ذكرها ابن حوقل في المسالك والممالك ، وكذلك ياقوت في معجم البلدان باسم تيهرت .

وبعد اعلان امامة عبد الرحمن بن رستم في تاهرت جاء رسل الإباضية من البصرة يحملون اليه أموالا كثيرة ^(٤) . ويذكر ابن الصغير أنه لما وصل المال اشترت الدولة السلاح والكراع ، وقوى الضعيف

(١) انظر : محمد على دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٢٥٤ .

(٢) ابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٢٣ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٣٧٥ .

(٤) الشماخى : سير ... ص ١٤٠ ، وابن الصغير المالكى : سيرة

الائمة الرستميين ص ١٢ .

وانتعش الفقير وشرعوا فى عمارة البلاد واحياء الموات من الأرض (١) .

وبعد عودة رسل أباضية المشرق من تاهرت ، اجتمع الأباضية وقرروا أن الامام عبد الرحمن بن رستم جدير بأن يكون خلفا لأبى بلال مرداس وطالب الحق وأبى حمزة المختار . ورأوا اعانة عبد الرحمن على قدر الاستطاعة ، وأرسلوا اليه الأموال مرة ثانية مع وفد أباضى ولكن عبد الرحمن طلب رد المال فى هذه المرة « لأن أهل بلاده يتمتعون بالعدل ، وأصحاب المال فى حاجة الى أن يدفعوا به عن أنفسهم الظلم » (٢) .

وواضح أن الأباضية ساروا على نهج فقيهم ومعلمهم وامامهم ، الامام جابر بن زيد ، وأرادوا نشر مذهبهم فى أنحاء العالم الإسلامى ، وتكاتفوا فى الشرق والغرب ، وسعوا الى اقامة الامامة الإسلامية العادلة . ومما يؤكد قولنا كل الأحداث السابقة واللاحقة ، وكذلك ما ذكره الشماخى عبد الرحمن بن رستم وأباضية المشرق اذ يقول : « فتعجب أهل المشرق من زهده فى الدنيا واعترف كل أباضى بامامته ، ووصلوه بكتبهم ووصاباهم » (٣) .

وقد تمسكت الدولة الرستمية بالدين والتزم أئمتها سيرة الخلفاء الراشدين ، وكثرت أموالها من الزراعة والصناعة والتجارة ، وعظمت قوتها الحربية واتسعت رقعتها فأصبحت تشتمل على أغلب المغرب الأوسط وأغلب المغرب الأدنى . وأصبحت طرابلس كلها الا الديانة من أملاك الدولة الرستمية ، وامتد سلطانها على جربة فى الجنوب الشرقى لقابس ، كما امتد نفوذها على جبال نفوسة وعلى جبال اوراس وجنوب

(١) ابن الصغير المالكى : سيرة الائمة الرستميين ص ١٢ ، ومحمد على دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٤٣٦ — ٤٤٠ .

(٢) الشماخى : سير ... ص ١٤٠ ، وابن الصغير : سيرة الائمة الرستميين ص ١٣ ، ومحمد على دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٤٤١ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٣٨٧ .

(٣) الشماخى : سير ... ص ١٤٠ .

أفريقية الى شمال قفصة ، وأغلب المغرب الأوسط كله من شرق مدينة تلمسان غربا الى شرق المسيلة ، ودخلت كل القرى والأقاليم التي دانت بمذهب الأباضية تحت سلطان تاهرت (١) .

وكان عهد عبد الرحمن بن رستم عهد ميلاد الدولة الرستمية وفتوتها ، وكان عهد ابنه الامام عبد الوهاب عهد شبابها ونضوجها (٢) .

ومع أن الدولة الرستمية كانت أباضية المذهب إلا أنها لم تفرض مذهبها على الناس بل تركت الناس يختار من المذاهب الإسلامية ماشاء ، فكانت دولة الحرية الفكرية وحرية الكلام في حدود الدين الإسلامي فكان فيها المالكية والمعتزلة والصفوية وكل المذاهب الموجودة في المشرق (٣) . ويذكر ابن الصغير المالكي ما كان يقوم في مساجد تاهرت وجامعها من مناظرات لطيفة في الفروع بين الفقهاء (٤) .

كذلك رحبت الدولة الرستمية في ديارها بالعلويين من أبناء على بن أبي طالب . أما أهل الذمة من اليهود والنصارى فقد تمتعوا في الدولة الرستمية بكافة حقوقهم التي فرضتها الشريعة الإسلامية ، ووجدوا في الميادين الاقتصادية والعلمية وفي مجال الأعمال المختلفة في تاهرت كل ما يجده المسلمون (٥) .

ولم يستطع يزيد بن حاتم والى المنصور على أفريقية وواليتها أيضا طوال عهدي المهدي والهادي وبعض حكم الرشيد (١٥٥ — ١٧٠ هـ /

(١) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٢٤٤ وج ٣ ص ١٨٥ و ٣٤٣ و ٣٨٢ — ٣٨٣ و ٤٢٧ ، وما ذكره من مراجع ، وسعد زغلول عبد الحيد : تاريخ المغرب العربي ص ٣٩٥ — ٣٩٨ وما ذكره من مراجع .
(٢) توفي الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن في سنة ١٨٨ هـ (٨٠٤ م) .
(٣) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٣٣١ .
(٤) ابن الصغير المالكي : سيرة الأئمة الرستميين ص ٤٢ .
(٥) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٣٣٣ .

٧٧٢ — ٧٨٦ م) ، الهجوم على تاهرت والمغرب الأوسط أو القضاء على عبد الرحمن بن رستم •

وحين ولي هارون الرشيد حكم الدولة العباسية كان يعلم أن الدولة الرستمية قد رسخت ، وكان لا يطمح في احتلالها أو القضاء عليها كما كان المنصور يمني نفسه • ولهذا فراه يوصى واليه في القيروان روح بن حاتم بن المهلب (١٧١ — ١٧٤ هـ / ٧٨٨ — ٧٩١ م) بمسالة الدولة الرستمية وفعلا عقد روح بن حاتم مع عبد الوهاب بن رستم معاهدة حسن الجوار •

وفي ولاية روح بن حاتم ، سار ادريس الأكبر ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ومعه مولاة راشد الذي يقال إنه بربري الأصل ، من مصر واجتاز برفقة مولاة جنوب أفريقية الى المغرب الأوسط ثم الأقصى فوصلوا وليلى في جنوب طنجة حيث أسسا الدولة الإدريسية الكبرى •

وتتفق الروايات التاريخية على أنه كشف أمر أدريس في مصر ولكن صاحب بربريها ، واضح بن عبد الله المنصوري ، حملة على البريد الى المغرب وتستر عليه ، كما أن واليها على بن سليمان بن علي بن عبد الله العباسي لم يفضح أمره وتركه يتوجه نحو المغرب (١) •

وكان مسير ادريس في أفريقية والمغرب الأوسط في المناطق الإباضية التي أكرمه وحفظته في طريقه (٢) • واستطاع أدريس أن يؤسس دولة الأدارسة العلوية التي حكمت في المغرب الأقصى نحو قرنين من الزمان • وقد بويح ادريس بالامامة في وليلى التي اتخذها قاعدة لدولته في

(١) انظر : سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ١٥٣ — ١٥٤ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ص ٤٠٨ — ٤١٢ •
(٢) انظر : محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٠٦ •

سنة ١٧٢ هـ (٧٨٩ م) ثم بنى ادريس الثانى مدينة فاس لتصبح قاعدة لدولة الأدارسة •

ثم أقطع هرون الرشيد بعد ذلك أفريقية وقاعدتها القيروان لابراهيم ابن الأغلب فى سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) على أن تكون وراثية فى أولاده وأحفاده وتدين بالولاء للعباسيين •

أما عبد الرحمن بن رستم التى قامت دولته قبل قيام دولتى الأدارسة والأغالبة ، والتى شملت الجزء الأكبر من بلاد المغرب فقد كانت له الزعامة على جميع أباضية بلاد المغرب وكذلك على الصفرية الذين أصبحوا معتدلين بفضل جهود الأباضية فى سبيل نشر الإسلام وفى سبيل تهذيب تطرف وغلو الصفرية كما أثرنا سابقا ، بل إن كثيرا من الصفرية تحولوا الى المذهب الأباضى •

وحين قضت الدولة الفاطمية على الدولة الرستمية عمدت الى القضاء على كنوزها العلمية لتصرف المغرب عن الامامة الإسلامية العادلة التى سعد بها أهل المغرب •

ولم تكن الدولة الأموية أو العباسية أقل عداء للأباضية من الفاطميين أو أقل حرصا على اخفاء مؤلفات الأباضية أو ابادتها • وحين بدأ الاستعمار يسيطر على بلاد المغرب فى العصر الحديث نراه يعمد الى ستابة تاريخ بلاد المغرب كما شاء •

ولهذا لانعجب اذا تأثر الكثير من الباحثين العرب المحدثين بما ورد فى كتابات القدماء والحديثين • ونرى مثلا أحد الباحثين الأعلام فى التاريخ المغربى حين يعرض الى زعامة عبد الرحمن بن رستم على كل أباضية بلاد المغرب فضلا عن الصفرية يقول : « والحقيقة ان اجتماع هذه الفرق المتنافرة فى دعوة واحدة يمكن أن يفهم منه أن المسألة لم تكن مسألة اصلاح دينى يسعى اليه البعض أو الآخرون ، بل مسألة

سياسية هدفها مدافعة حكم ممثلى الخلافة ، والاستقلال عن الدولة ، بمعنى أن الدين لم يكن الاستارا لإخفاء هذا الهدف ، أو لاعطاء موقف الانفصال نوعا من الشرعية » (١) .

ولسنا نحتاج الى نقد هذا الرأى أو التعليق عليه بعد ما أوضحناه من فضل الأباضية فى أنحاء العالم الإسلامى فى سبيل نشر الإسلام والعودة به الى جوهره وأصوله ، وبعد ما ذكرناه من الرباط الدائم المتصل بين الأباضية جميعا سواء فى المشرق أو المغرب .

ويجدر بنا أن نشير الى أن أبا حاتم الملووزى كان امام دفاع وكان يرسل مازاد على ما يحتاج اليه مما يجمعه من الزكاة لعبد الرحمن بن رستم (٢) .

أما دولة بنى واسول الصفرية فقد قامت فى سجلماسة (٣) فى شمال وادى درعة ، على طرف الصحراء جنوبا فى آخر بلاد العمران ، وتليها المفازة الكبرى التى تؤدى الى غانة من بلاد السودان ، وكان يسكن تلك المفازة قبائل اللثمين الصنهاجية من مسوغة ولتونة (٤) .

وقامت دولة بنى واسول فى المغرب فى سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ — ٧٥٨ م) فى نفس السنة التى قامت فيها دولة أبى الخطاب الأباضية . وكان أول امام لهذه الدولة رجل سودانى الأصل اسمه عيسى بن يزيد

(١) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى : ص ٣٨٠ .

(٢) الشماخى : سير ... ص ١٣٨ .

(٣) كان بناء سجلماسة من الصفرية من قبيلة مكناسة ، وكانت مكناسة من أهم قبائل البربر التى أيدت ثورة ميسرة فى إقليم طنجة . وتعرف منطقة سجلماسة باسم تافالت ، أما مدينة سجلماسة فقد اندثرت وقام مكانها حاليا الريسائى . انظر : سعد زغلول عبد الحميد :

تاريخ المغرب العربى ص ٣٩٨ — ٣٩٩ وما ذكره من مراجع .

(٤) كتاب الاستبصار (نشر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد) ص ٢٠٠ —

٢٠١ والهوامش .

الأُسود^(١) لكنهم لم يرتضوا سيرته فعزلوه بعد خمسة عشر عاما في سنة ١٥٥ هـ (٧٧٢ م) • ويرجح بعض المؤرخين القدماء ان عزله كان بإشارة من الإباضية^(٢) مما يبين أنه كان لعبد الرحمن بن رستم الرئاسة على الإباضية والصفيرية في بلاد المغرب بعد استشهاد أبي الخطاب •

وولى امامة سجلماسة بعد عزل عيسى بن يزيد ، أبو المقاسم سمو (سمعون)^(٣) بن واسول المكناسي • وكان صفيرية سجلماسة على علاقة وثيقة بأباضية تاهرت حتى اننا نرى ابن خلدون يقول عن سمو بن واسول إنه كان إباضيا صفريا^(٤) ، بل إن ابن خلدون يذكر بعد ذلك أن بعض أئمة سجلماسة كان أباضيا والبعض كان صفريا • وقد تصاهر البيتان الرستمى والواسولى فتزوج مدرار بن اليسع بن سمعون المكناسي من أروى بنت عبد الرحمن بن رستم^(٥) •

والحق ان الامامة الرستمية الإباضية كانت أعظم دولة في بلاد المغرب حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، فكانت تشتمل في مساحتها على أغلب المغرب الأوسط وأغلب المغرب الأدنى ، وكانت تفوق في عدد السكان وفي الثروة والمبال وفي كثرة الجيوش ، الدولة الأدرسية العلوية في المغرب الأقصى ، ودولة الأغالبة السنية في القيروان ، ودولة بنى واسول الصفيرية في سجلماسة •

وقد عرفت بلاد المغرب بفضل الامامة الرستمية الاستقرار • فقد

(١) البكرى : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٤٩ ، وابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٣٠ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢١٥ •

(٢) البكرى : المغرب ... ص ١٤٩ ، وابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٣٠ •

(٣) يسميه ابن خلدون « سمو » ويسميه ابن عذارى « سمعون » •

(٤) ابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٣٠ •

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢١٥ — ٢١٦ ، وزامبور : معجم الانتساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى ج ١ ص ١٠٢ •

أوجدت الدولة الرستمية بفضل علاقاتها الطيبة وحسن جوارها مع الدول التي قامت في بلاد المغرب — على الرغم من اختلاف مذاهبها — نوعا من الاستقرار والوحدة بين المغاربة أدى الى دفع الحضارة الإسلامية نحو التقدم والازدهار ، كما أدى الى زيادة انتشار الإسلام في أعماق أقاليم المغرب فضلا عن ازدياد التعريب بين المغاربة •

كذلك تبادلت الدولة الرستمية التجارة والهدايا مع ملوك الأندلس الأمويين • وكانت مصر أيضا على علاقة حسنة مع الدولة الرستمية لعددها وحضارتها ونشاطها التجاري ففتحت لها ذراعيها وتدفقت قوافلها التجارية اليها • ويذكر الشماخي أن عدل عبد الرحمن بن رستم جذب اليه الأباضية وغيرهم من سائر البلدان فसार التجار وأصحاب رءوس الأموال بما لديهم الى تاهرت من مصر وأفريقية والمغرب ^(١) •

وقد ارتبط انتشار الإسلام بطرق التجارة فكانت الدولة الرستمية ودولة بنى واسول على صلة وثيقة تجارية فيما يلي المغرب جنوبا في الصحراء وبلاد السودان ، وكانتا أول من نشر الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية في أقطار السودان ^(٢) • فكان التجار والفقهاء يحملون الإسلام الى تلك الأقطار النائية ، بل إن بعض التجار كان يجمع بين التجارة والتعليم فيقومون بمزاولة النشاط الاقتصادى والتعليمى وينشئون المساجد والزوايا والربط ومدارس تعليم القرآن •

وكان التجار والفقهاء يؤثرون في السود بنظافتهم وأمانتهم وسلوكهم • ولهذا وجد الإسلام طريقه الى الصحراء والى السودان في القرون

(١) الشماخي : سير ... ص ١٥٨ •

(٢) أطلق العرب كلمة « السودان » على اصحاب البشرة السوداء بصفة عامة تمييزا لهم عن البيض • أما بلاد السودان فنحنى بها هنا الحزام السودانى الممتد في قلب القارة الافريقية من الشرق الى الغرب ، او تلك الرقعة الواسعة الممتدة من بلاد المغرب شمالا وساحل المحيط الأطلسى غربا وواى النيل شرقا •

الثلاثة الأولى للهجرة بفضل تجار الأباضية ودعاتهم وبفضل مصاهرتهم لأهل البلاد . فظفر الإسلام بأقوى القبائل وأشجعها وأكثرها عددا ، ثم قوى الإسلام والمسلمون الى أن قامت بعد ذلك الامبراطوريات الافريقية الكبرى (١) .

وكان أهل جبل نفوسة ، وهم من رعايا الدولة الرستمية ، ممن كان يقوم بالرحلة الى السودان للتجارة ونشر الدين الحنيف . وقد ساروا على هذا المنوال حتى بعد انتهاء الدولة الرستمية بقرون (٢) .

وطبيعي أن اعتناق الإسلام كل يؤدي الى تعلم اللغة العربية ، لغة القرآن والحضارة الإسلامية . وقد جعلت الدولة الرستمية اللغة العربية لغة رسمية للدولة فانتشرت بين البربر وكان العلماء والوعاظ يحثون الناس على تعلمها . ومع أن اللغة البربرية كانت لاتزال لغة التخاطب في المنازل وفي الأسواق وفي القرى النائية وفي الجبال الا أن كثيرا من الكلمات العربية دخلت في اللغة البربرية كما أصبحت اللغة البربرية تكتب بحروف عربية . وقد حفظ الله جبل نفوسة من غزو الفاطميين فبقى كثير من تراثه العلمي الذي حفظ لنا أخبار الأباضية في بلاد المغرب ومجهوداتهم الرائعة في سبيل نشر الإسلام والتعريب ، وان كان الكثير من هذا التراث العلمي لايزال مخطوطا .

(١) انظر : دكتور ابراهيم على طرخان : الاسلام واللغة العربية في السودان الأوسط والغربي : ص ١٥ وما ذكره من مراجع .
(٢) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٣٥٢ .

٨ — بلاد المغرب في التاريخ العماني وفي سير الفقهاء والعلماء الأباضية .

إن تاريخ الأباضية في بلاد المغرب يبين بوضوح صلة المغرب الاسلامي بالشرق وبالأباضية العمانيين الذين حافظوا على هذه الصلة والذي أصبح المغرب الإسلامي بفضلها أصيلاً في الإسلام والعروبة . كذلك يجد الباحث جوانب من أخبار المغرب الإسلامي العربي وتاريخ الأباضية فيه وجهودهم في نشر الإسلام وفي انشاء الامامة الإسلامية محفوظاً في التاريخ العماني القديم والحديث ، ومدونا في سير الفقهاء والعلماء الأباضية العمانيين .

وفي البداية كانت البصرة هي المركز الرئيسي لكل الأباضية في أنحاء العالم الإسلامي منذ أن وضع الامام العماني ، جابر بن زيد ، أسس المذهب الاباضي الفكري والسياسي . وكانت البصرة في القرنين الأول والثاني الهجريين عمانية برجالها الأفاضل العلماء ، ومن البصرة ازدهرت دعوة أبي الشعثاء وجذبت اليها الكثير من أهل البلاد الإسلامية .

وتكاثف العلماء العمانيون والبصريون الأباضية من تلاميذ أبي الشعثاء وأصحابه في العمل على انتصار الحركة الأباضية . ونجح تلميذ أبي الشعثاء وزميله ، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التيمي بالولاء ، البصري ، مع زميله ضمام بن السائب الندبي العماني وأعوانهما في تنظيم الحركة الأباضية التي انتصرت في عمان — موطن أبي الشعثاء — وقامت الامامة فيها ، كما قامت في اليمن وحضرموت وفي بلاد المغرب .

وفي عمان قامت الامامة قبيل قيام الدولة العباسية أو بعد قيامها أي في سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م أو سنة ١٣٣ هـ / ٧٤٩ م وانتهت باستشهاد الامام الجلندي بن مسعود وأصحابه في سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م أو في سنة ١٣٤ هـ / ٧٥١ م . وقد عاد بنو العباس الى التحكم في عمان الى

أن قامت فيها الامامة مرة أخرى في سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ، ورجعت عمان الى المسلمين ^(١) ، أى الى الإباضية .

وبويع محمد بن أبى عفان اليمىدى بالامامة وتوالى بعد ذلك حكم الأئمة في عمان . وعاصرت الدولة الرستمية في بلاد المغرب امامة محمد بن أبى عفان اليمىدى ومن جاء بعده من الأئمة .

وحين قامت الامامة في عمان سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م حلت عمان محل البصرة في ربط أباضية المشرق بأباضية المغرب ، وأصبح الإباضية العمانيون يتولون أمر المغرب من عمان نفسها بدلا من البصرة .

ويجدر بنا أن نشير الى أن الإباضية العمانيين قديما وحديثا يعتبرون أمر المغرب أمرهم وأئمة المغرب أئمتهم . ونرى مثلا في باب « ذكر من أخذ عنه أهل عمان دينهم الصحيح » الذى أورده الامام السالى ... يقول : « ... ثم الجلندى بن مسعود الامام العماني ، وأبى الخطاب وعبد الرحمن بن رستم الامامين المغربيين وأصحابهم .

ومن كان في طيقتهم ، ثم محبوب بن الرحيل وهاشم بن عبد الله الخراساني وموسى بن أبى جابر ... » ^(٢) .

ومن خلال قراءتنا ودراستنا لمخطوط « سير الأئمة القائمين بالحق في الأمة » وهو المعروف باسم « السير والجوابات » والمحفوظ في وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان ، لمسنا التأكيد على أن أمر الإباضية في المشرق والمغرب واحد .

وفي هذا المخطوط جزء « من سيرة أبى عبيدة الى عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم من المشايخ » ^(٣) وهنا يأتي وصف الامام

(١) السالى : تحفة الاعيان ج ١ ص ٧٤ .

(٢) انظر هذا الباب في : السالى : تحفة الاعيان ج ١ ص ٦٥ — ٦٦ .

(٣) مخطوط « السير والجوابات » ص ٦١٠ .

عبد الوهاب امام الدولة الرستمية بأنه من « المشايخ » وهذا يبين أهمية الصفة الدينية والعلمية عند الإباضية قبل الصفة الدنيوية . أما الجزء من رسالة أبي عبيدة الى عبد الوهاب بن رستم الذي ورد في المخطوط فهو عبارة عن سبعة أسطر تتعلق بصحة الامامة من عدم صحتها . وبعدها تفسير لكلام أبي عبيدة من أبي عبيدة المغربي في أكثر من صفتين (١) .

أما أبو عبيدة المغربي فالراجح أنه أبو عبيدة عبد الحميد الجنائني من أئمة جبل نفوسة في العلم والتقوى وكان معاصرا للامام عبد الوهاب (٢) .

وواضح أن رسالة أبي عبيدة الى عبد الوهاب بن رستم توضح متى تكون الامامة صحيحة . والمعروف أنه حدث انشقاق في أول امامة عبد الوهاب التي تمت بعد شهر من وفاة عبد الرحمن . وكان عبد الرحمن قد جعل - في مرض موته - الأمر شورى في سبعة من كبار أصحابه وندبهم ابنه عبد الوهاب . وبعد انتخاب عبد الوهاب اماما قام بعض المعارضين وطالبوه بالآل يقطع أمرا دون مشورة ، فكان رد عبد الوهاب أنه « لا نهرط للإمامة الا الحكم بالكتاب والسنة وآثار الصالحين قبله » . كذلك شكك بعض المعارضين في صحة امامة عبد الوهاب بحجة عدم جواز امامة العالم اذا وجد من هو أعلم منه (٣) .

كذلك تتضح صلة الإباضية العمانيين بإسلام أهل المغرب مما ورد في « سيرة الشيخ الفقيه محمد بن محبوب » ، إذ جاء في هذه السيرة أن أهل عمان وأهل المغرب عقدوا الامامة لعبد الله بن يحيى رضى الله

(١) المرجع السابق ص ٦١٠ - ٦١٣ .

(٢) انظر : محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٨١ .

(٣) بخصوص هذه الفتنة انظر : الشماخي : سير ... ص ١٤٤ -

١٥٤ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ص ٣٨٨ - ٣٩٢ .

عنه ^(١) ، وذلك في زمان أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة « وعن رأيه كان ذلك من عقد أهل المغرب لأبى الخطاب ثم ابن رستم من بعده ثم عد الوهاب بعد ذلك » ^(٢) .

أما محبوب بن الرحيل فهو من العلماء الإباضية العمانيين وقد توفي وهو قاضى صحار في عمان في النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى في سنة ٢٦٠ هـ ^(٣) (٧٤٤ م) .

وقد أشار السالى الى كتاب عن محمد بن محبوب رحمه الله الى أهل المغرب ^(٤) . وقد وجدنا هذا الكتاب في مخطوط « السير والجوابات » . وهذا الكتاب جاء في سيرة الشيخ الفقيه محمد بن محبوب رحمه الله ، وبدأه بعد البسملة بقوله : « الى جماعة من كتب اليه من المسلمين ^(٥) من أهل المغرب من أخيه محمد بن محبوب » . وجاء هذا الرد على أسئلة الإباضية في المغرب ، في تسع وعشرين صفحة من القطع الكبير من صفحة ٥٥٤ الى صفحة ٥٨٣ في المخطوط .

وفي هذا الكتاب ل محمد بن محبوب الرد على الإباضية في بلاد المغرب عما سألوا عنه من أمور دينية مختلفة وكذلك ما يشترط في امام المسلمين وفي انتخاب الامام . فجاء في كتاب محمد بن محبوب مثلاً ، الاجابة عن مصارف الزكاة اذا وصلت الى الامام ، وعن تولية عامل على الحاج اذا خرجوا الى مكة ، وعن الحكم والقضاء ومن يقوم به ، وعن قبول الامام أو القاضى للهدايا ، وعن الرشوة والسرقة ، وعن العامل اذا استعمل وهو فقير ثم ظهرت في يده أموال من غير ميراث دخل عليه في عمله ،

(١) هو عبد الله بن يحيى الكندى المشهور بطالب الحق والذى قامت امامته الإباضية في حضرموت واليمن في سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) .

(٢) مخطوط « السير والجوابات » ص ٥٨١ .

(٣) السالى : تحفة الأعيان ج ١ ص ١٢٧ .

(٤) المسلمين تعنى الإباضية .

(٥) مخطوط « السير والجوابات » ص ٥٥٤ .

وعن اقامة الحد ، وعن الارتداد عن الإسلام ، وعن التقية وهل
تجوز في القول أو في العمل •

كذلك شمل هذا الكتاب أحكاما عن الغزو والجهاد ، وعن الخروج
لحاربة العدو ، وعن المشركين اذا غزاهم المسلمون ممن كانت له ذمة وعهد
وممن لم تكن له ، كذلك أجاب الكتاب عن جبر الامام رعيته على الغزو
والجهاد •

وأجاب الفقيه محمد بن محبوب عن عقد الامامة ، وعن العقد للامام
الذى يخلف الامام المتوفى • ويعطى الفقيه محمد بن محبوب الأمثلة دائما
مما فعله أهل عمان وأهل المغرب • كذلك يذكر محمد بن محبوب رأيا
لوالده الفقيه محبوب بن الرحيل في الفرق بين الامام وبين أمير المؤمنين
فيقول : « ... » وقد بلغنى عن والدى محبوب بن الرحيل رحمه الله انه
حمل ذلك عن بعض أشياخنا ، انه ذكر له ذلك في أئمة عمان وحضرموت فقال
الأئمة في الأمصار ، كل امام في مصره ، فاذا اتصل حكم المسلمين كانت
شورى بين المسلمين ، ولا يجوز ان يسمى أمير المؤمنين لأنه اسم جامع
للمؤمنين في كل الأمصار ، كما لا يجوز أن يقال أمير الناس كلهم وامامهم
كلهم الا أن يملك جميع أرض الإسلام فحينئذ يكون أمير المؤمنين ويكون
على كل امام أن يسمع له ويطيع ويبطل الامامة عنه ، فهذا ما عليه
المسلمون ... » (١) •

وهكذا نرى أن تاريخ بلاد المغرب الإسلامى حفظ ودون مجهودات
الأباضية العمانيين في صنع التاريخ المغربى الإسلامى العربى وفي اقامة
الدول الأباضية التى كان لها أثر كبير في نشر الإسلام في بلاد المغرب
وفي السودان وفي أفريقية بصفة عامة • كذلك حفظ التاريخ العمانى كما
حفظت سير الفقهاء والعلماء الأباضية العمانيين ، التاريخ المغربى وتاريخ

(١) مخطوط « السر والجوابات » ص ٥٨٢ •
(م ٢٠ - ندوة الدراسات في ٣)

الدول الأباضية التي قامت على أساس الإسلام . واعتبر التاريخ العماني هذا التاريخ المغربى جزءاً من تاريخ عمان .

.. وربطت عمان بين المشرق الإسلامى وبين المغرب . على البعد بينهما .
من أجل نشر الإسلام ومن أجل الوحدة الإسلامية .

وقد لاحظنا أن أئمة الدولة الرستمية حرصوا على إرسال الوصايا والنصائح المكتوبة إلى عمالهم على البلاد ليتبعوا أصول الإسلام وقواعد الدين الحنيف مثلما كان يفعل الأئمة العثمانيون مع ولايتهم وعمالهم .

وبعد فأننا لابد أن نشير هنا إلى أن المغرب الإسلامى العربى بقى القاعدة الخلفية التى تقوم على حماية الإسلام . وكان المغرب الإسلامى بعد انتشار الإسلام فيه قاعدة امامية لنشر الإسلام فى اسبانيا وجنوب فرنسا وجزائر الخوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط ، وكانت هذه البلاد والجزر هى أهم وسيلة لاتصال غرب أوروبا بالحضارة الإسلامية .

ولابد للمؤرخ المصنف أن يبين فضل أصحاب الدعوة والعلم والتجار من الأباضية العثمانيين الذين ركبوا كل صعب فى سبيل نشر الإسلام والدعوة إليه كلما أمكنهم ذلك . وقد كانوا روادا فى مناطق وآفاق كانت مجهولة لدى العالم الأوروبى الحديث ومن سبقهم من الشعوب المتحضرة كالأغريق والرومان . والمعروف ان الأوربيين لم يبدعوا الدراسات الاغريقية وكشف مجاهل أفريقية الا فى أعقاب عصر النهضة والاستكشافات البحرية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر الميلادى ، واقتصرت كتابتهم حينذاك على السواحل ومصبات الأنهار مدة قرن من الزمان على أقل تقدير ، وكان هدفهم الاتجار بالرقيق واستغلال خيرات البلاد فضلا عن التبشير بالنصرانية بعدما أخفقت المعركة الصليبية فى الشرق العربى .

وقد حاول الاستعمار لبلاد المغرب في العصر الحديث ان يقاوم مقومات الإسلام والعروبة فيه وأن يزيف الحقائق التاريخية وأن يباعد بين المغرب وبين أصلاته الإسلامية العربية التي تمتد منذ القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ولكن محاولة المستعمرين الجبارة في هذا الصدد كتب عليها الفشل الذريع وبقيت المغرب أصيلة في اسلامها وعروبتها •

نقاط البحث :

- ١ — انتشار الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية •
- ٢ — فتح العرب لبلاد المغرب وإسلام المغاربة •
- ٣ — الحكام الأمويون وولاتهم بعد فتح المغرب •
- ٤ — الفقهاء والدعاة وشخصية بلاد المغرب الإسلامية والعربية •
- ٥ — أباضية عمان والدعوة الى الإسلام والى الامامة العادلة •
- ٦ — الدعوة الأباضية فى بلاد المغرب •
- ٧ — انتشار الإسلام فى ظل دول المغرب الأباضية :
 - رئاسة عبد الله بن مسعود التجيبى الأباضى •
 - امامة الحارث بن تليد الحضرمى •
 - امامة اسماعيل بن زياد النفوسى •
 - دولة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى •
 - امامة أبى حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزى •
 - الدولة الرستمية •
- بلاد المغرب فى التاريخ العماني وفى سير الفقهاء والعلماء الأباضية •

أهم مراجع البحث

(١)

المصادر المخطوطة

- ابن عبد السلام (جعفر بن أحمد . ت في أواخر القرن الحادى عشر الهجرى) إبانة المناهج في نصبحة الخوارج . مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٢٥٤٩٩ ب .
- أبو زكريا (يحيى بن أبى بكر . ت في النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) : السيرة وأخبار الأئمة . مخطوط في دار الكتاب المصرية بالقاهرة . رقم ٩٠٣٠ ح .
- البرادى (أبو القاسم بن ابراهيم . ت ٦٩٧ هـ) : رسالة فيها تنقييد كتب أصحابنا . مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٢١٧٩١ ب .
- الجيظالى (اسماعيل بن موسى . ت ٧٥٠ هـ) : شرح قواعد الاسلام . مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٢٢٠٦٧ ب .
- الخراسانى (أبو غانم . ت في القرن الثانى الهجرى) : المدونة . مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٢١٥٨٢ ب .
- الدرجينى (أبو العباس أحمد . ت في القرن السابع الهجرى) : طبقات الأباضية . مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ١٢٥٦ ح ، ٧٢٦١٢ تاريخ تيمور .
- الشماخى (أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخى الأباضى . ت ٩٢٨ هـ) :
 - ١ — شرح مقدمة التوحيد . مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٢٢٥٧٢ ب .
 - ٢ — شرح مقدمة أصول الفقه . مخطوط في دار الكتب المصرية . رقم ٢١٥٨٧ ب .
- العوتبى (سلمة بن مسلم الصحارى العوتبى) : انساب العرب . مخطوط في دار الكتب المصرية . رقم ٢٤٦١ تاريخ .

— النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب . ت ٧٢٦ هـ) : نهاية
الزرب في فنون الأدب . المطبوع منه ١٨ جزءا الطبعة الاولى بدار الخنب
المصرية . القاهرة ١٩٢٣ — ١٩٥٥ والباقي مخطوط بدار الخنب المحرية
تحت رقم ٥٥٤ « معارف عامة » .

— الوسيانى (أبو الربيع ت ٤٧١ هـ) : سير أبى الربيع . مخطوط في دار
الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٩١١٣ ح .

— كتاب سير الأئمة القانمين بالحق في الأمة . وهو المعروف باسم « السير
والجوابات عن العلماء والأئمة رحمهم الله تعالى » . مخطوط محفوظ
في وزارة التراث القومى والثقافة في سلطنة عمان . الرقم العام ١٨٥٤ .
الرقم الخاص ٢ .

(ب)

المراجع العربية المطبوعة

— ابراهيم على طرخان (الدكتور) :

١ — الاسلام واللغة العربية في السودان الاوسط والغربى (مستخرج
من مجلة جامعة أم درمان الاسلامية — العدد الثانى ١٣٨٩ هـ /
١٩٦٩ م — دار النصر للطباعة — القاهرة) .

٢ — قيام امبراطورية مالى الاسلامية (مستخرج من مجلة جامعة القاهرة
بالخرطوم . العدد الاول ١٩٧٠ م . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧٠ م) .

٣ — امبراطورية غانة الاسلامية (الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر
١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) .

— ابن أبى دينار (محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى . ت ١٠٩٢ هـ) :
كتاب المؤنس في أخبار أفريقية وتونس . نشر تونس ١٢٨٠ هـ .

— ابن أبى زرع (على بن محمد بن أحمد بن عمر . كان حيا قبل سنة ٧٢٦ هـ) :
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة
فاس ، نشر الرباط . المغرب ١٣٥٥ هـ .

— ابن الأثير (عز الدين على بن محمد . ت ٦٣٠ هـ) :

١ — الكامل في التاريخ : ١٢ جزءا ، طبع بولاق القاهرة ١٢٩٠ هـ .

٢ — أسد الغابة في معرفة الصحابة : ٥ أجزاء . القاهرة ١٢٨٥ هـ —
١٢٨٦ هـ .

— ابن الصغير : أخبار الأئمة الرسنيين . (نشر وترجمة موتيلينسكى) .

Chronique d'Ibn Saghir sur les Imams de Tahert. éd. et trad. par
motylinski, dans actes du 14e Congrès des Orientalistes, 3e Partie, 1907.

— ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهذاني : ت أواخر القرن الثالث
الهجرى) : مختصر كتاب البلدان . طبع ليدن ١٨٨٥ م .

— ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد الطنجي : ت ٧٧٩ هـ) : تحفة النظار
في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . المعروفة برحلة ابن بطوطة .
٤ أجزاء نشر باريس ١٨٥٣ — ١٨٥٨ : ونشر القاهرة في جزئين ١٣٤٦ هـ /
١٩٢٨ م .

— ابن جبير (أبو الحسن محمد بن جبير الكتاني : ت ٦١٤ هـ) : كتاب رحلة
ابن جبير المعروف باسم « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » .
نشره دي غويه الهولندي سنة ١٩٠٧ م في الجزء الخامس من سلسلة
جب التذكارية .

— ابن حجر (شهاب الدين بن علي العسقلاني : ت ٨٥٣ هـ) :
الاصابة في تمييز الصحابة : القاهرة ١٣٥٨ هـ .

— ابن حزم الاندلسي (الامام أبو محمد علي الظاهري : ت ٥٦٤ هـ) :
الفصل في الملل والأهواء والنحل : ٤ أجزاء . القاهرة ١٣١٧ هـ .

— ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي . ت أواخر القرن الرابع
الهجرى) :

١ — المسالك والممالك والمفاوز والممالك . نشرة دي غويه في المجموعة
الجغرافية العربية . ليدن ١٨٧٣ م .

٢ — صورة الأرض . طبع بيروت — مكتبة دار الحياة .

— ابن خرداذبة (ت حوالي ٣٠٠ هـ) : كتاب المسالك والممالك . المجلد
السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية . ليدن ١٨٨٩ م .

— ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربي : ت ٨٠٨ هـ) :

١ — العبر وديوان المبتدا والخبر — مطبعة بولاق — القاهرة ١٢٨٤ هـ .

٢ — المقدمة . القاهرة ١٣١١ هـ .

— ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي ت ٦٨١ هـ) :

ونيات الأعيان : جزآن . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

— ابن رزيق (حميد بن محمد . ت ١٢٧٤ هـ) :

١ — الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين . تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى . الناشر وزارة التراث القومي بسلطنة عمان . مطابع سجل العرب بالقاهرة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

٢ — الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان . تحقيق عبد المنعم عامر . الناشر وزارة التراث القومي بسلطنة عمان . طبع بدار احياء الكتب العربية بالقاهرة ١٢٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

— ابن سعد (كاتب الواقدي . ت ٢٣٠ هـ) :

الطبقات الكبرى ٨ اجزاء ، لندن ١٩٠٥ — ١٩٢١ م ، وجزآن . القاهرة ١٣٥٨ هـ .

— ابن سعيد (على بن موسى المغربي : ت ٦٧٣ هـ) :

السفر الرابع من كتاب المغرب في حلى المغرب . لندن ١٨٩٩ م ، وتحقيق زكي محمد حسن ، وشوقي ضيف . وسيدة اسماعيل كاشف . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥١ م .

— ابن طباطبا (محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى . انتهى من تأليف كتابه في سنة ٧٠١ هـ) :

الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية . القاهرة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م .

— ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري : ت ٢٥٧ هـ) :

فتوح مصر والمغرب والاندلس . نشر شارل تورى Torrey ، طبعة ليدن ١٩٢٠ م .

— ابن عذاري المراكشي (ت اواخر القرن السابع الهجري) :

البيان المغرب في أخبار المغرب : جزآن ، مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥٠ م .

— ابن غلبون (ارتحل الى الازهر وعاد الى بلده مسراتة سنة ١١٣٣ هـ) :

كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من الأخبار : نشر الطاهر أحمد الزاوى ، القاهرة ١٣٤٩ هـ .

- ابن قتبية (أبو محمد عبد الله بن مسلم . ت ٢٧٠ هـ أو ٢٧٦ هـ) :
كتاب الإمامة والسياسة : جزءان . القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ابن كثير (الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن
كثير القرشي الدمشقي . ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية في التاريخ .
ج ١ و ٢ . الطبعة الأولى القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .
- ابن هشام (الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري
الحميري . ت ٢١٨ هـ) :
كتاب سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . ٤ أجزاء . القاهرة
١٣٣٧ و ١٣٥٦ هـ .
- أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمي . ت سنة ٣٣٣ هـ) :
طبقات علماء إفريقية . الجزائر ١٩١٤ م . (نشر الشيخ محمد بن أبي
شناب) .
- أبو الفداء (اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه
ابن أيوب الملك المؤيد صاحب حماه . ت ٧٣٢ هـ) :
كتاب تقويم البلدان . ترجمة ونشر Ch. Solvet . الجزائر ١٨٣٩ م .
- ارنولد (المستشرق Sir Thomas Arnold) :
الدعوة إلى الإسلام ، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن وآخرون ،
الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- الإدريسي (محمد بن محمد بن عبد الله الشريف . ت ٥٦٠ هـ) :
صفة المغرب وأراضي السودان ومصر والاندلس مأخوذة من كتاب نزهة
المشتاق في اختراق الآمان . لندن ١٨٦٤ — ١٨٦٦ م .
- الاصطخرى (إبراهيم بن محمد . ت في النصف الثاني من القرن الرابع
الهجري) :
كتاب مسالك الممالك . لندن ١٩٢٧ م .
- البرادي (أبو القاسم بن إبراهيم . ت ٦٩٧ هـ) :
الجواهر المنتقاة ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .
- البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز . ت ٤٨٧ هـ) :
المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب . طبع دسلان De Slane الجزائر ١٩١١ م
- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي . ت ٢٧٩ هـ) :
فتوح البلدان . الطبعة الأولى بالقاهرة ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م .

- التونسي (محمد بن عمر . ت ١٨٥٧ م) :
تشحيز الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان . القاهرة ١٩٦٥ م (مجموعة
كتب تراثنا) .
- الدباغ (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري . ت ٦٩٦ هـ) :
معالم الايمان في معرفة أهل القيروان : جزءان ، تونس ١٣٢٠ هـ .
- الجزنائي (أبو الحسين علي) :
كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس . الجزائر ١٣٤٠ هـ / ١٩٢٢ م .
- السالبي (أبو محمد عبد الله بن حميد بن سلوم السالبي) :
تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان . الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، القاهرة
١٣٣٢ هـ والجزء الثاني ، الطبعة الخامسة ، الكويت ١٣٩٤ هـ .
- السلواي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري . ت ١٣١٩ هـ) :
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . طبع القاهرة ١٨٩٤ م .
- الشماخي (أحمد بن سعيد . ت ٩٢٨ هـ) :
كتاب السير : سير علماء ومشاريح جبل نفوسة . المطبعة البارونية
بالقاهرة ١٣٢٠ هـ .
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير . ت ٣١٠ هـ) :
تاريخ الأمم والملوك ، ١١ جزء ، الطبعة الأولى بالطبعة الحسينية المصرية ،
وطبعة لندن .
- العمري (شهاب الدين أحمد بن فضل الله . ت ٧٤٩ هـ) :
١ — التعريف بالمصطلح الشريف . القاهرة ١٣١٢ هـ .
٢ — مسالك الأبحار في ممالك الأمصار . الجزء الأول تحقيق أحمد
زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٤ م ، والباقي مخطوط في دار الكتب المصرية
بالقاهرة .
- الفرناطي (أبو حامد محمد بن عبد الرحيم الأنطلسي . ت ١١٧٠ م) :
كتاب تحفة الألباب . نشر g. Ferrard ، باريس ١٩٢٥ م .
- القلقشندي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي . ت ٨٢١ هـ) :
صبح الأعشى في صناعة الإنشأ . ١٤ جزء ، الطبعة الأميرية بالقاهرة
١٩١٣ — ١٩١٩ م .

— المالكي (أبو عبد الله بن أبي عبد الله . ت حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى) :

رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان . القاهرة ١٩٥١ م .

— الماوردي (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب . ت ٤٥٠ هـ) :
الأحكام السلطانية . القاهرة ١٣٢٨ هـ .

— المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على . ت ٢٤٥ هـ او ٣١٦ هـ) :

١ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٩ أجزاء ، باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧ م ،
وطبعة مصر ١٣٠٣ هـ .

٢ — اخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان (مخطوط فى مجلد
رقم ٨٧٩ بدار الكتب المصرية) .

— المقرئى (تقى الدين أحمد بن على . ت ٨٤٥ هـ) :

١ — المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، جزآن ، مطبعة بولاق
١٢٧٠ هـ .

٢ — الامام بأخبار من بالأرض « الحبشة » من ملوك الاسلام . مصر
١٨٦٥ م .

— اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح . ت ٢٨١ هـ) :
كتاب البلدان ، الجز السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية ، ليدن
١٧٩٢ م .

— زلمباور (المستشرق) :

معجم الانساب والامرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى : جزآن ، ترجمة
الدكتور زكى محمد حسن ، وسيدة اسماعيل كاشف ، وآخرور . منبنة
جامعة القاهرة ١٩٥١ م .

— زكى محمد حسن (الدكتور) :

الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٥ م .

— حسن إبراهيم حسن (الدكتور) :

انتشار الاسلام والمعروبة فيها إلى الصحراء الكبرى شرقى القارة الافريقية
وغربها معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٥٧ م .

— حسن أحمد محمود (الدكتور) :

قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ م .

— سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) :

- ١ — تاريخ المغرب العربى . دار المعارف ، الاسكندرية ١٩٦٥ م .
- ٢ — كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر وتعليق — الاسكندرية — ١٩٥٨ م .

— سيده اسماعيل كاشف (الدكتور) :

- مصر فى فجر الاسلام . الطبعة الاولى القاهرة ١٩٤٧ م .

— عبد الرحمن زكى (الدكتور) :

- المراجع العربية للتاريخ الاسلامى فى غرب افريقيا . الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة ، ١٩٦٨ م .

— عبد المجيد عابدين (الدكتور) :

- ١ — تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، القاهرة ١٩٥٣ م .
- ٢ — بين العرب والحبشة ، القاهرة ١٩٤٧ م .

— على يحيى مصر :

- ١ — الاباضية فى موكب التاريخ . القاهرة ١٩٦٦ م .
- ٢ — الاباضية بين الفرق الاسلامية . القاهرة ١٩٧٦ م .

— عوض خليفات (الدكتور) :

- نشأة الحركة الاباضية . الأردن عمان ١٩٧٨ م .

— محمد عبد الله عثمان :

- دولة الاسلام فى الاندلس — الكتاب الاول — القاهرة ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م .

— محمد على دبور :

- تاريخ المغرب الكبير ج ٢ و ٣ ، القاهرة ١٩٦٣ م .

— نعوم شقمر :

- تاريخ السودان ، مطبعة المعارف بالقاهرة ١٩٠٣ م .

— ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ، ت ٦٢٦ هـ) :

- معجم البلدان . ٨ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م .

— يوسف كمال (الأمير) :

- أطلس افريقية ومصر : ٥ مجلدات ضخمة القاهرة ١٩٢٦ — ١٩٥١ م .

المراجع الأجنبية

- Basset, René : Les Sanctuaires du Djebel nefousa (Jowrnal asiaticque mai-yuin, 1899).
- De la Roncière, Charles : La Découverte de afrique au moyen - dge. La Caire 1925-1927.
- Fournel, Henri : Les Berbères. Etude sur la conquête de l'afrique par les arabes. Paris 1875.
- Gautier, E. F. : Le Passé de l'afrique du nord. Paris 1942.
- Trimmingham, Spencer : Islam in the Sudan. London 1949.

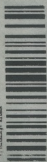
محتويات المجلد الثالث

الموضوع	الصفحة
الأخلاق العمانية ونظامها بدر بن سالم العبرى	٧ — ٤٧
دور عمان في نشاط التجارة العالمية في العصر الاسلامى الأول للدكتور حبيب الجنحاني	٤٩ — ٧٤
ثالثا : عمان في شرق افريقية	
الدولة العمانية في شرق افريقية للاستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم	٧٥ — ١٣٦
دور عمان في بناء حضارة شرقى افريقية للاستاذ الدكتور رأفت غنيمى	١٣٧ — ٢٠٣
رابعا : صلات عمان بالمغرب العربى	
الصلات التاريخية بين المغرب وعمان للاستاذ الدكتور عبد الهادى التازى	٢٠٧ — ٢٣٤
اباضية عمان ونشر الاسلام في بلاد المغرب للاستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف	٢٣٥ — ٣١٧

رقم الايداع ٣٧٦٧ لسنة ١٩٨١

مطابع سجل العرب

Bibliotheca Alexandrina



0206148